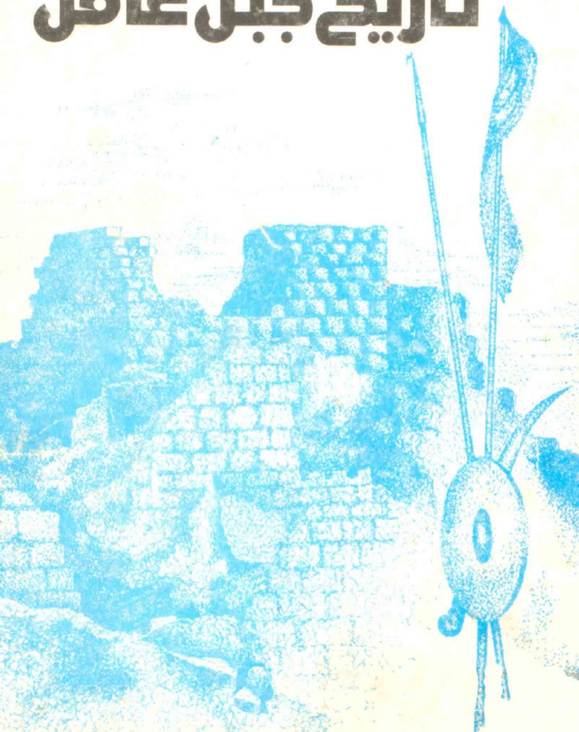
محمد جابر آل صفا

تاريخ جبل عامل



دار النهار للنشر

الإهداء

الى من أحب جبل عامل وكان فيه عاملا.

الى من عشق الجنوب وكان بعشقه كاملا.

الى من علّم بدمه هوية الجنوب كلما جف حبرها.

الى من كان الجنوب في عقله قضية وفي قلبه هوية.

الى من ذبلت ازهار «جبل عامل» حزنا على غيبته ويبست حقول تبغه حدادا على غربته. وسجدت اشجاره التماسا لعودته.

الى من لبس الجنوب بعده أسملة البلاء ورداء القهر.

الى الجندي اللبناني الباسل... شهيد اليوم وأمل الغد

يهدي هذا الكتاب.

الرائد هشام جابر – آل صفا

مقدمة أولى

بقلم الرئيس تقي الدين الصلح

ان خوف أهل جبل عامل على بلادهم من أن تعصف بها المطامع كان من أهم بواعث اندفاعهم الحالي المحموظ الى الاهتمام بابراز شخصيتهم الاجتماعية والثقافية وتاريخهم ودورهم. ولا ريب ان العامليين يعيشون في هذه الأيام يقظة من هذه الناحية تشهد بها الدراسات الكثيرة التي يضعها مثقفوهم وادباؤهم.

واعادة نشر هذا الكتاب لمؤلفه الجليل هي جزء من هذه الظاهرة الطيبة التي شملت محمد جابر آل صفا وسواه من اعلام النهضة العاملية الغنية بشتى أنواع العطاء العلمي والأدبي.

وقد تيسّر لي منذ بدء شبابي ان أكون قريبا من رجال هذه النهضة استمتعت بمجالسهم واحاديثهم وكتاباتهم وتحركاتهم وتعلمت منهم تعلم الطالب في المدرسة قبل أن أصبح صديقاً متعاوناً معهم.

وما كانت النبطية بالنسبة اليّ مركز علاقات لعائلتي واعمال وارزاق فحسب. بل كانت الى جانب ذلك كله وقبله موطن حركة فكرية وسياسية ووطنية آخذ منها واعطي. كما علمني أبي منح. وعمّاي كامل ورضا. ووالدهم أحمد قبلهم.

ولست اغالي اذا قلت ان النبطية كانت بيتا لنا. كما كانت بيروت وكما كانت صيدا. وقد نظرت اليها نظرة أهلي على أنها حاضرة لامعة من حواضر ولاية بيروت الممتدة من نابلس وحيفا وعكا الى اللاذقية أيام العثمانيين. وعلى أنها معقل وطني في الجمهورية اللبنانية. في ظل الانتداب وعهد الاستقلال. اليها نستند كعائلة. في العمل السياسي الوطني والتمثيل الانتخابي وتجمعنا بها كل أنواع الروابط.

وكان للنبطية منزلة عند كل عربي متنوّر ذي صلة بالنشاط الوطني والسياسي والثقافي المنتشر في أرجاء الجنوب. هذا الجنوب الذي عرفته الحركة العربية مع اشعاعها الأول. ساحة رئيسية من ساحاتها. من شقرا الى مرجعيون الى الخيام الى بنت جبيل الى صور الى جباع سلسلة من منائر العلم والأدب والجهاد. وليس من قبيل الصدف أن تكون الندوة الأولى وفيها صاحب هذا الكتاب من الذين سيقوا الى المحاكم العرفية في عاليه زمن العثمانيين هي في أكثريتها من أبناء هذه البقعة العزيزة.

وتاريخ النهضة هذه التي عرفتها وعشتها يكاد يكون قصة مشايخها: الشيخ أحمد رضا. والشيخ سليمان الظاهر. ومحمد جابر الذي عجبت أول ما شاهدته في صغري من أنه ليس شيخاً ولا ذا عمامة كما كنت أتخيله وانما هي رفقة النضال جعلت كل جنوبي متفتح واحداً في حركتهم الثائرة.

وكان هؤلاء والحق يقال رواداً في مقاومة الظلم والاقطاع والطبقية والطائفية والرجعية كما كانوا طرازاً مرموقاً فريداً في الجمع بين النزعة الثورية والقدرة على البناء. بين الهدف السامي والاسلوب الفعّال. بدأوا افراداً معدودين. وتمكنوا بدأبهم وشجاعتهم ومزاياهم الخلقية والفكرية من أن يصبحوا تياراً.

وقد كنت أكثر احتكاكاً بمحمد جابر مني بغيره من أولئك الاعلام مما أتاح لي أن أتعرّف من موقع التلمذة الى روحه الوطنية وتفكيره الثوري في كل مجال ولاسيما مجال التحرر من الجمود والتحجر. والتخلف الاجتماعي والسياسي. وقد كانت حياته اليومية ممتزجة بهمومه هذه فلا يفارقه حديث النقد والاصلاح. لا في بيته بين أهله وأصدقائه ولا في متجره مع زوّاره والمتعاملين معه.

وكان الى مواهبه الأدبية. شغوفاً فطرة ومنهجاً بمادة التاريخ التي كانت تزيد حديثه طلاوة وجاذبية وافكاره غنىً وقوة. ونزعته الثورية أصالة وتأثيراً.

وعندما قرأت هذا الكتاب لآخر مرة. شعرت وكأنني أقرأه للمرة الأولى. لأن حاضر جيل عامل يلقي ضوءاً جديداً على كل نص قديم. فالتاريخ لا يموت وكل قارىء فيه مكتشف بل خلّاق على طريقته ايا كانت حقائقه الموضوعية. والذينَ يأخذون علينا من أعدائنا أننا لا نقرأ وبالتالي نكرر الاغلاط هم أشد منا خطأً لأنهم يواجهوننا وكأننا

قوم بلا تاريخ .وهذا ما يواجه به الصهاينة اليوم جنوب لبنان بتجاهلهم الصلة الوثيقة التي ربطته بالأرض الفلسطينية في الماضي . وتربطه بالقضية الفلسطينية رباطا وشيجا ابديا .

وانه كتاب يقرأه كل لبناني بل كل عربي . فيطّلع على الجذور الضاربة في التاريخ . ويزداد ثقة بالمصير والمستقبل .

تقي الدين الصلح

مقدمة ثانية

بقلم حسن الأمين

كتاب تاريخ جبل عامل يثير في النفس كوامن الذكريات الحبيبة . الذكريات التي تنطلق من منبعين اثنين : اسم الكتاب واسم مؤلفه .

فاسم جبل عامل ينطلق بك الى الماضي البعيد الذي كان فيه هذا الجبل العظيم مصدر تدفقات ، ومبعث دراسات ، ومطلع دعوات ، افاضت الخير العميم لا عليه وحده ، بل على اقطار قصية كان رجاله فيها بناة النهضات وحملة الاشعاعات مما لا تزال آثاره ماثلة حتى اليوم .

في مدينة اصفهان بايران مثلا يحمل شارع من أعظم شوارعها اسم نابغة من نوابغ جبل عامل تعترف به المدينة الكبيرة بفضل هذا الرجل وتقر باحسانه . ذلك هو محمد بهاء الدين العاملي ، الذي يعرف هناك باسم « الشيخ البهائي »

وفي المدينة نفسها مسجد من أفخم مساجد الدنيا يحمل اسم عاملي آخر هو الشيخ لطف الله العاملي .

وفي مدينة « مشهد » بايران ضريحان لعامليين اثنين هما موضع الاجلال والاكبار ، ومحط رحال الزوار . أولها ضريح الشيخ البهائي نفسه ، والثاني ضريح الشيخ محمد الحسن الحر العاملي .

وفي مدينة حيدر آباد في الهند ضريح لعاملي آخر ، هو الشيخ محمد علي خاتون ، يتهافت لتحيته المتهافتون ، ويقبلون لتكريمه كل يوم .

وحين تكرم تلك المدن ذكرى هؤلاء الاربعة ، وتظل حفية بالتردد الى قبورهم ،

ولأنهم كانوا من الاعلام المصابيح التي اهتدت بنورها تلك الربوع. ولأنهم حملوا دعوة العلم والفكر والصلاح فنشروها حيث حلوا. ولأنهم من الاركان التي قامت عليها نهضات تلك الشعوب.

وحين نخص بالذكر هؤلاء الاربعة. فليس لأنهم كانوا الوحيدين فيما شادوا. وفيما أفادوا. بل لأجعل منهم شاهدا لما كان عليه المثات من امثالهم الذين اطلقهم هذا الجبل. فكانوا دعاة الخير والحق. وكانوا رسل الثقافة والدين.

هذا الجبل الذي جنى عليه الجانون فهتضموه. ولا يزالون. هذا الجبل كان من افظع ما جنوا عليه أن بدلوا اسمه. فاطلقوا عليه اسم «الجنوب» وتركوا اسم جبل عامل. وذلك عندما انشؤوا لبنان الكبير وضموا اليه فيما ضموا جبل عامل. فبدلا من أن يحيوا الاسم الصحيح. فيحيوا بحياته ذكريات المجد التالد. بدلا من ذلك حاولوا اماتته واستطاعوا فاطلقوا عليه اسما يفصله عن ماضيه الرفيع. ويحول بينه وبين تذكر الخوالي من الأيام. أيام الشعر والأدب والفقه واللغة والصلاح والاصلاح وارشاد الأمم وبعث النهضات فيها.

لقد استطاعوا طمس الاسم الحبيب. فطغى اسمهم الغريب حتى بين العامليين أنفسهم. فلو سألت أي عاملي من أين أنت؟ لأجابك: اني من الجنوب!!

لقد اطلع هذا الجبل فيمن اطلع في هذا العصر في بلدة واحدة ثلاثة من الاعلام. كانت بهم بلدة «النبطية» مشكاة من نور يهتدي بها التائهون في دجى ليل الخطوب المطبق!..

ثلاثة هم: الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر. عاشوا في فترة واحدة متلازمين متكاتفين وانصرف كل منهم الى طريق من طرق الهدى سار فيه بلا تعجيج ولا التواء ولا تبرم. فكان الشيخ أحمد رضا «لغويا» اخرج للأمة العربية أعظم معجم في تاريخها الحديث هو «متن اللغة». وكان الشيخ سليمان ظاهر «شاعرا» تغنى بأمجاد امته حين يجب التغني. وبكاها حين لا يطفئ اوار النفس الا الدموع...

وكان محمد جابر «مؤرخا» سجل تاريخ فترة من أدق الفترات التي مرت في حياة

الجبل. فكان كتابه هذا «تاريخ جبل عامل» الذي طبع طبعته الأولى. ثم يعاد اليوم في طبعة ثانية.

واذ كنت أقول ان محمد جابر كان مؤرخا، فانما أعني ان مهمته التي تفرغ لها كانت التاريخ. والأمانة كان الى جانب ذلك شاعرا معدودا من شعراء الجبل وأدبائه، وله مجموعة شعرية لا تزال مخطوطة تدل على موهبة شعرية تستحق التقدير. كما كان وطنيا عاملا سبق مع من سبقوا من الوطنيين الاحرار الى الديوان العرفي في عاليه ايام السفاح جمال باشا، ولم ينج من كيده الا بأعجوبة. كما كان داعية من دعاة التقدم والنهوض يستأنس برأيه الشبان المتوثبون الى نهضة وطنهم.

ولقد سجل ذكرياته عن تاريخ الحركة العربية في جبل عامل في رسالة تضمنت الكثير من الحقائق التاريخية التي تشكل ركنا من أركان التاريخ العام لحركات الوطن العربي الأكبر.

ومن المؤسف ان هذه الرسالة لم تطبع ولا ادري الآن الى أي مصير صارت.

إنَّ ما سجّله محمد جابر في (تاريخ جبل عامل). سجله بعد عمل مضن وتنقيب طويل لندرة المصادر وصعوبة الوصول اليها.

ومن المؤسف أن الكتاب قد تعرض عند صدور طبعته الأولى بعد وفاة المؤلف الى نقمة من حاقد فاشل عرف بحسده لكل عمل ناجح ومقاومته لكل عامل بارز. فنشر مقالا في احدى الصحف يتجنى فيه على مؤلف الكتاب. ويفتري افتراءات مفضوحة مما اضطرني الى التصدي له والمدافعة عن المؤرخ العاملي الذي خدم بلاده بكتابه خدمة كان يجب أن تتطلب الثناء لا الافتراء.

ونحن اذا كنا نشير الى ذلك فلكي نبين ان المخلصين يلقون في كل عصر عنتا بلاحقهم حتى بعد مماتهم. ولكن الحقيقة هي الغالبة ابدا. فقد أقبل القراء على الكتاب حتى نفد بعد فترة قصيرة وأصبح الحصول عليه معزا من امنياتهم. وهو اليوم من أهم المراجع التي يرجع اليها في دراسة لا تاريخ جبل عامل وحده. بل في دراسة تاريخ بلاد الشام كلها.

وها هو اليوم يعود في حلة جديدة شائقة ليقدم الى القراء ما فيه من حقائق كانت لولاه ستظل مطموسة حبيسة.

والذين عرفوا محمد جابر في حياته ونعموا بخلقه الرفيع وحديثه العذب وأدبه الجم ووفائه المحض. لا يسرهم شيء بقدر ما يسرهم أن يروه خالدا على الدهر بكتابه الخالد.

حسن الأمين

المدخل

التاريخ في اللغة : وقت الشيء الذي ينتهي اليه . وعرفاً : الاخبار عن الحوادث الزمانية ، والبحث عن القضايا التي وقعت في الاعصر الغابرة ، وعللها وأسبابها .

وموضوعه : معرفة أحوال الامم والامصار ، وسير الرجال الذين كان لهم اثر طيب ومقام محمود او بالعكس ، في تلك العصور .

وفوائده عديدة منها : العبرة بتلك الأحوال ، وتجنب أخطائها ، واقتفاء آثار افاضل القوم من ذوي الأعمال الطيبة الذين افادوا المجتمع وسعوا لخير الانسانية . ثم الاحتراز من اعمال الخونة والاشرار ورجال الظلم والاستبداد الذين استعبدوا الشعوب واضروا الأمم .

فالباحث في التاريخ ، الواقف على منطوياته ، المستجلي غوامضه ، تتسع معلوماته ، وتنضج أفكاره وتصوراته فيتخذ من حوادث الماضين قياساً لتعديل سلوكه ، واصلاح خطط بني قومه . ويكوّن منهما مثالاً لاقتباس محاسن الأخلاق ومحامد الذكر ، والتحلي بالفضائل ، والابتعاد عن قبيح الأعمال والرذائل . وبعبارة مختصرة فالتاريخ هو مرآة الماضي وعبرة الحاضر ودليل المستقبل .

أقسام التاريخ

التاريخ قسمان : عام وخاص . وينقسم الأول الى أربعة ادوار :

الدور الأول – العصر القديم منذ الخليقة الى سقوط مملكة الرومان وانقراضها في سنة ٤٧٦ م .

الدور الثاني – عصر القرون الوسطى الأول منذ سنة ٤٧٦م الى سنة ١٤٥٣م وهي السنة التي سقطت فيها حكومة بيزنطية وفتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح العثماني .

الدور الثالث – عصر القرون الوسطى الثاني من سنة ١٤٥٣ م الى سنة ١٧٨٩ م.

الدور الرابع . الدور المعاصر من سنة ١٧٨٩ م وهي السنة التي استعرت فيها نار الثورة الفرنسية فدحرجت التيجان ودكت العروش وقلبت اوضاع الأمم وقوانينها في اوربا وغيرها من بلدان العالم الى سنة ١٩١٤ .

ويرى القارىء ان هذا التقسيم وتحديد الأدوار يكون عقيب كل انقلاب او حادث عظيم . اذن لا بد ان يضيف المؤرخون المعاصرون الى اقسامه وادواره دوراً خامساً يبتدىء من سنة ١٩١٤ وهي السنة التي انشبت فيها الحرب العظمى حيث اشترك فيها عشرون مليوناً من الجنود في مجزرة بشرية يفتك بعضهم بالبعض الآخر ارضاء للشهوات والمطامع باسم حفظ العمران والمدنية والذود عن الحرية . فما اظلم الانسان لاخيه الانسان واشد ما تبجحوا باسمك زوراً وبهتاناً ايتها الحرية .

والتاريخ الخصوصي يشمل التاريخ المتعلق بموضوع واحد كمملكة او دولة او ولاية او مدينة او عائلة او شخص. والمتعلق بالشخص يسمى ترجمة او سيرة او تاريخ حياة .

وانما اخترنا البحث في تاريخ هذه البلاد لان الحاجة بنا اليه امس والحال ألزم والفائدة اعم وأقرب .

ولا يختلف اثنان ان من أولى واجبات المرء وطالب المعرفة ان يعلم تاريخ بلاده وحوادث قومه ثم ينظر فيما بعد في حوادث الاغيار وتاريخ الامم . والمرء المثقف يعاب عليه اذا جهل تاريخ الاجيال والممالك العامة . فكيف

اذا جهل تاريخ بلاده والدول التي تعاقبت عليها وما جرى في عصرهـــا من حوادث ووقائع ورجال العلم والزعماء الذين أفادوا المجموع وحفظوا كيانه .

غموض تاريخ جبل عامل

لا اكتم ان البحث في تاريخ جبل عـــامل بوجه خاص عسر جداً وعمل شاق يكتنفه الغموض ويحيط به الابهام لقلة المستندات وضياع الوثائق التي يرجع اليها الباحث لتحليل الحوادث واستنباط الادلة والبراهين ومعرفة أوضاع البلاد وما طرأ عليها من صعود وهبوط ، وداهمها من شقاء وبلاء وما تمتعت به من رغد وصفو ورخـــاء . وبالاجمال تكوين صورة بارزة واضحة لحياتها الاجتماعية والقومية .

ومن الغريب العجيب في تاريخ الشعوب والامصار ان هذه البقعة المعروفة - بجبل عامل - ذات ماض مجيد وتاريخ مفعم بالحوادث حافل بالعظائم وان دور العلم فيهـــا كانت تغص بالطلاب والمدرسين غنية بالمؤلفات النادرة والمخطوطات الثمينة والكتب القيمة ، ونوادي الادب تزهر بالقريض وفنون اللغة. وقد تخرج منها اعلام العلماء وكبار الشعراء ونبغ فيها رياضيون ومخترعون وأعاظم الكتبة والمؤلفين . واشتهر بها أعظم القواد بسالة واقداماً وأسخى الاجواد كرماً ونبلاً وأرق الشعراء غزلاً ونسيباً وأفضل العلماء ورعاً وزهداً.

وقد جرت فيها مع ضيق مساحتها وصغر حجمها حروب دامية ومعارك مريعة. وأنبتت أبطالاً اشداء ورجال حرب وجلاد وساسة ووزراء ومن تولوا مشيخة الاسلام وألفوا في متن اللغة وسائر الفنون العربية وكانوا دائمـــاً في طليعة عصرهم علماً وذكاء ونبوغاً .

وأعجب منه ان اولئك العلماء العباقرة مع ما امتازوا به من طول الباع وسعة الاطلاع والتضلع بانواع العلوم ومـــا لهم من الآثار العلمية والمؤلفات النفيسة في الفلسفة الإلهية والأصول والفقه والرياضيات والهندسة والجبر واللغة والادب والقريض لم يؤلفوا أو على الاقل لم يصل الينـــا من متروكاتهم

الفكرية كتاب في التاريخ سواء العام او الخاص . وذلك يبعث على الدهشة والاستغراب .

وادهش منه ان عصر حمد البك وعلي بك الاسعد ومحمد بك الاسعد ، من أمراء آل علي الصغير ، هو عصر جبل عامل الذهبي من حيث الهدوء والاستقرار السياسي وسكون الفتن والحروب وانصراف الطائفة للكف عن التسلح والاقبال على الزراعة واستخراج كنوز الارض وتوفر المال والثروة والعيش في رغدٍ ويسر وراحة وأمن .

وفي ذلك العصر نبغ كثيرون من رجال العلوم والفنون وكبار الشعراء والادباء. وكان اولئك الزعماء يغدقون عليهم العطايا ويغمرونهم بالصلات ومع ذلك لم نرَ ولم نسمع عن أحدهم أنه الّف أو صنّف في هذا الموضوع الهام مع توفر الاسباب والمؤلفات التي كانت تضمها قصور آل الصغير ومعاهد العلم في مختلف انحاء الجبل، إلا ما صنفه العلامة الشيخ علي السبيتي للمغفور له علي بك الاسعد حيث شرح قصيدته العينية التي اولها :

خليليّ ما هذا الجفا والتقاطع　　　وماذا التنائي والدموع هوامع

وفيها يفتخر بعشيرته وزعماء اسرته ويتمثّل ببيت الفرزدق :

اولئك آبائي فجئني بمثلهم　　　اذا اجتمعنا يا جرير المجامع

وقد اسمى ذلك الشرح الجوهر المجرّد في شرح قصيدة علي بك الاسعد. وقيل انه تناول في ذلك الكتاب بعض الوقائع وأنساب العشائر . وقد غاب هذا الكتاب بين سمع الارض وبصرها بعد زوال حكومة آل علي الصغير ولم نرَ له ذكراً سوى ما جاء منه في كتاب العقد المنضد في شعر شبيب باشا الاسعد وقد جمع هذا فيه شعره وطرفاً من تاريخ اسرته لا ينقع غلّه .

وأغرب وأعجب منه أن معظم العلماء والباحثين من علماء وكتّاب جبل عامل في عصرنا هذا لا يعرفون من تاريخ بلادهم القديم والحديث اكثر

مما يعرفون عن تاريخ الصين وقد الفوا وصنفوا كتباً قيمة في مواضيع معظمها دينية ولم يتسع وقتهم لتأليف كتيب صغير في تاريخ بلادهم ينير الناشئة ويهدي الباحث الى سواء السبيل .

ولا أعلم سبباً لاعراض ذوي الاختصاص والمشتغلين بالتأليف عن علم التاريخ وانصرافهم لعلوم الدين من فقه وتوحيد وأصول ألأنها من الضروريات وتلك من الكماليات التي قد يستغنى عنها؟ وقد توفرت المؤلفات الدينية والتي ترمي الى غرض ديني بل فاضت ثم فاضت ...

انهم بتركهم هذا الفراغ الذي أثر في نفسية الناشئة ومكانتها الادبية والاجتماعية لدى الاغيار قد جنوا على الطائفة وعلى انفسهم إذ هم المسؤولون في الدرجة الاولى عن التقصير .

وهناك رأي ولا أظنه بعيداً، وان لم تتوفر الأدلة على ثبوته، ان المؤلفات في تاريخ البلاد تفرّقت ايدي سبا ولعبت بها ايدي الضياع وبددتها الحوادث فعفى اثرها وامحى خبرها في عصر كانت البلاد فيه تسبح في بحر من الدماء وتهزها الفتن وترهقها الحروب . لا سيما في عصر الترك المظلم ايام الطاغية احمد باشا الجزار الذي ساب جبل عامل استقلاله ومزّق وحدته في معركة يارون سنة ١١٩٥ هـ - ١٧٨٠ م . فاكتسح البلاد وعاثت جيوشه فيها فساداً ، وصادر المكاتب الحافلة بأنواع الكتب القيمة والمخطوطات الثمينة. كمكتبة آل خاتون التي كانت تحتوي على خمسة آلاف مجلد ، ومكاتب آل الصغير ، وآل الامين ، ونور الدين ، وشرف الدين ، وفضل الله ، وآل الحر ، وآل نعمه ، وآل يحيى، وآل السبيتي والقبيسي، وآل ابرهيم، وآل مروه، وآل الزين وغيرهم من بيوتات العلم والوجاهة القديمة. ونقلها الى عكا على ظهور الجمال ووزعها الظالم العاتي على الافران للحريق فأشغلها اياما .

وحجة اصحاب هذا الرأي ان علماء جبل عامل، وقد مرّ بنا ما امتازوا به في كل علم وفن، كالشيخ السعيد محمد بن مكي الجزيني العاملي المعروف بالشهيد الاول مؤلف كتاب اللمعة الدمشقية خلال اعتقاله في قلعة دمشق ، المقتول

ظلماً لانه شيعي بسعاية تقي الدين الجبلي ويوسف بن عيسى بفتوى القاضي بن جماعة وغيره في سنة ٧٨٦ للهجرة . في عهد سلطنة برقوق ونيابة بيدمر الخوارزمي.

والقطب الرباني زين الدين علي بن احمد المعروف بأبن الحجة الشهيد الثاني الجبعي العاملي صاحب كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية في مجلدين ، وشرح الشرائع في سبع مجلدات ، وقال عنه صاحب امل الآمل : انه ألف ما يزيد عن ستين كتاباً ورسالة .والذي هاجر الى مصر في طلب العلم وقرأ على ستة عشر عالماً وسافر الى القسطنطينية وقابل السلطان سليمان المعروف بالقانوني عن يد الشريف عبد الرحيم العباسي مفتي القسطنطينية وشيخ الاسلام بها ومؤلف كتاب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . وقد اكرم السلطان وفادة الشيخ وقدّر علمه وفضله وأصدر له براءة « فرمان » بأن يتولى التدريس العام المدرسة النورية في بعلبك وكان يدرس فيها كافة المذاهب الإسلامية ، وبراءة لتلميذه الشيخ حسين عبد الصمد بأن يتولى التدريس في احدى مدارس حلب . وقد قتل في رحلة ثانية سنة ٩٦٥ ﻫ في طريقه الى الاستانة على التشيع .

والمحقق الشيخ علي عبد العالي الميسي نسبة الى ميس الجبل المتوفى سنة ٩٣٣ ﻫ . والمحقق الشيخ علي بن عبد العالي الكركي نسبة الى « كرك نوح » ناشر التشيع في ايران ورئيس العلماء في الدولة الصفوية الايرانية المتوفى سنة ٩٣٧ ﻫ .

والعلامة الشيخ حسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي الهمداني المتوفى في البحرين سنة ٩٨٤ ﻫ وكان مدرساً في مدرسة حلب . وولده الفيلسوف الرياضي بهاء الدين العاملي الهمداني الذي هاجر الى ايران والهند والافغان والف الزبدة في الاصول والكشكول والمخلاة ورسالة في الرياضيات اسماها الخلاصة في الحساب ترجمت الى اللغات الاوربية . وكتباً غيرها في الهيئة والفلك ، وتولى مشيخة الاسلام في اصفهان في دولة الشاه عباس الصفوي ، والمتوفى في سنة ١٠٣١ ﻫ .

والسيد ابو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي وكانت مدرسته في شقراء تضم ٤٠٠ طالب المتوفى سنة ١١٩٤ هـ .

والشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي الجبعي المتوفى سنة (١١٠٤ هـ) وهو مؤلف كتاب امل الآمل في علماء جبل عامل ، وله عشرون مؤلفاً . وقد استشهد ببعض ادلته وكتبه الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه اظهار الحق الذائع الشهرة .

والشيخ الأجل الشيخ حسن زين الدين الجبعي العاملي نجل الشهيد الثاني المتوفى سنة ١٠١١ هـ صاحب كتاب المعالم في الاصول المعوّل عليه في تدريس هذا العلم حتى اليوم .

والعالم العلامة الشيخ علي بن يونس النباطي نسبة الى النبطية مؤلف كتاب الصراط المستقيم في الكلام ، ومختصر مجمع البيان في التفسير ، واللمعة في المنطق . وقد ذكره صاحب كتاب امل الآمل في تراجم علماء جبل عامل فقال ما نصه :

« الشيخ زين الدين علي بن يونس العاملي النباطي البياضي كان عالماً فاضلاً محققاً مدققاً ثقة متكلماً شاعراً أديباً متبحراً له كتب منها : كتاب الصراط المستقيم الى مستحق التقويم – كبير حسن ، ورسالة سماها ، الباب المفتوح الى ما قيل في النفس والروح ، ورسالة في المنطق سماها ، اللمعة ، ومختصر المختلف ، ومختصر مجمع البيان ، ومختصر الصحاح ، ورسالة في الكلام ، ورسالة في الأمامة وغير ذلك . » انتهى كلامه .

ولم يذكر المؤلف تاريخ وفاته جرياً على عادته غير اني سمعت من استاذنا السيد محمد بن السيد علي ابرهيم الحسيني المتوفى من عهد قريب انّ العلامة المقدس الشهيد الثاني والعالم المدقق الشيخ داود البصير الانطاكي نزيل جبل عامل ومؤلف كتاب التذكرة في الطب وغيرها من الكتب النفيسة اجتمعا في النبطية في منزل الشيخ علي بن يونس النباطي . والشهيد كانت شهادته سنة

٩٦٦ هـ كما اشرنا فيكون الشيخ علي بن يونس النباطي من علماء القرن العاشر للهجرة .

وكنا نرى في رأس الجبانة للجهة الغربية الجنوبية مدفناً غريب الشكل له نصبتان طويلتان وقد رجح السيد انه قبر الشيخ .

وليس الشيخ علي بن يونس هو العالم الوحيد الذي خرج من النبطية فقد عدّ الشيخ في امل الآمل اثني عشر عالماً وذكرهم باختصار . وسنورد اسماءهم وما قاله فيهم في فرصة ثانية .

وحجتهم ايضاً ان اهل البيوتات العلمية والوجاهة القديمة في جبل عامل ، وقد أتينا على ذكر معظمهم ، وبعضهم من كبار ائمة المذهب الشيعي وأساطين الطائفة . والى مؤلفهم التي تدرّس في كليات الشيعة في الهند وايران والنجف الاشرف يرجع تسعون مليوناً من المسلمين الشيعيين المنتشرين في انحاء المعمور . وبعضهم تولى مشيخة الاسلام ورياسة العلماء وجابوا الأقطار والامصار كما نوهنا وبعضهم وصل الى درجة نواب في الهند وصاهر الملوك كالشيخ علي الزين صاحب شحور . وبعضهم تولى رياسة الوزراء ومنصب الصدارة العظمى ونيابة السلطان في الهند كالشيخ محمد بن علي بن خاتون العاملي أحد أفراد الأسرة المعروفة في جويا . وهو ابن اخت العلامة الشيخ البهائي هاجر الى الهند ودخل في خدمة السلطان محمد قطب شاه سلطان مملكة - حيدر أباد الدكن . وتولى الوزارة فيها ثم السفارة بين السلطان والشاه عباس الصفوي شاه ايران . وارتقى الى منصب الصدارة العظمى في عهد السلطان عبدالله قطب شاه ثم أسند اليه امارة المملكة بأسرها وأجاز له الجلوس على سرير الملك في سنة ١٠٣٨ هـ

وقد ترجمه السيد علي اصغر الموظف في دار الآثار في الهند واستحصل على رسمه من المتحف البريطاني في لندن .

نعم ان حجتهم ان من المستبعد خلو مكاتبهم من المؤلفات التاريخية لبلاد

نشأوا تحت سمائها ودرسوا في معاهدها وكانوا في أسفارهم وترحالهم يحنون اليها حنين النيب . وقد حفلت اشعارهم بوصف سهولهـا وجبالها وشعابها وهضابها وطيب هوائها وعذوبة مائها .

أما عهد اشتغالي في وضع كتاب يضم تاريخ جبل عامل وتدوين حوادثه وأخبار أفذاذ رجاله فيعود الى أمد مديد .

ولقد كنت منذ عهد الشبيبة والاشتغال بطلب العلم على مقاعد الدراسة أشعر برغبة حارة للوقوف على أخبار بني قومي وشؤون بلادي التي بهـا نشأت وتحت سمائها ترعرعت .

بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جسمي ترابها

والانسان بطبعه مفطور على حب وطنه واعلاء شأن أمته والتفاخر بعظماء عشيرته والمباهاة بامجاد قومه .

والعقل يفرض على من أنار الله قلبه بنور العلم ان يدرس تاريخ بلاده في الغابر والحاضر وان ينشر مـا استجلاه من الغوامض لتتخذ من ذلك ناشئة الوطن ومن يأتي بعدهم من اعقابهم مثلاً يستنيرون بمنهاجه وخطة يسيرون عليها. والتاريخ عبرة ودرس وتحليل.

وكنت اسعى في فترات متفرقة لجمع شتى الحوادث والتقاط مختلف الاخبار. وكم بحثت ونقبت في بطون الكتب والمؤلفات ، وسألت اوسع المجلات العربية انتشاراً وأغزرها انجاداً كالمقتطف والهلال وكثيراً من اهل العلم والعرفان مستوضحاً غوامض القضايا وخفيات المواضيع فلم أظفر بعد سعي متواصل واستقراء طويل بسوى نتف من الحوادث والاخبار الضئيلة دونتها في مذكراتي وضممتها مع وريقات مبعثرة في اضبارات خاصة لحين الحاجة .

ولم تفت هذه الصعوبات في عضدي ولم توهن عزيمتي وبقيت أواصل العمل حتى يومنا هذا .

ولم اقف على مؤلف يحمل اسم جبل عامل سوى كتاب - أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل. وقد اقتصر فيه مؤلفه المار ذكره على ترجمة علماء الطائفة وفقهائها مختصراً ما شاء الاختصار، خالياً في معظم تراجمه من تاريخ الولادة والوفاة والأثر العلمي سوى القليل .

وهنالك كتب خطية وهي المعروفة بالسفائن واكثرهـــا سقيم الخط مفككك الاجزاء قرضت الارضة أوراقها وأكل الدهر عليها وشرب. ومجموعات ومخطوطات على نمط السفائن ركيكة العبارة والاسلوب اختلط فيهـا الادب والتاريخ وخلت من كل ترتيب وتنسيق ولا يعرف لها اول من آخر .

ولقد قرأت في بعض المؤلفات الجديدة ان بعض المعاصرين ألف أو عزم على تأليف تاريخ لجبل عامل غير ان هذا العزم لم يتعد حد القول اذ لم نر له أثراً حتى اليوم .

على ان العلامة اللغوي الاستاذ الشيخ احمد رضا كتب مقالات قيمة ونشر ابحاثاً جليلة في المقتطف والعرفان بعنوان المتاولة في جبل عامل . وقد أجاد البحث والاستقراء والتحليل في الناحية التي اختارها من نواحي التاريخ العاملي . وكشف كثيراً من الحقائق الغامضة وسلك خطة لم يسلكها قبله احد من العلماء والباحثين. وكانت نواة صالحة لتاريخ جبل عامل ومشعل هداية لمن أراد ان ينحو هذا النحو . ولكنه مع الاسف لم يتابع ابحاثـه واقتصر على ذلك بالنزر اليسير .

وكذلك فقد كتب الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في المجلد السادس والثامن وما بعده من العرفان مقالات قيمة بعنوان معجم قرى جبل عامل وقلعة الشقيف تناولت بعض نواحي تاريخ جبل عامل .

وقد زاد تاريخ جبل عامل غموضاً وشقاء ان المؤرخين والرحالين من غير أبناء جبل عامل لم يحفلوا به في التواريخ التي ألفوهـــا ولو بصورة موجزة. فأهملوه اهمالاً يكاد يكون مقصوداً او كأنهم كانوا يحسبون هذه البقعة من سقط

المتاع لأنها مأهولة بطائفة تختلف عنهم ديناً ومذهباً وان اتفقت معهم عرقاً ولغة وجنساً .

وانت اذا وقفت على بعض الحوادث التي ساقتهم اليهـــا الضرورة وعند مسيس الحاجة يذكرونها عرضاً وبشيء من التهكم ولا يبخلون عليها بالنعوت والألقاب المنافية لأصول الكتابة كرميهم بالزندقة والرفض والالحاد. كما ورد في رحلة ابن بطوطة وابن جبير وتاريخ الأمير حيدر الشهابي .

ولم يتورع بعضهم من تحريف الأخبار ومسخ الحوادث واثباتها على هواه لتقليل قيمة الانتصارات التي أحرزهـــا الشيعيون في حروبهم مع اصحاب الاقطاعات المجاورة وولاة الاتراك واثبتها الأفرنج في مؤلفاتهم .

ومن كان منهم خالياً من التعصب ، وقليل ما هم ، كان يتنكب البحث عن هذه البلاد عمداً ويمر بها مراً سريعاً حذراً من اتهامه بالرفض او خوفـــاً من الانتقام كما كانت الحال لعهد قريب .

اما نحن مع ما بسطناه من وعورة المسالك وصعوبة المرتقى ، فقد واصلنا العمل وبذلنا ما في وسعنا من جهود لاستكمال البحث وجمع الحوادث وعرضها على محك النقد والتحليل ومطابقتها لما ورد في مؤلفات الاغيار ومخطوطات أبناء البلاد .

ولا أقول انني وصلت لدرجة الكمال وبلغت الغايـــة في البحث لنقص بعض المستندات التاريخية . ولكنها اسس وضعتها، ومتفرقات جمعتها، وفصول نسقتها بقدر الطاقة وقمت بما املاه علي الواجب نحو امتي وبلادي . ولعل من يأتي بعدنا ممن تحمله الغيرة على وطنه والاهتمام ببني قومه يقوم باكمال البحث وتوسيع مجاله. وقد نشرت في العرفان والعروبة منذ سنين ثلاث فصولاً متتابعة من ابحاثنا هذه بعنوان جبل عامل من مائتي عـــام وصفحات من تاريخ جبل عامل الحديث اتينا بهـــا على امهات الحوادث وحالة البلاد الاجتماعية والسياسية .

لماذا سميت هذه البلاد جبل عامل وبلاد بشاره

وقد آن لنا بعد هذه المقدمة التي لم يكن بد منها ولا تخلو من فائدة، ان ندخل في صلب الموضوع ونشرح الدواعي لاطلاق كلمة عامل او عاملة على هذا الجبل .

سميت بلادنا جبل عامل او عاملة في الكتب القديمة او في الدور الاول . واطلق عليها اسم بلاد بشاره في الكتب الحديثة. ودعيت بجبل الخليل وجبل الجليل فيما سبق كما ورد في تاريخ الكامل لابن الاثير وتاريخ ابي الفداء واليعقوبي ومعجم البلدان لياقوت وغيرهم .

وتنقسم الى قسمين جنوبي وشمالي يفصل بينهما نهر الليطاني، والليطاني كلمة سريانية معناها ذو الضجة او اللوطة بتعبير العامة لسرعة انحداره او الملعون لانه قلما ينتفع به .

وفي تحديدها خلاف لا حاجة للاسهاب فيه والمعول عليه في الوقت الحاضر انها تحد من نهر القرن بالقرب من طرشيحا وضواحي عكا جنوبي قرية الزيب من اعمال فلسطين جنوباً ، الى نهر الاولي المعروف قديماً بنهر الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزين بالقرب من صيدا شمالاً، ومن شواطىء البحر المتوسط غرباً، الى واحة الحولة والمنيطل الى نهر الفجر ووادي التيم شرقاً. وقد الحق قسم وافر منها بجبل لبنان كجزين ومشغره وجبل الريحان .وكانت جزين دار علم وتدريس من ديار الشيعة وخرج منها فحول العلماء العامليين منهم العلامة محمد بن مكي الجزيني العاملي المعروف بالشهيد الاول وغيره . وقد مر ذكرهم .

ومساحة البلاد ثلاثة آلاف كيلو متر، وعدد نفوسها ماية وخمسون ألف نسمة يدينون بالاسلام على مذهب الشيعة الامامية. بينهم قسم قليل من المسلمين السنيين في الثغور وقسم من النصارى في الداخل .

وسكانه عرب خلص بنسبهم ولغتهم وعاداتهم منحدرون من عاملة

بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهي قبيلة هاجرت من اليمن الى أطراف الشام قبل الميلاد بثلاثماية سنة على وجه التقريب بعد حادثة سيل العرم وانهيار سد مأرب وضياع مملكة سبأ المعروفة في التاريخ وباسمه اسمي الجبل .

وعلى هذا تكون قبائل عاملة بن سبا احتلت هذه البلاد واستولت عليها من زمن يزيد عن الفي عام .

ويعرب اسمه في الاصل عامر، قالوا وانما سمي يعرب لانه أول من نسق لغة العرب المبتدئة على النحو الذي نتكلمه اليوم باللهجة الفصحى . وسبا بن يشجب اسمه الاول عبد شمس ولقب بسبا لامتداد سلطانه في الشرق واستيلائه على بابل ومصر وما بينهما من الامصار ونقله من الاموال والسبايا الى اليمن . وهو الذي بنى مدينة مأرب في الجنوب الشرقي من صنعاء اليمن وشيد سدها العظيم وآثاره لم تزل باقية الى الآن .

وقد اظهر علم الآثار ان مدينة مأرب عاصمة سبأ كانت احدى عجائب الدنيا في زخرفها وعماراتها. وكانت سقوف بعض قصورها مرصعة بالذهب والاحجار الكريمة والعاج .

وكانت الزراعة على الاصول الفنية التي لم يسبق اليها من قبله ولا وصل اليها اليوم كما حققه بعض الاثريين من علماء الافرنج [1] .

وولد لسبا عشرة اولاد تفرقوا بعد ذلك الحادث العظيم نذكر منهم ستة وهم .

---

(١) ورد في مجلة فرنسية لطيار فرنسي اسمه (مايزو) ان مدينة مأرب او سبا هي عاصمة السبائيين كان لها حوض ماء عظيم جداً بناه الملك اقرن في القرن الثالث عشر قبل المسيح وان هذا الحوض الذي اصلح في زمن الملكة بلقيس انفجر في القرن الرابع بعد المسيح فطغت مياهه على المدينة فهدمتها وبقيت على ماهي عليه من تاريخ تلك الحادثة وقد اكتشف معالم ارنود الفرنسي المدينة في سنة ١٨٤٢ وبحث في كثير من امورها . وكذا بحث عنها جوزف هاليفي الفرنسي، والالماني جلازير وغيرهم من علماء الاثار .

الازد ـ كنده ـ مذحج ـ الاشعرون ـ انمار ـ حمير ـ. ومن انمار خثعم وبجيلة . وتشأم اربعة وهم : عاملة وجذام ولخم وغسان .

وفي كتاب اعيان الشيعة صحيفة ٥٢٣ عن كتاب صبح الاعشى ان اسم عاملة الحارث بن عفير . وقيل ان عاملة اسم امرأة وهي عاملة بنت مالك بن وديعة بن قضاعة تحت الحارث بن عدي من ولد سبا فنسب ولده اليها .

وطول جبل عامل اثنا عشر فرسخاً ، وعرضه بين ستة وثمانية فراسخ . والتشيع فيه قديم من عهد الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري (رضي الله عنه) وقد مرّ فيه الرحالة الفارسي ناصر خسرو في سنة ٤٣٧ هـ اي منذ تسعماية سنة وقال عن صور وطرابلس ان اكثر اهلها من الشيعة .

رواية ظريفة الكاهنة:

وذكر المسعودي في مروج الذهب خبر سد مأرب واطال . واورد قصة ظريفة الكاهنة وتفرق اليمانيين على نحو ما ذكرنا .

واما قصة ظريفة الكاهنة فلا بأس بايرادها لطرافتها قال : انها رأت في كهانتها ان سد مأرب سيخرب فألقت بذلك الى عمرو بن عامر . فباع عمرو هذا امواله وسار بقومه الى مكة فأقاموا حولها فأصابتهم الحمّى وكانوا في بلد لا يدرون ما الحمى فدعوا ظريفة فشكوا اليها ما اصابهم فقالت : قد اصابني الذي تشكون . قالوا : بماذا تأمرين .

قالت: من كان منكم ذا هم بعيد، وحمل شديد ومزاد جديد،فليلحق بقصر عُمان المشيد فكانت ازد عمان .

ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وصبر على نائبات الدهر فعليه بالاراك من بطن مر. فكانت خزاعه .

ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الرحل ، المطعمات في المحل

فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الاوس والخزرج .

ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والتخمير، والملك والتأمير ، ولبس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغدير ، وهما من الشام . فكان الذي سكنوها من غسان .

ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل ، العتاق وكنوز الارزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق. فكان الذي سكنوها آل جذيمة الابرش ومن كان في الحيرة من آل محرق (انتهى).

والنسبة الى القبيلة – عاملي – ومنهم عدي بن الرقاع العاملي من شعراء الدولة الاموية وكان يسكن الاردن على قول .

وورد في بعض المخطوطات انه كان يسكن قرية شقراء مقر السادة الحسينية آل الامين . وانما سميت بذلك لربوة في ضواحيها تدعى الشقارة .

ومنهم عبد المحسن الصوري العاملي المتوفى سنة ٤١٩ هـ. اذاً فبنو عاملة ولخم وجذام هم اخوان في الاصل وابناء عم في هذا العصر ، والى هذه القبائل يرجع نسب معظم العشائر والاسر في لبنان وحوران والبلقاء وجبل عامل .

النسبة الى بشارة :

وأمـــا تسمية جبل عامل ببلاد بشارة ومن هو بشارة فالأقوال فيه متضاربة . فمنهم من قال أنه الامير بشارة بن معن وآل معن، اسرة عربية وبطن من ربيعة حكمت لبنان من سنة ١٥١٦ م الى سنة ١٦٩٧م وعدد حكامها تسعة واشهرهم فخر الدين الثاني الذي دخلت جبال عاملة تحت حكمه بطريق الالتزام من الدولة التركية كما كان يلتزمها غيره من امراء ذلك العصر كآل الحرفوش وغيرهم .

لم يضرب في سبيلها بسيف ولم يطعن برمح كما يدعي بعضهم . وقد نقض هذا الرأي اذ لم يعرف في سلسلة امراء آل معن من اسمه بشاره .

ومنهم من قال انه بشاره بن مقبل القحطاني . وهذا القول انفرد به العلامة المؤرخ الشيخ علي سبيتي وتابعه شبيب باشا الاسعد في العقد المنضد . ولم نر لهذا الاسم ذكراً في ما لدينا من المؤلفات التاريخية ، ولم يذكر العلامة السبيتي المصدر الذي نقل عنه . فنصبح القول به في حكم المهجور حتى تتوفر الأدلة على صحته .

والمعول عليه والاقرب الى الصحة انه الامير حسام الدين بشاره بن اسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي ، هكذا ساق نسبه ابن فتحون في تاريخه . وقال العلامة السيد محسن الأمين الحسيني ، ولم يذكر المصدر، انه من رهط عاملة بن سبا.

وهذا الامير كما يقول ابن فتحون هو من امراء الدولة الصلاحية الكردية حضر مع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . فتح حصن هونين واقطعه الملك خيط بانياس . وورد ذكره في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للملك الافضل بن صلاح الدين في عكا بعد وفاة ابيه ، وظهر من كلامه انه كان من اكابر امراء الدولة . ومما تتناقله الالسن في جبل عامل ونص عليه بعض الباحثين ان قرية زبقين ، من اعمال صور ، كانت مركز امارته حيث الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك .

والمقول ان محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء عشيرة عنزة كان معاصراً للأمير بشارة او لاحد اعقابه وصهراً لهم واليه انتقلت الامارة في جبل عامل بعد انقراض سلالة الامير بشارة .

وابن هزّاع هذا هو الجد الاول لآل علي الصغير يتصل نسبه ببني تغلب القبيلة الوائلية المعروفة . وأول من قدم من بادية نجد الى الديار العاملية في عصر الدولة الصلاحية وحط رحاله ونصب خيامه على الجبل الجنوبي بقرب قرية عديسه وأسس هناك بناية لم تزل آثارها ماثلة كما ذكر بعض أفراد الأسرة وسيأتي ايضاح ذلك في الفصول التالية .

تاريخ جبل عامل السياسي

ينقسم تاريخ جبل عامل الى ثلاثة أدوار: قديم ومتوسط وحديث. فالدور الاول القديم يبتدىء من العصر الذي هجرت فيه القبيلة « عاملة بن سبا » وطنها الاول بلاد اليمن في حادثة سد مأرب ، التي سبقت الإشارة اليها ، وسكنت هذه البلاد ، الى سنة ٩٢٣ للهجرة - ١٥١٧ للميلاد .

والدور الثاني المتوسط : يبتدىء من سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م وهي السنة التي دخلت فيها سوريا تحت حكم الاتراك العثمانيين بعد سقوط دولة المماليك المصرية البرجية[1] الى سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥م وهي السنة التي توفي فيها الزعيم الكبير علي بك الأسعد من آل علي الصغير . وهو آخر من حكم البلاد على الطريقة الاقطاعية . وبوفاته انحل الاتحاد العاملي الثلاثي ، وانتهى الحكم الاقطاعي من جبل عامل، وخسر استقلاله الاداري الذي تمتع به مدة طويلة.

والدور الثالث الحديث : من سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥م الى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨م. وفي هذا الدور حكم الاتراك جبل عامل حكماً مباشراً مدة خمسة وخمسين عاماً حتى السنة التي انتهت فيها الحرب العظمى ، وانفرط عقد الامبراطورية العثمانية ، وضاعت سوريا كلها من يد الاتراك ، كما ضاع غيرها

---

(١) دولة المماليك البرجية جركسية دعوا بالبرجيين لامتلاكهم قلاع مصر وابراجها . ملكوا مصر وسوريا مدة ١٣٨ سنة من ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م الى سنة ٩٢٢ هـ. ١٥١٧م وعدد ملوكهم (٢٢) ملكاً اولهم الظاهر برقوق وآخرهم الاشرف طومان باي قتله سليم الاول سنة ١٥١٧ م.

من تلك الممالك المترامية الاطراف . وانهار عرش بني عثمان ، ودالت دولتهم بعد ان دوخوا الأمصار وثلوا العروش ودحرجوا التيجان . وحكموا نصف العالم مـا يقرب من ستة قرون . وبدأ حكمهم من سنة ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م الى سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢٠م. وعددملوكهم سبعة وثلاثون بين خليفة وسلطان اولهم عثمان الاول وآخرهم عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز الأول نزيل سويسرا .

الـــدور الأولـــ

جبل عامل في التاريخ

الحكومة الوائلية في دورها الاول

آل سودون

آل سودون وآل مشطاح

حكومة آل شكر

مشاهير الرجال من آل علي الصغير

خلاصة الدور الاول

والبحث في هذا الموضوع، لا سيما في أوائله ، ضئيل الفائدة قليل الجدوى لغموضه وضياع آثاره . اذ لم نعثر في كتب التاريخ القديمة وفيما وقفنا عليه من المخطوطات على ما يفي بالحاجة .

وقد ورد اسم جبل عامل في كتب التاريخ الكبرى اكثر من مرة فذكره اليعقوبي ، وابن الاثير في الكامل، وابو الفدا، وياقوت في معجم البلدان، وقال انه يدعى جبل الجليل او جبل الخليل . وغيرهم . ومر به الرحالة ابن جبير، وابن بطوطة ، وناصر خسرو الفارسي . ولم يذكر احد من هؤلاء المؤرخين شيئاً يذكر عن احوال سكانه وحكامه ويغلب على الظن انـــه لم يكن له وضع سياسي خـــاص في تلك العصور . ويعود السبب فيما نرى الى السياسة الغاشمة التي كانت تدور في عهد الدولتين الأموية والعباسية حول الشدة والضغط على اليمانيين والعلويين . وبنو عاملة يمانيون نسباً وقبيلاً وعلويون مذهباً وسياسة .

ويجمل القول في هذا الدور انه لما تداعت اركان الدولة العباسية ودخلت في دور التقهقر وبدأت تتفكك أطرافهـــا ، وخرجت سوريا [1] عن حوزتهم في سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م وتعاقب عليهـــا ملوك وأمراء كان حكمهم فيها قصير الامد . فمن بني طولون الى بني الاخشيد ، الى بني حمدان في القسم الشمالي، الى الدولة الفاطمية العلوية ، الى الدولة النورية، الى الصلاحية ،

---

(١) دخلت سوريا في حكم العباسيين سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ وخرجت منها سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م

الى دول المماليك المصرية البحرية التركية ، والبرجية الجركسية ، الى السنة التي دانت فيهـا سوريا للاتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ – ١٥١٧ م ، بقي بنو عاملة يعيشون في جبالهم تحكمهم أسر منهم على طريقة الاقطاعات شأن أكثر حكومات ذلك العهد .

ولم يذكر المؤرخون عن حكامهم سوى ما اشرنا اليه آنفاً عن الامير حسام الدين بشارة بن أسد الدين العاملي . غير أن الباحث في تاريخ الحروب والمعارك التي دارت رحاها في القرون الوسطى يستنتج أن جبل عامل كان في أوائل القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد يتبع تارة بانياس ، قاعدة وادي التيم ، وتارة نيابة صفد ، واحياناً يكون حكومة قائمة بنفسها أو نيابة أو محافظة .

وللدول المتأخرة اوضاع واصول واسماء خاصة يطلقونها على نواحي الدولة واقسامها . فبعضهم كان يقسمها الى ولايات أو نيابات وبعضهم الى ممالك أو إيالات . وكانت الحروب التي لا تخمد نارها تلجئهم لاتخاذ الحصون والقلاع مراكز لقوادهم وقواعد لتلك الجهة من جهـات المملكة . ولم يكن في قلاع جبل عامل وحصونـها العديدة قلعة أمنع وأشد حصانة من قلعة الشقيف بموقعها الشامخ وبنائها الضخم وأسوارها الرفيعة . وكانت في عهد الصليبيين سنة ٥٦٨ هـ – ١١٧٢ م مركز الحاكم العـام ـ قطورا ـ « الكونت اورا » وكان يحكم على جميع بلدان جبل عامل وما جاورها سهلها وجبلها من ساحل عكا الى ساحل صيدا .

وكانوا يسمون النيابة أو المقاطعة أو المملكة باسم القلعة . كنيابة الشقيف ومملكة الشقيف ومقاطعة الشقيف . وسار الاتراك على هذه الخطة بعد سقوط الحكومات الاقطـاعية في جبل عامل ، فقسموا البلاد الى اقضية ونواحي . ونقل مركز المقاطعة من القلعة الى النبطية فأطلقوا عليها اسم ناحية الشقيف . ولم يلغ هـذا الاسم ويستبدل بناحية النبطية الا بعد زوال دولة الاتراك في سنة ١٣٣٧ هـ – ١٩١٨ م .

وقبل استيلاء الصليبيين على القلعة وما يتبعها من بلاد بني عـاملة باربعين سنة عام ٥٢٨ هـ. ١١٣٣ م كانت في قبضة الضحاك بن جندل البقاعي ، امير وادي التيم ، وقد اتصل به هذا العمل من جده (جندل) الذي كان مقدماً في الدولة الفاطمية ، وولي في أيامها اعمال وادي التيم . غير ان شمس الملوك اسماعيل بن نور الدين محمود زنكي ، صاحب دمشق ، انتزع منه هذا العمل كما انتزع ما بيده من الحصون عنوة . ومنها (قلعة أرنون) وضمها الى مملكته ، كما نص عليه الامير حيدر الشهابي ، في تاريخـه ، في حوادث سنة ٥٢٨ هـ. ١١٣٣ م.

وفي عهـد الظاهر بيبرس البندقداري وهو الملك الرابع من ملوك دولة المماليك البحرية [1] كانت البلدان العاملية وما والاها مملكة قاعدتهـا قلعة الشقيف في قبضة الصليبيين وقد اطلقوا عليهـا اسم المملكة الشقيفية نسبة لقلعة الشقيف ، كما جاء في نسخة عقد الهدنة بين هذا الملك ومملكة بيروت « ماركريتا ارملة يوحنا دومونتفرات » من ملوك الصليبيين .

وفي سنة ٦٦٧ هـ. ١٢٦٨ م بعد ان دحر الظاهر بيبرس الصليبيين واستولى على المملكة الشقيفية جعلها دار نيابة قاعدتهـا القلعة ، ذكره القلقشندي في صبح الاعشى مجلد ١٤ صحيفة ٤٠ .

والبحث في تاريخ القلاع والحصون في جبل عامل وعددها ومواقعهـا وتاريخ بنائها وما دار حولها من حروب ومعارك ومن تعاقب عليها من ملوك وأمراء فسنفرد له فصلاً خاصاً من فصول هذا الكتاب [2] .

---

(١) سقطت الدولة الصلاحية الكردية في سنة ٦٤٨هـ. ١٢٥٠م وقامت على انقاضها دولة المماليك البحرية التركية لانهم كانوا يملكون أرباب مصر البحرية واحتلوا جزيرة الروضة في بحر النيل ودام ملكها ١٢٣ سنة وسقطت دولة المماليك البحرية في سنة ٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م وعدد ملوكها (٢٥) سلطاناً اولهم معز الدين أيبك وآخرهم المنصور وحاجي بن الاشرف .

(٢) ان العلامة الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر كتب ابحاثاً جليلة في قلعة الشقيف وغيرها من قلاع جبل عامل ونشرها في مجلة العرفان فليرجع اليها من اراد زيادة الايضاح .

الحكومة الوائلية في دورها الاول :

وبعد ، فان المفهوم من أقوال المؤرخين ، [ابن فتحون وابن شداد والقلقشندي والامير حيدر الشهابي وغيرهم] ان دخول نظام الحكم الاقطاعي الى جبل عامل كان في القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد .

على اننا لم نقف من اخبار حكامه في ذلك العصر على غير ما ذكرناه آنفاً بايجاز عن الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي . ومن هذا الامير انتقلت امارة البلاد الى آل وائل . وكانت تنازعهم الحكومة اسرتان هما آل سودون وآل شكر .

قال صاحب العقد المنضد في صحيفة (١٦) ما ملخصه : ان الجد الأول لآل علي الصغير هو محمد بن هزاع الوائلي قدم من بادية نجد في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي بجيش من اعراب قبائله الى ديار بني عاملة واميرها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني فاشتبك معه في حربٍ ضروس انتهت بظفر الاول واستيلائه على البلاد .

وعلى هذا تكون حكومة آل وائل التي اطلق عليها في الدور الثاني حكومة آل علي الصغير – بدأت في الدور الاول من تاريخ جبل عامل . اي قبل دخول سوريا تحت الراية التركية العثمانية .

وقد مرّ بنا خبر محمد بن هزاع في المقدمة وفنّدنا وجه الخطأ في نسب الامير بشارة بن مقبل،ورجحنا انه الامير حسام الدين بشارة الذي مرّ ذكره .

ونعود الى البحث في هذه القضية فنقول : ليس ببعيد ان يكون بشارة ابن مقبل من اجداد بشارة بن اسد الدين وسقط اسمه من سلسلة النسب باغفال النساخ ، لما نعلمه من أن المؤرخ الشيخ علي السبيتي هو اول من اورد هذه الرواية في كتابه – الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الاسعد – .

والعلامة السبيتي عالم محقق ، واسع الاطلاع ، لا يلقي الكلام على عواهنه . وقد كان معاصراً للزعيم الكبير « حمد البك » وكان هذا عالماً ثقة باخبار العرب وانساب القبائل ، خبيراً بتاريخ اسرته (آل علي الصغير) وكيف تولت امارة جبل عامل . وصاحب البيت ادرى بالذي فيه .

ومما يلفت النظر ان اسم جبل عامل لم يكن معروفاً في دوائر الدولة ومراسيم الحكومة منذ عصر الامير بشارة . وهذا دليل آخر ينبئنا ان البلاد لم يكن لها وضع سياسي ، كما اشرنا ، قبل أن تصبح من اقطاعاته . وكانت مفككة الاجزاء تتبع قواعد مختلفة . فجمع شتاتها ووحّد حكوماتها ، وجعل لها شأناً فأطلق اسمه عليها حتى كاد ان ينسخ اسمها الاول . وارجح ان الامير بشارة كان يتمتع بخلال سامية ومقام رفيع . فاكتسب بذلك هذه الشهرة الواسعة .

وبقي هذا الاسم (بلاد بشارة) معروفاً في دوائر الدول الرسمية التي تعاقبت عليها حتى عصر حمد البك المحمود الذي ورد ذكره آنفاً .

ففي سنة ١٢٥٦ هـ – ١٨٤٣ م تمكنت الدولة العثمانية ، بمساعدة دولة انكلترا ، من انتزاع سوريا من ايدي محمد علي باشا ، خديوي مصر ، واعادت الى حمد البك حكم البلاد كما كان لآبائه واجداده . ومنحته لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة لما بذله من الجهود في حرب المصريين ، اذ كان يقود فرقة باسلة من فرسان جبل عامل الاشداء تشارك عساكر الدولة في محاربة جيش ابراهيم باشا المصري واجلائه عن البلاد مما سيرد بيانه .

آل سودون :

في بعض المخطوطات التي عثرنا عليهـا بين مبعثرات اوراق مؤرخي جبل عامل : ان اسرة يطلق عليها اسم « سودون » او ابو سودون حكمت جبل عامل او القسم الجنوبي منه في عهد دولة المماليك المصرية . وفي تاريخ دولة المماليك المصرية البرجية : ان (سودون) كان نائب الشام في سنة ٨٨٣هـ –

١٤٧٨ م من قبل تلك الدولة . وكانوا يسمّون الوالي او الحاكم العام نائباً . والولاية نيابة ، كما سبقت الاشارة . فلا يبعد ان يكون ذلك النائب قد ولّى بعض اقاربه حكومة هذه البلاد ، وكانت من اعماله . وقد ورد اسم سودون في تاريخ جودت باشا جزء اول صحيفة ٣٣٨ قال ما ملخصه :

لما ظفر سليم الاول ملك العثمانيين المعروف بياوز سليم ، ومعناها : سليم العابس ، او الشديد الجبّار ، . بالسلطان قانصوه الغوري بعد معركة -- مرج دابق -- قرب حلب في سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م وسقط الغوري قتيلاً وسقطت سوريا بيد الفاتح ، وخضعت له مصر بعد مقتل (طومان باي) واستأصل المماليك الجراكسة . سأل عمّا اذا كان بقي منهم احد يذكر فذكروا له اميراً منهم يدعى - سودون بك - من اهل التقوى اختار العزلة في بيته وعكف على العبادة ، وله ولدان من اهل الشجاعة والبأس احدهما يدعى ذا الفقار والثاني قاسماً . وزار السلطان سليم هذا الأمير في بيته وشهد اعتكافه وصلاحه وورعه . فأكرمه وأحسن اليه ، واعجب ببسالة ولديه فأنعم عليهما باقطاع بعض الاراضي وجعل كلا منهما رئيساً لفرقة من الجند . في خبر طويل ليس من غرضنا ايراده .

وقد اغفل صاحب العقد المنضّد وقد مرت بنا روايته ذكر حكومة آل سودون ولم يذكر اسرة نازعت الوائليين حكومتهم سوى آل شكر وسيأتي الكلام عنهم .

وإذا سلمنا بصحة روايته من ان حكومة آل وائل في جبل عامل بدأت منذ عهد الدولة الصلاحية الكردية يترجح معنا ان حكومة آل سودون سبقت حكم الوائليين ثم سقطت بسقوط الدولة التي تنتمي اليها . غير انها لم تبارح البلاد بل اقامت فيها والتف حولها انصار وأعوان فكانت تحاول الكرة بعد الكرة العودة الى منصة الاحكام كلما لاحت لها بارقة أمل أو بدا ضعف في جانب الحكومة .

آل سودون وآل مشطاح :

وهنا رواية رواها مؤرخ عاملي في مخطوطة له تؤيد ما ذهبنا اليه وتدل ان اسرة سودون بقيت في البلاد بعد زوال حكومة المصريين وحكمت جبل عامل في عهد الترك العثمانيين وكانت تنازع آل علي الصغير الحكم تظاهرها اسرة ثانية تدعى باسرة مشطاح . ونص الرواية :

« ان الشيخ حسيناً بن علي الصغير ، وكان هذا في اواخر القرن العاشر للهجرة والسادس عشر الميلاد ، تولى الحكم بعد ابيه . وكان شديد الوطأة على الشعب ، سفاكاً للدماء ، شأن أكثر امراء ذلك العهد . فنفر منه الناس ، وتفرق انصاره من حوله ، واصبحوا يكيدون له ، ويدسون الدسائس لحلمه .

« وحدث خلاف بين الشيخ حسين الصغيري والامير فخر الدين المعني (ولم يذكر راوي القصة اهو الاول او الثاني) وشدد المعني الخناق على الشيخ حسين لما يعلمه من انفضاض اعوانه عنه ، وكره الشعب له . ففر الشيخ الى البادية لائذاً بقبيلة بني عمه « السوالم » وهم فخذ من عنزة ، كما مرّ ، واقام بينهم بضع سنين . وقد حاول الرجوع الى منصة الاحكام في جبل عامل بعد انتهاء الخلاف بينه وبين الامير المعني . فلم يتم له الامر لتألب اعيان البلاد عليه ، وكرههم لحكومته ، ومناصرتهم للحكومة السودونية .

« ورأى ان الاسرتين اللتين حكمتا البلاد آل سودون وآل مشطاح ، وكان الحاكم العام من الاولى والمدير من الثانية ، في صولة ومنعة وجند وأنصار ، فأدركه اليأس وفارق البلاد ثانية الى جبال نابلس ، وأقام متنكراً في منازل آل طوقان ، مروضاً لخيولهم « مير ياخور » . وكان حزبه القليل في البلاد يسعى جهده لاستمالة الاعيان اليه ، ووضع العثرات في سبيل حكومة آل سودون ومشطاح . ولما حانت الفرصة وبدا جانب الضعف في الحكومة السودونية وقوي حزب الصغيري ، بعث وفداً منه للبحث عن الشيخ حسين

في جبال نابلس والبلقاء . ولما عثروا عليه في نابلس وشاهدوه بين حشم الزعيم الطوقاني واتباعه سلموا عليه سلام الامراء ، ووقفوا بين يديه وقفة الاحترام والتعظيم . ولما علم الزعيم النابلسي بالامر استدعاه وخلا به مستوضحاً حقيقة حاله . فأخبره بأمره . فلامه على كتمان امره . واكرمه اكراماً وافراً ، وانزله منزلاً رحباً . فأقام في ضيافته أياماً ثم جهز له حملة مؤلفة من خمسمائة فارس من ابطال نابلس الشجعان : فسار بهم قاصداً جبل عامل لمواجهة آل سودون . وكان يسير ليلا ويكمن نهاراً . ولما وصل الى بنت جبيل ، وكانت قاعدة حكومتهم ، طوق منازلهم بخيوله وقتل رجالهم وهزم جندهم وشتت انصارهم من آل الشامي وآل مشطاح . وتمّ له استلام حكومة البلاد » .

وروى مؤرخ آخر رواية تقرب مما ورد آنفاً غير انه يقول : « ان الحاكم من آل سودون ومدبره من آل مشطاح فرا من بنت جبيل قبل ان تدهمها الخيل . فتعقب الشيخ حسين الحاكم ابن سودون في طريق « خربة سلم » وادركه عند العين المعروفة بعين بوسودون، فقتله واحتز رأسه . واطلق هذا الاسم على العين منذ تلك الواقعة .

« وتعقبت فرقة ثانية من جنده المدبر ابن مشطاح بطريق « القصير » وقد تحصن بمكان كثير الصخور فقتلوه عند شقيف هنـاك لا يزال يدعى للآن بشقيف مشطاح .

« وتتبع الشيخ حسين الصغيري آثار السودونيين وغيرهم من اخصامه فأفناهم قتلا وتشريداً . ولم يقم لهم بعدها قائمة . ثم اعاد النجدة النابلسية مصحوبة بالهدايا للزعيم الطوقاني » .

تعليق على حكومة آل سودون

يتحصل مما مر بيانه ، ان اسم سودون لم يرد في التاريخ المصري ، تاريخ الدولة المصرية سوى في موضعين . الأول : في سنة ٨٨٣ هـ. ١٤٧٨ م. حيث

كان سودون نائب الشام . والثاني : سودون بـــك صاحب القصة التي مر ذكرها مع السلطان سليم في سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م. ولا يعلم بالتحقيق الى اي اسرة تنتسب اسرة سودون جبل عامل . وليس اتفاق الاسم دليلاً على انهم اسرة واحدة . غير ان تقارب المدة بين سودون حـــاكم الشام وسودون بك المصري يحملنا على الظن انها اسرة واحدة . وان سودون جبل عامل من فروع تلك الاسرة او من فروع احداها . وانه من المماليك المصريين الجراكسة أو الأتراك . وبالتالي من أصل غير عربي .

واذا صحت هذه الروايات التي ذكرها مؤرخو جبل عامل عن حكومة آل سودون يستنتج منهـــا ان هذه الأسرة حكمت هذه الديار في دورين مختلفين :

الأول في عهد المماليك المصريين في أواخر القرن التاسع ، وبدأت من سنة ٨٨٣ هـ - ١٤٧٨ م في عهد سودون نائب الشام .

والثاني في عهد الترك العثمانيين في أوائــــل القرن الحادي عشر كما مرت الأشارة .

واذا فرضنا ان المعركة التي دارت بينهم وبين الشيخ حسين الصغيري المعاصر للأمير فخر الدين المعني المقتول في الاستانة سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩م[١] وانتهت بدمارهم وانقراض نسلهم . فتكون مدتهم في هذه البلاد تقرب من مائة وستين سنة .

قضية الغلام الذي ذبحه آل سودون واطعموا لحمه للكلاب :

لقد بادت حكومة آل سودون وانقرضت سلالتهم من البلاد ولم يبق لهم ما يذكرون به سوى العين المعروفة « بعين بو سودون » بالقرب من نبع

---

(١) قتل الامير فخر الدين المعني الثاني بالاستانة بأمر السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ هـ . ١٦٣٩ م وعمره ٥٢ سنة ومدة حكمه ٣٤ سنة . فيكون مولده سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٧ م .

الحجير ، على بعد ثلاثة أميـــال من مجرى نهر الليطاني الى الشمال . وقضية فظيعة من آثار ظلمهم تدل على اخلاق وحشية وقسوة طبع ، اتصفت بهـــا هذه الاسرة الدخيلة تدور على الالسن ، ويتناقلها الخلف عن السلف .

فقد ذكروا ان جماعة من اعيان آل سودون خرجوا الى الصيد والقنص في يوم من ايام حكمهم وصولتهم ، فلم يوفقوا لاصطياد شيء . واجتمعوا عصر ذلك النهار على نبع الحجير وكانت كلابهم ضارية جائعة لم تطعم منذ الصباح . فشاهدوا امرأة تغسل ثياباً على نبع هناك ومعها طفل لهـــا صغير يلعب بين يديها . فأمر آل سودون اتباعهم فأخذوا الغلام وذبحوه على مرأى من امه وأبيه واطعموا لحمه لكلابهم .

وكان ابوه من اهل الفهم ، فلم يجسر على معارضتهم خوفاً على حياته . ولكنه رسم الواقعة ، وصور تلك الفظاعة ، وكيف عمد آل سودون الى الطفل وقطعوه قطعاً بخناجرهم ، والقوا بهـــا الى الكلاب . ورفع الرسم وعريضة من اهل البلاد لنائب السلطان في دمشق ، فأمر نائب السلطان باهلاكهم وتدمير منازلهم ، واجلائهم عن البلاد . فلم يبق لهم ذكر سوى في بطون التاريخ .

حكومة آل شكر :

السادة آل شكر اسرة « حسنية » يتصل نسبهـــا بالامام الثاني الحسن ابن علي « عليهما السلام » . نشأت في قرية عيناثا في جنوبي جبل عامل ، على بعد ميل من بنت جبيل . وهي احدى الاسر التي حكمت بلاد بشارة الجنوبية ردحاً من الزمن . ونازعت آل نصار الوائليين الحكم في عهد الشيخ حسين بن احمد النصار الوائلي ، وهو والد الشيخ علي الصغير الجد الثاني لهذه الاسرة واليه ينتهي عمود نسبهـــا في العهد الاخير . ويطلق اسمه على سائر فروعها .

وملخص اقوال الرواة والمؤرخين العامليين : ان الشكريين ، وكانوا ذوي

صولة ونفوذ ، يتحفزون الايقاع بآل نصار الوائليين اجداد الصغيريين ، وانتزاع الحكم من ايديهم . حتى اذا سنحت لهم الفرصة ، وكثر انصارهم ، وآنسوا الضعف بالحكومة الوائلية ، شهروا عليهـــا حرباً عواناً اسفرت عن فوز آل شكر . فقتلوا زعيم آل نصار الاكبر الشيخ حسين بن احمد النصار واجهزوا على سائر أفراد اسرته شيوخاً وفتياناً . ولم يسلم منهم إلا امرأة حامل هي زوجة الشيخ حسين نفسه . وكانت من بني عمه بني سالم العشيرة المعروفة بالسوالمة ، احدى فروع قبائل عنزة والزولة والشعلان . احتملوها اهلها الى منازلهم في البادية فأقامت بينهم وولدت غلاماً اسمته علياً الصغير تذكاراً لأخ له اسمه علي مات طفلاً او لأخ لها مات غريباً عن اهله .

ونشأ علي الصغير في البادية تحت ذلك الجو الصافي بين اخواله السوالمة ، وشب فارساً مغواراً شديد البأس ، عظيم الهمة ، وافر المروءة . ولما بلغ العشرين من سنيه ونبه ذكره وذاعت شجاعته بين القبائل . تحدثت اليه امه عن نسبه وعشيرته وحكومة ابيه ، وما جرى لها في جبل عامل . وكان لا يعلم من امره شيئاً فاستطار لبه ، واشتد غضبه ، وهاج به حب الانتقام ، والأخذ بالثأر ممن قتل أباه ، وشتت شمل عشيرته . فأصبح يستطلع الاخبار ويترقب الفرص ، وعمل على الاتصال بانصار ابيه واحزابه في جبل عامل . وعلم سيرة الحكومة الشكرية ، وتذمر الناس من ظلمها وشدة وطأتها . فجهز حملة من فرسان السوالمة ، وانضم اليه جماعة من الناقمين على بني شكر . وداهمهم في عقر دارهم في عيناثا وقانا ، وهم لاهون بالاعراس ، منغمسون بالملذات . فقتل رؤساءهم وافنى انصارهم وشرد من بقي منهم في انحاء البلاد . وتم له الفوز والظفر ، والأخذ بالثأر ، واستعادة حكومة آبائه واجداده .

وبعد وفاته تعقب ولده الشيخ حسين بن علي من بقي منهم فلم تقم لهم بعدها قائمة . وكانت مدة حكمهم عشرين سنة . وقد بقي من سلالتهم الى اليوم جماعة يسكنون قرى الخيـــام والبيطية الصفري وجبشيت وكفررمان والريحان وغيرها .

أقوال المؤرخين في الاسرة الشكرية

ورد اسم آل شكر بين اسماء الأسر العريقة في جبل عامـــل من ذوي الاقطاع . فقد ذكر الشيخ طنوس الشدياق في تاريخ الأعيان ما ملخصه :

« في سنة ١٠٢٦ هـ - ١٦١٧ م ولى خليل باشا الصدر الاعظم حسين اليـــازجي سنجقية صفد بعد حادثة الحافظ احمد باشا مع الأمير فخر الدين المعني الثاني وفراره الى توسكانيا في ايطاليا . [وكان جبل عامل في تلك الأيام يتبع عمالة صفد وبالتزام المعنى] . فكتب اليازجي الى مشايخها يخبرهم بذلك فقبله بنو منكر وبنو شكر وبنو علي الصغير وسار الى صفد بستمائة من الرجـال . فاعترضه الأمير علي بن الأمير فخر الدين وجرت بينهما معركة قتل فيها اليازجي واستعاد الاميرعلي السنجق لاقطاعه . ولكن وزير دمشق لم يوافق على اعادة السنجق للمعنيين الا بتوسط الامير يونس الحرفوش . »

وقال في صحيفة (٢٨٠) من التاريخ نفسه ، في حوادث تلك السنة : « وبعد اياب المعني من توسكانيا شدّد الطلب على مشايخ البلاد بالاموال المتأخرة عليهم مدة خمس سنين ، ففزح آل علي الصغير وبنو شكر الى بعلبك الى عند الامير يونس الحرفوش »

وجاء في رسالة معجم قرى جبل عامل للاستاذ الشيخ سليمان ظـــاهر نشرت في مجلة العرفـــان المجلد الثامن في الصحيفة ٤٣٤ و ٤٣٨ و ٥٢٧ عند الكلام على قرى قانا وعيناثا وتبنين : « ان هـــذه البلدان الثلاثة كانت من قواعد السادة الشكرية في المائة الحادية عشرة للهجرة ومنهم انتقل حكم البلاد الى آل علي الصغير بعد معركة بينهم في سنة ١٠٥٩ هـ - ١٦٤٩م وفيها نكل عـــلي الصغير الوائلي الذي ينتسب اليه آل علي الصغير بمن كان منهم ، وهم مشغولون بأعراسهم ، اخذاً بالثأر . وقتل فيها احمد بن شكر » .

وورد في العقد المنضد تأليف شبيب باشا الاسعد صحيفة (١٦ و١٧) ما نصه ملخصاً :

« في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي جاء من نجد جدنا (جد مؤلف الكتاب) محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزه بجيش من أعراب قبائله الى جبل عامل واميرها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني فساق عليه حرباً عواناً انتهت بالغلبة على بشارة ، فاستولى على البلاد وحكمها وتزوج ابنة الامير . وبعد وفاته انتقلت لأبنائه واحفاده وكانوا اتخذوا قلعة تبنين مقراً لحكومتهم . الى ان افضت حكومة البلاد الى احمد بن مشرف الوائلي (خلاف مشرف الثاني) ثم توفاه الله ولم يكن اذ ذاك من آل بيته رجل يقوم مقامه وترك زوجته حاملاً وكانت من قبيلة بني عمه بني سالم المعروفين بالسوالمة ، فخذ من افخاذ عنزه ، فجاء اخوتها وقومها وحملوها الى منازلهم بأطراف بادية الشام مما يلي نجد . فولدت غلاماً اسمته علياً الصغير تذكاراً لأخ لها يدعى « علي » سافر الى اليمن وانقطعت اخباره فشب الغلام وامتاز بالنجابة على اقرانه . وما صار في الخامسة عشرة من عمره حتى صار له مقام ، بحل المشكلات بين القبائل .

«ولما بلغ على أشده وقف على حقيقة امره وامر أبيه الذي كان حاكم جبل عامل ، وأخبرته امه بتمرد بني شكر واستيلائهم على حكومة البلاد ، وما أجروه من العسف . فجهز حملة من فرسان السوالمة واتصل برجلين من اهل جبل عامل كانا من خواص ابيه ، ودهم آل شكر في تبنين وقانا ، وكانوا منهمكين في عرس لهم ، وانضمت اليه فئة من انصار ابيه ممن كانوا ناقمين على الحكومة الشكرية ، فظفر بهم في البلدين وشتت شملهم واستولى على حكومة البلاد .

« وبعد وفاته انتقلت في بيته الى ان اشرقت شموس الدولة العلية العثمانية واستولت على الديار الشامية فدخل الحاكم من آل علي الصغير في طاعتها وقدم خضوعه للسلطان سليم خان الثاني (كذا) » انتهى كلامه .

وروى مؤرخ عاملي في مخطوطة له روايـــة في قضية آل شكر اكثر ايضاحاً مما تقدم نلخصها فيما يلي قال :

« لما تغلب آل شكر على آل نصار في عهد الشيخ حسين بن احمد ، وكانت حكومته ضعيفة ، ادركها الوهن ، ارتكب الشكريون كثيراً من الفظائع . فكانوا يبقرون بطن الحامل ويقتلون جنينها . ولم يسلم من بني نصار إلا امرأة حامل فرت مع ابيها الى جبال بني حارثة وقيل لبادية الشام بادية السواد، ووضعت هناك حملها طفلاً اسمته علياً ، وشب في تلك الجهات . وقد عاث بنو شكر بالبلاد ، وكثر جورهم ، ودام حكمهم عشرين سنة . وكانوا يرجعون لرئيسين منهم ، الاول : السيد محمد شكر ومقره في قرية قانا . والثاني : السيد حسين ومقره في قرية عيناثا . وكان بعض اعيان البلاد على اتصال بوريث آل نصار علي الصغير فسار اليه فريق منهم واتوا به للديار . وقد تجند كثيرون تحت رايته وشبت نار الحرب بينه وبين الشكريين فدارت الدائرة عليهم . ويعود الفضل باحرازه النصر لرجلين من وجهاء البلاد عضداه وشدا ازره . يدعى الاول : ابن دمشق من اهل قرية طير دبا ، قرية شرقي صور . والثاني : من يأطر بالقرب من تبنين واسمه ابن عزقول . ولم يزل من سلالة الثاني رجل يقيم اليوم في قرية الغندورية .

قال : « والمعركة الاولى حصلت في قانا حيث هاجمها الصغيري بخمسمائة فارس يتقدمهم ابن عزقول فأحاطت بدار الشكري وكان عزقول قد تواطأ مع خادم لهم ان ترفع لهم قنديلاً مضيئاً ترسله الى اربع جهات اشارة الى ان الشكري آوى الى فراشه . ولما رأى المرابطون ضوء قنديل يرسل اشعته ذات اليمين وذات الشمال هجموا على الدار فقتلوا الحامية واضرموا فيها النار . وحاول الشكري الفرار فقبض عليه ابن عزقول وذبحه بيده . وكذا صنعوا مع السيد حسين الشكري وانصاره في عيناثا ، حيث افنوهم عن آخرهم ، وقتل السيد حسين . وبها انقرضت حكومة الشكريين بعد ان اذاقت البلاد الأمرّين » .

ويقول مؤرخ آخر : « ان السيد حسين الشكري تمكن من النجاة وفرّ منهزماً الى حاصبيا ملتجئاً للأمراء من آل شهاب فحموه واقطعوه قرية في الجولان تسمى سكيك . وكتبوا للشيخ الصغير يستشفعون به ويطلبون العفو عنه . فمانعت والدته بذلك حذراً من غدرهم . واتخذ علي الصغير المزرعة التي دعيت فيما بعد مزرعة مشرف نسبةً لاحد احفاده مقراً له .
ولما توفي خلفه ولده الشيخ حسين . وكان قاسياً شديداً على من بقي من آل شكر وانصارهم ، فذاقت البلاد الاهوال في عهده ولم يرأف بالاطفال والصغار فقتلهم شر قتلة حتى ضجّ الناس من فتكه وشدته . فتآمروا على قتله فاحتال عليهم وجلبهم الى المزرعة وذبحهم واحداً بعد آخر حتى اتى على آخرهم . وكان عدد من قتلهم مائة وثمانين رجلاً . »

* * *

وفي التعليق على اقوال هؤلاء المؤرخين وتمحيصها نقول : إنّ في رواية صاحب العقد المنضد نقص واخطاء لا بد من ذكرها والتنبيه عليها . .

اولاً : تسمية امير البلاد قبل الوائليين بشارة بن مقبل القحطاني وقد فندنا هذا الرأي في موضع آخر من هذا الكتاب ورجحنا انــه الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي احد امراء الدولة الصلاحية الايوبية .

ثانياً : قوله ان علي الصغير الذي انتزع الحكومة من آل شكر هو ابن احمد بن حويشان وهو خطأ لان والد علي الصغير هو الشيخ حسين بن احمد بن نصار بن حسين بن علي بن احمد بن حويشان بن جمان كما ورد في سلسلة نسب هذه الاسرة . ولم نر فيها اسماً الا لرجل واحد يدعى مشرف خلافاً لقوله مشرف الثاني .

ثالثاً : اغفاله ذكر المعركة التي أثارها الشكريون على آل نصار وقتل كبيرهم الشيخ حسين وذهاب الحكومة من أيديهم ، كما مر آنفاً . وقد اكتفى

بقوله بتمرد آل شكر وعدم وجود كفو في العـــائلة يتولى حكومة بن حويشان .

وأما قوله في تعيين المدة التي استعاد فيها آل النصار حكومتهم وثأروا من الشكريين ، واطلاق اسم علي الصغير على جميعها فهو محل مناقشة وجدير بالبحث والتمحيص .

قال صاحب العقد المنضد : « ان علي الصغير استوى على اريكة الامارة وبقيت متسلسلة في اعقابه الى ان استولى الاتراك على سوريا وهذا يعني ان معركة آل شكر حصلت في عهد دولة المماليك المصرية البرجية التي سقطت في سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م » .

والاستاذ ظاهر ينقل عن المؤرخ الشيخ علي رضا (من كفرفيلا) - قرية من ناحية جباع على بعد ستة اميال من النبطية : ان المعركة المنوه عنهـــا كانت في سنة ١٠٥٩ هـ ـ ١٦٤٩ م . اي بعد استيلاء الاتراك على سوريا بمائة وخمس وثلاثين سنة . واطلاق اسم علي الصغير على الاسرة كلها لا بد ان يكون مضى عليه وقت ليس بقصير قبـل الفتح التركي . لا سيا وان صاحب العقد المنضد يقول : « ان الحكومة الصغيرية بقيت متسلسلة في اعقابـه الى ان تم فتح سوريا على يد السلطان سليم الاول ولا الثاني » . زاد الفرق بين الروايتين على مايتي سنة وهذا ممـــا يبعث على الشك والريبة في كلام الشيخ علي رضا واحتمال الخطأ في روايته .

وإذا اتخذنا عدد الآباء والمدة بين زعمائهم قياساً نرى دليلا آخراً يؤيد ما ذهبنا اليه . فقد جاء في تاريخ الامير حيدر الشهابي جزء اول صحيفة ٥ طبع بيروت في حوادث سنة ١١١٠ هـ - ١٦٩٨ : ان الشيخ مشرف ثار على ارسلان باشا والي صيدا ونبذ امره والقى القبض على جماعة من غلمانه وقتلهم ، واستظهر الوالي عليه بمساعدة الامير بشير الشهابي الاول .

وورد في العرفان مجلد ثامن صحيفة ٥٢٦ في رسالة معجم قرى جبل عامل

الأستاذ ظاهر التي مر الكلام عليها : انه عبدون باشا والي صيدا قبض في سنة ١٦٨٨ م ١١٠٠ هـ على الشيخ مشرف لظلمه وقتله مشايخ القرى في غار المزرعة « مزرعة مشرف » .

ومشرف هو ابن احمد بن نصار بن حسين بن علي الصغير ولا يعقل ان تكون المدة بين انتصار علي الصغير على آل شكر وحادثة مشرف مع والي صيدا أربعين او خمسين سنة وبينهما اربعة آباء في حين ان المدة بين مقتل الشيخ ناصيف النصار في معركة يارون التي وقعت في سنة ١١٩٥ هـ - ١٧٨٠ م. ووفاة عبد اللطيف بك الأسعد، وهو آخر من توفي من احفاده في سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٦ م ، هي مائة وستون سنة وبينهما اربعة آباء . اذ ان عبد اللطيف بك هو ابن خليل بك بن الشيخ اسعد بن خليل بن ناصيف النصار .

وهناك دليل آخر يثبت خطأ الشيخ علي رضا في روايته . فقد ورد في تاريخ الامير حيدر وتاريخ الشدياق : ان الامير فخر الدين المعني هاجم اولاد علي الصغير في الكوثرية لشكوى وردت عليه منهم في سنة ١٠٢٢هـ - ١٦١٣م اي قبل المدة التي ذكرها الشيخ علي رضا بسبعة وثلاثين سنة . ونقل هذه الحادثة الاستاذ ظاهر في رسالة معجم قرى جبل عامل في العرفان .

وعلى هذا لا يبعد عن الصواب كثيراً ما ذكره صاحب العقد من ان حكومة علي الصغير تألفت قبل استيلاء الاتراك على سوريا . والمفهوم ان امهات الحوادث في العقد نقلت عن الجوهر المجرد تأليف المؤرخ الشيخ علي سبيتي .

هذا ما وقفنا عليه من أخبار هذه الاسرة بعد بحث وتمحيص .

مشاهير الرجال من آل علي الصغير

اشهر رجالهم على الاطلاق فيما نرى :

محمد بن هزاع :

الذي اتى الى البادية ، طلباً للكلأ فيما نظن ، الى بلادٍ لم يعرفها ولم تطأها قدمه، يختلف أهلها عنه عرقاً ونسباً . فتوطن البلاد وامتزج مع اهلها امتزاج الماء بالماء . فصاهر حكامها وامراءَها ثم استولى على الامارة وأحسن التصرف واورثها اعقابه من بعده .

علي الصغير :

ثم علي الصغير الذي استعاد تراث اجداده وفتك باخصامه من آل شكر . وحكم البلاد وادارها ادارة حكيم وهو شاب حدث لا عهد له بالحكم والادارة مما يدل على تغلغل الدم الوائلي في عروقه وعلى نفسٍ طموحةٍ وشجاعةٍ موروثة .

مشرف البطل :

ثم مشرف البطل بن علي الصغير صاحب المعارك المشهورة مع ولاة الترك.

وكم فتك برجالهم وعمالهم غير ان الحظ خانه في بعض المعارك وبمالأة رجال آل معن وآل شهاب الذين كانوا حجر عثرة في سبيل راحة هذه البلاد .

ناصيف النصار :

ثم الامير البطل المجاهد المنقذ ناصيف بن نصار الاحمد اشهر امراء الشرق الاوسط وأعظم أمير عربي قام في القرن الثاني عشر للهجرة. اشتهر بالشجاعة والبطولة والوفاء والشهامة والمروءة . وله حوادث مأثورة ومعارك مشهورة سيأتي بيانها وتفصيلها تباعاً .

فارس النصار :

ثم فارس بن ناصيف النصار وهو الذي اثار حرباً عواناً على والي عكا – احمد باشا الجزار – بعد مقتل ابيه في معركة يارون فجمع فلول العشائر التي فرّت من ظلم العاتي الجزار والف العصابات الثورية تشن الغارة على بلاد الجزار وتفتك بعماله . وقد هاجم قلعة تبنين بعد سقوطها بيد الاتراك وذبح عامل الجزار ذبح النعاج وهزم عسكره وضيق الخناق على ولاة الاتراك فالجأهم الى عقد المعاهدة المشهورة بعد وساطة الامير بشير الشهابي ومداولات كثيرة بينه وبين سليمان باشا الذي خلف الجزار .

واستعاد حكومة البلاد ونال الرتب والالقاب والمساعدات المالية . وانجد الوالي عبد الله باشا الذي خلف سليمان باشا على خصمه درويش باشا والي الشام واشترك جيشه في معركة المزة وكان النصر حليفه .

حمد البك :

ثم حمد البك المحمود وكان من اعظم امراء آل علي الصغير مقاماً واوسعهم شهرة واوفرهم علماً وفضلاً .

درس على العلامة الشيخ حسن القبيسي في مدرسة الكوثرية المعروفة

« بكوثرية السياد » وكان فقيهاً فاضلاً وشاعراً اديباً ومديراً حكيماً .

قضى الشطر الاول من عمره منزوياً في احدى قرى جبل عامل بعد سقوط سوريا بيد الفاتح المصري ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الذي ألغى حكومة الاقطاعات من جبل عامل والحقه بولاية الامير بشير الشهابي الثاني . فتفرّق ابناء العشائر شذر مذر بعد ان بددتهم الحكومة ، واسقطت نفوذهم .

وبقي حمد البك في عزلته ، يقاسي شظف العيش ، ويتحين الفرص ، حتى اذا لاح له وهن الحكومة المصرية ، وعلم بوصول العساكر العثمانية بقيـادة عزت باشا لطرد المصريين ، نهض بخيله ورجاله وانضم للجيش التركي وابلى بلاءً حسناً . مما دعى قواد الترك عزت باشا ومحمد باشا القبرصي وجقمق باشا ان يقدروه قدره ويولوه قيادة الجيش الجنوبي ، ويأخذ على عاتقه محاربة المصريين وطردهم من فلسطين وجنوبي سوريا . وقد نجحت خطته وانتصر على المصريين في عدة معارك ذكرها المؤرخون ونظم فيها الشعراء قصائد خالدة منها قصيدة للشاعر المعروف الشيخ حبيب الكاظمي تتجاوز المائة بيت مطلعها :

بشرت بالمزن ارواح النعاما فاجلي الكأس على ايدي الندما

ومنها :

وطوى البشر الاماني اذ وطى حمد البيك من الظهر السناما
حلب الدهرُ به ضرعَ الندى فارتوى صوباً وما استسقى غماما
قد شكى السيفُ الظما حتى ارتوى وانحنى عود القنا حتى استقاما

ومنها :

واطىء الهام احتكم فيهـا بما تنصف الحكمة في البين اقتساما

ودع الحكمة تعطي قسمها للظبا هاماً وللتيجان هاما
واحييها سنة من سنّوا على سنن الدهر مقاماً لن يراما

ومنها :

لست بالآخذ عن مستحدث ولك السبق قديماً ودواما
انها جاءتك تزجي خيلها ولقد القت بناديك الزماما
وتخطى المجد اعناق الورى فاذا حلّ بناديك اقاما

ومنها :

برميش [1] كيف اوطأت العدى بالضميرات فنكست النظاما
اذ اوى مير اللوا عنه اللوا والتوى كالظبي يحتل الأجاما
هل درى الوادي من استنزله أجدلٌ شام بواديه حماما
فرّ منقضاً على اوكارها فتخاذلن من الركب اصطلاما
ولك السطوة اورت زندها في فلسطين فاكفيت اللهاما
رأت التسليم منها سلّماً منك ينجيها فوافتك اعتصاما

وختامها :

خذ ابا فدغم [2] مني غادة اسفرت عن غرة الصبح اللثاما
لم يزل ذكرك يعلو كلما بشرت بالمزن ارواح النعاما

ومن قصيدة لشاعر مسيحي دمشقي يدعى سليمان الصولي واولها :

اقسمت بنحلات الشعر وبما في الغرة من فجر

---

(١) رميش قرية في جنوبي جبل عامل بالقرب من بنت جبيل امامها سهل فسيح وفيه جرت المعركة التي اشار اليها الشاعر .

(٢) ابو فدغم كنية حمد البك ولم يكن له ولد وانما كان يكنى بابي فدغم على عادة العرب القدماء . وكنية علي بك ابو السعود ، وكنية محمد بك ابو فايز ، وتامر بك ابو درويش .

وبسهم لواحظها وعبـــا   قد اودع فيه من سحر

ومنها :

وهنالك رأس عـاكرهم   حمـــد يتهلل بالبشر
وهناك هنـاك اتى حمد   كهزبر فلك من الاسر
وانقض بجيش جرار   كالاسد على بقر شقر
يتبعه الجيش يصيح بهم   ان الانسان لفي خسر
لله بنو نصار ومـــا   نسلت من وائـــل للفخر

ومنها قصيدة للعلامة اللغوي الشيخ علي سبيتي اولها :

تفاخرني السراة وان قومي   لقوم جلببوا الشمس الظلاما
لنا يوم الحبيس [1] واي يوم   منعنا شوس مصر ان تناما
غدا عمر رئيسهم شريداً   له خلف وليس له أمامـــا
وقبلُ بوم حمص [2] لو تراها   اثرنا نقع حرب قد اغاما
تقاعس كل اشوس مشمخر   وبحر الموت يلتطم التطاما

* * *

ولحمد البك نفسه قصائد عصماء وشعر رائق . واشهر قصائده « السالفية » وهي قصيدة طويلة امتدح بها السلطان عبد المجيد اولها :

تورّد خد الظبي واخضر سالفه   له الخال قد اضحى سميراً يسالفه

وقد التزم هذه القافية على اختلاف معـــاني السالف وهي على طراز الخاليات . وله تشطير البردة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) الحبيس اسم لوادي جرت فيه معركة

(٢) اشارة الى معركة حمص التي اشترك فيها حمد البك مع عسكر الدولة .

وتوفي حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ - ١٨٥٢ م ودفن في مقام النبي يوشع بالقرب من قرية قدس ورثاه كثير من الشعراء . وأرخ وفاته العلامة الشيخ ابراهيم صادق اليحيى فقال :

لعمر العلى مهما ترى من عجائب | تجد امر هذا الرمس اكبر اعجابا
لقد وسع البحر الذي اوسع الورى | نوالاً ومعروفاً وفضلا وآدابا
وحاز الذي ما انفك للمجد حائزاً | وللحمد كسابا وللمال وهابا
وبورك مثوىً طاب بابن محمد | تراه الثريا رفعة وبه طـــابا
اجلّ كرام الأرض قدراً وهمةً | وارفعهم جاها واوسعهم بابا
عميد الأولى من آل نصار اوثقوا | ببيت علاهم في ذرى المجد اطنابا
هم القوم ما انفكوا قديماً وحادثاً | لأرحية العليـاء والمجد اقطابا

وبيت في تاريخ وفاته .

لقد عميت عين المفاخر مذ رأت | من الأفق ارخ بدرهـا حمداً غابا
سنة ١٢٦٩

وقد نقش هذا التاريخ ، على باب قبة الضريح . وهناك تاريخ ثان نقش فوق المحراب وثالث على ناصية الضريح .

علي بك الاسعد .

ثم علي بك الاسعد الذي خلف عمه حمد البك في حكومة جبل عامل واحرز مقاماً رفيعاً ومنزلة سامية في الديار العربية ولد في سنـــة ١٢٣٧ هـ ١٨٢١ م وتوفي في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م وعمره خمس واربعون سنة ويدعى والده اسعد البك بن محمد بن محمود المعروف بأبي حمد بن نصار . ومدة حكومته (١٣) سنة من سنة ١٢٦٩ هـ الى سنة ١٢٨٢ هـ . وكان لقبـــه الرسمي في المراسلات الحكومية رئيس العشائر وشيخ مشايخ بلاد بشاره كما كان اسلافه من قبله . واللقب الاول منح لهم من طرف الباب العالي بعـــد

الاتفاق الذي عقد في عكا بين عشائر جبل عامل وسليمان باشا والي ايالة صيدا في سنة ١٨٠٤ م . واول من ناله فارس الناصيف . واللقب الثاني منح لهم بعد جلاء المصريين عن سوريا سنة ١٢٥٦ هـ – ١٨٤٠ م .

وقد بلـغ من العز والصولة وكثرة الأتباع والحشم مالم يبلغه زعيم قبله من زعماء الشيعة بعد الزعيم الأكبر الشيخ ناصيف النصار . ويعد عصره بحق عصر الشيعة الذهبي في العهد الإخير في جبل عامل . ساد فيه الأمن وزالت اهوال الحروب وانصرف الناس لاستثمار الارض وغرس الأشجار . وارتفع شأن الطائفة فخطبت ودّها الطوائف . وزهى الأدب العاملي فنبغ في بني عاملة شعراء افذاذ لا يشق لهم غبار . وكثر الأدباء والمشتغلون بعـلم متن اللغة . وكانت عطايا تلك الامرة النبيلة تزيد الأدب انتشارا والشعراء رغبة . والنهى تفتح النهى .

وانتعشت اقتصاديات البلاد ونمت الثروة وكان للقطن والتبغ العاملي سوق رائجة في مصر وغيرها من البلدان .

ودرس علي بك في عهد عمه حمد البك علوم العربية على اساتذة من علماء جبل عامل فشب أديباً شاعراً حسن السبك متين العبارة . وقد وقفنا له على قصائد ومقطوعات كثيرة اشهرها القصيدة العينية التي يفاخر فيهـا بقومه وعشيرته وقد عارض فيها قصيدة الفرزدق وضمنها البيت المشهور .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد شرحها العلامة اللغوي الشيخ علي السبيتي في كتاب اسماه [الجوهر المجرّد في شرح قصيدة علي بك الأسعد] وأولها :

خليلي مـا هذا الجفا والتقاطع وماذا التنائي والدموع هوامع

ومنها :

سموت بآباء كرام شعارهم ... بناء المعالي حيث كيوان ساطع
لهم شرف يسمو على هامة السهى ... ومجدهم فوق المجرة طالع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم ... تهابه البيض الرقاق القواطع
هم مهدوا من عامل كل صعبة ... وهم شيدوها والرماح شوارع

ومنها :

وهم في الوغى آساد كل كريهة ... وفي السلم بالجدوى غيوث هوامع
تروّي القنا في يوم معترك القنا ... وبتارنا في هامة الضد راكع
وان طلب المعروف والفضل طالب ... اشارت الينا بالأكف الأصابع
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنا ... فليس لنا عند الفخار منازع
(أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... اذا جمعتنا يا جرير المجامع)

محمد بك الاسعد

ثم محمد بك الاسعد البطل الاشهر صاحب المواقف المشهورة وكان الساعد الايمن لعلي بك وصاحب الحول والطول في جبل عامل .

وفي الحرب الاهلية التي نشبت بين الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ م التجأ كثيرون من منكوبي المسيحيين اللبنانيين الى جبل عامل فحلوا فيه ضيوفاً على الرحب والسعة ، فحماهم الشيعيون وآووهم ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً لم يزل يذكره فضلاؤهم الى اليوم .

وحاول محمد بك الاسعد ان ينتصر للمسيحيين ويكبح جماح الدروز لما هاجموا جباع « آخر بلاد الشيعة الشمالية » ونهبوا الاموال والامانات التي كان أودعها المسيحيون النازحون في دار العلامة الاكبر شيخ الطائفة الشيخ عبدالله نعمه . فاهتز الجبل بأسره ، واسرع محمد بك الاسعد على رأس الف فارس الى جباع لمهاجمة الدروز . غير ان سياسة الدولة يومئذ قضت بايقاف الهجوم

وحال دونه خورشيد باشا والي ايالة صيدا ، فسوى القضية واعاد المنهوب .

وقد توفي في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م

تامر بك الحسين

ثم تامر بن حسين بن سلمان بن عباس (مجدد بناء مدينة صور) بن محمد بن نصار الاحمد . وهو صاحب مقاطعتي جبل هونين ومرج عيون وكانت بنت جبيل مقر حكومته كما كان ابوه من قبله وفيهـــا قضى نحبه ، وقبره معروف . وهو من اشهر زعماء جبل عامل واكثرهم جرأة . عرف بالصراحة في أقواله والشجاعة وثبات العزيمة . وكان يتقلد سيفاً عريضاً يعرف (بالبالا) لا يفارقه في سفر او حضر حتى لقب بابي بالا . وهو الزعيم الوحيد الذي نافس علي بك الاسعد في زمن صولته وزاحمه مزاحمة شديدة على رآسة العشائر وشهر عليه حرباً عواناً ، فلم يكتب له الفوز . وكانت شجاعته تفوق تدبيره . وجرى ذلك سنة ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢م ففارق البلاد قاصداً مصر بطريق البر ترافقه حاشية كبيرة فنزل ضيفاً على الحكومة المصرية فأكرم سعيد باشا الأول خديوي مصر وفادته واحله محلاً رفيعاً ، وأمر باعداد دار رحبة ينزل فيها مع حاشيته . وأقام مدة في مصر مشمولاً برعاية الخديوي ثم عاد منها الى سوريا وسار تواً الى الاستانة .

« والمنقول ان الغاية التي كان يرمي اليها في رحلته الى الديار المصرية هي طلب وساطة الخديوي لدى الباب العالي بمنحه حكومة جبل عامل ورآسة العشائر كلها. وكان يرى نفسه احق بالزعامة من علي بك الأسعد لأنه اكبر زعماء العشائر سناً ولأنها كانت لأبيه الشيخ حسين السلمان في عهد الحملة المصرية على سوريا سنة ١٨٣٢ . والشيخ حسين هذا هو الزعيم الوحيد من زعمـــاء الشيعة الذي سالم المصريين وانضم اليهم وكان من انصارهم وخدم الحملة المصرية بالاتفاق مع الامير بشير الشهابي الثاني وكانا صديقين حميمين . »

وحلّ في الاستانة ضيفاً على محمود نديم باشا [1] الصدر الاعظم وقدم له هدايا ثمينة منها مسبحة من الجوهر قدّرت بالف وخمسماية ليرة ذهبية .

وعاد من الاستانة وقد انعمت عليه الدولة براتب قدره خمس عشرة ليرة ذهبية يقبضهـــا من خزينة الايالة في كل شهر . ونال من الرتب لقب (سر دركاه عالي) اي رئيس حجاب الحضرة العلية، وأعطي امراً بابقائـــه مقاطعجي (صاحب مقاطعة) وقيل بحكومة جبل عامل كلها بدلاً من علي بك الأسعد. فاتسعت شقة الخلاف بينهما واشتد النزاع وثارت المعـــارك في سهول تبنين وسالت فيها الدماء . وأدرك علي بك خطورة الموقف وخشي مفاجأة الحوادث وكان يعلم ان حكومة بيروت (وكانت مركز ايالة صيدا يومئذ) تشد عضد تامر بك سراً ، فأرسل قبل نشوب الحرب جانباً من تحفه وأمواله ورياش قصوره فأودعها في أمانة الحاج درويش جابر صاحب ميفذون – قرية جنوبي النبطيه – (وهو اخو الجد الحاج محمد جابر وعم الحاج طالب جـابر والد مؤلف هذا الكتاب) .

وسعى بعض الاعيان باصلاح ذات البين بين الزعيمين فلم يفلحوا فراجعوا مشير الايالة وعندهـا اوفد المذكور احمد باشا الصلح فأوقف الحرب واصلح بين الزعيمين واعيد تامر بك لمقاطعته وبقيت الرآسة العامة لعلي بك. [2] غير ان هذا الاتفاق لم يدم طويلاً وفي سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م تجدد الخلاف بينهما . وفيها اصدر علي بك امره بعزل تامر بك من حكومة هونين ومرج العيون بصفته حاكم المقاطعة العام ورئيس العشائر وشيخ مشايخ بلاد بشاره . وعين

---

(١) تولى محمود باشا ايالة صيدا في سنة ١٢٧٢ – ١٨٥٥ والظاهر ان صداقة تامر بك معه من ذلك العهد .

(٢) وفيها يقول نسيبنا الشيخ ابو حسن محمد جابر اليانوحي من قصيدة

فسل تبنين يوم اثير فيها ... عجاج النقع وارتفع الغبار
اتاها احمد بالصلح يسعى ... ورايات الصلاح له شعار
على الامرا اشار بكل حزم ... بحسم الحرب فاتحدوا وساروا

محمد بك الاسعد المعروف بأبي فاعور مكانه . غير ان والي صيدا (خورشيد باشا) لم يوافق على هذا التبديل لأنه يخالف الخطة السياسة التي درج عليها من اضعاف سلطة علي بـــك . فجاء الوالي الى صيدا وحلّ ضيفاً في دار آل الجوهري في البستان المعروف (بالرابوطية) شرقي المدينة وحضر ايضاً علي بك الأسعد . وهناك أعلن الوالي عدم مصادقته على هذا التعيين . فأجاب علي بك : ان اعادة تامر بك تمس بمعنوية حكومته . غير ان الوالي اصرّ على ذلـــك فاحتج علي بك على هذا الوضع وقدم استقالته فوراً . ولما خرج من عند الوالي وشى به اخصامه وقيل للوالي انهـــما ، اي علي بك ومحمد بك ، سيهاجماه بخيلهما . فأمر قائدالجند الذي بمعيته ان يتلطف بدعوتهما الى الثكنة العسكرية ويعتقلهما . ثم نقلا ليلاً الى سفينة حربية عثمانية كانت راسية في مينـــاء صيدا فنقلتهما الى بيروت . وقيل انه ارسلهما ليلا الى بيروت بطريق البر تخفرهما قوة كبيرة .

ولبثا في بيروت اشهراً لا يسمح لهما بالرجوع الى بلادهما وفي خلال ذلك الغى الباب العالي ايالة صيدا وضمهـــا الى ايالة الشام تحت اسم ولاية سوريا وجعلت بيروت سنجق (متصرفية) تابعة للشام وعين والياً لسوريا ثمرواني زاده محمد رشدي باشا وكان من رجـــال معية فؤاد باشا في حوادث ١٨٦٠ وصديقاً لعلي بك الاسعد من ذلك العهد .

وبسط علي بك للوالي الجديد قضيته وتحامل الوالي السابق خورشيد باشا عليه لعداء قديم بينهما . فأحسن رشدي باشا استقباله وطيب خاطره ووعده بانجاز طلبه وإعادته الى مقاطعته .

والظاهر ان هذا الوالي كان اكثر دهاء من خورشيد باشا ومخالفاً له في اسلوب ادارته وأنه رأى الوقت غـــير ملائم لتنفيذ برنامج فؤاد باشا . اذ اتخذ طريقاً آخر .

فدعي علي بك ومحمد بك الى دمشق لاعطائهما الأوامر المقتضية فوافياها وقد داهمهما الحواء الأصفر فلم يلبث الأول أن قضى نحبه في ربيع اول

١٢٨٢هـ – ١٨٦٥م ودفن في مقام السيدة زينب بنت الامام المرتضى علي ابن ابي طالب عليهما السلام في ضاحية دمشق . وتوفي الثاني بعده باربعه ايام ودفن في جوار مقام السيدة رقية بنت علي عليهما السلام . وقيل بل ماتا مسمومين .

خليل بك الاسعد :

ثم خليل بك وهو ابن الشيخ اسعد الخليل بن خليل الناصيف بن ناصيف النصار الزعيم العاملي الأشهر . وقد انتهت اليه رآسة العشائر بعد وفاة علي بك ومحمد بك . دخل وظائف الدولة فأحرز مقام المتصرفية وعين متصرفاً للواء البلقاء (نابلس) .

وقد اشتهر خليل بك بكرم الأخلاق ، وطيب المزايا ، وسعة الصدر ، ولين الجانب ، والعناية بشؤون الطائفة ، وجمع كلمة العشائر . ورغب غير مرة بايجاد نهضة في البلاد على اساس علمي بانشاء مدرسة كلية داخلية لتهذيب ناشئة جبل عامل على الاصول الحديثة واختار مكاناً لها الربوة الواقعة جنوبي النبطية المعروفة (بالرويس) . وكان الزعيم المفكر رضا بك الصلح اول من اقترح عليه القيام بهذا المشروع العظيم فوافى النبطية في سنة ١٣١١ – هـ ١٨٩٣ م(وعقد فيها اجتماعاً حافلاً بوجهاء البلاد اسفر عن لا شيء لمعاكسة بعض العلماء الرجعيين الجامدين الذين كانوا يرون التدريس في هذه المدارس على الاساليب العصرية خطراً على العقائد الدينية) وتوفي خليل بك فيالطيبة سنة ١٣١٥ هـ – ١٩٠٠ م وخلفه في زعامة جبل عامل نجله الاكبر كامل بك الاسعد .

كامل بك الاسعد

ولد كاملبكفي الطيبة سنة ١٢٨٧هـ – ١٨٧٠م وتوفى فيها سنة ١٣٤٣هـ – ١٩٢٤م وعمره ٥٦ عاماً ودفن في مدفن خاص بجانب القصر الذي شيده على

الرابية الجنوبية من الطيبة . وامه السيدة سعدى كريمة الحاج محمد الفارس من اسرة علي الصغير . تخرج من المكتب الملكي الاعدادي في بيروت الذي كان يدعى المدرسة السلطانية وكان برآسة المغفور له الاستاذ الامام محمد عبده المصري . وكان يعد اذكى تلميذ في ذلك المعهد انتهت اليه زعامة جبل عامل بعد ابيه فقام بهـا خير قيام واحرز شهرة طائلة ومقاماً رفيعاً في الاقطار العربية .

عين مديراً للنبطية سنة ١٣٠٩ هـ ثم استقال منها. وانتخب عضواً للمجلس العمومي في بيروت ، ثم عضواً لمجلس المبعوثان التركي وسافر الى مصر وأوربا انتجاعاً للصحة . واتسعت معلوماته واحرز من الرتب في عصر السلطان عبد الحميد الرتبة الاولى من الصنف الثاني التي تعادل رتبة امير اللواء العسكرية ولقبها « سعادتلو » صاحب السعادة ولكنه لم يحفل بها .

وفي الاستانة خلال اجتماع مجلس المبعوثان لمع اسم كامل بـك لكرمه وجرأته . وانتظم في سلك حزب الائتلاف فـكان من اركانه . وعاكس الاتحاديين معاكسة شديدة ثم عاد الى حظيرتهم لاسباب قسرية .

وفي خلال الحرب الكبرى واثناء وجود السفاح جمال باشا في سوريا قرّب اليه كامل بك واكرمه وزاره في الطيبة لما كان ينويه من الاستقلال في حكم سوريا ، وذكره في مذكراته صحيفه (٣٥٥) طبع مصر في حادثة الحركة العربية في جبـل عامل . « ان كامل بك الاسعد كتب يومئذ للشيخ اسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع عن حركة صيدا وانها بتدبير رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل » .

ونرى نحن ان كامل بك الاسعد ، وقد لقي ربه ، لم يقصد بما نقله لجمال باشا مناوأة الفكرة العربية والتزلف للترك وهو العربي الصميم الشديد التمسك بقوميته العربية . وقد خدم القضية بماله وجاهه خدمات جليلة معروفة حتى اضطهده المحتلون بعد الحرب وحاولوا القبض عليه والانتقام منه فلم يظفروا

به فنهبت داره بالطيبة وهدم قسم منهـــا . وانما كان ذلك منه ، عفى الله عنه ، عن ثورة عواطف مقرونة بعدم التبصر بالعواقب وبتحريض فئة من الملتفين حوله رغبة منهم بالانتقام من الزعيم المعروف رضا بك الصلح ، ومن الشهيد عبد الكريم الخليل .

وقبل ان تضع الحرب الكبرى اوزارها بزمن قليل ، بعـــد ان استولى الحلفاء على القدس وجنوبي سوريا وانهزام الاتراك من فلسطين، اوفد المغفور له سمو الامير فيصل بن الحسين (جلالة فيصل الاول ملك العراق) وكان مرابطاً بجيشه على نهر الازرق جنوبي حوران مندوباً من رجال معيته يدعى ايليـــا الخوري وهو شاب مثقف فطين من بلدة تدعى الكفير بالقرب من حاصبيا يحمل رسالة الى كامل بك يدعوه بها الى مهاجمة الترك وطردهم من السواحل ورفع العلم العربي عليها .

وكان لهذه الرسالة وقع عظيم في نفس كامل بك واعتبرها تفويضاً من سمو الأمير فيصل ، وقد اصبح سيد البلاد بادارة الحكومة العربية في جبل عامل .

وحضر يومئذ للنبطية بموكب حافل يتقدمه العلم العربي وحلّ في دار آل الفضل. وركز العلم المذكور في اعلى الدار واقيمت له الحفلات ، وعقدت الاجتماعات . غير ان خطته لم تنجح اذ انه (اي كامل بك الاسعد) كان محاطاً ببطانة سوء ، وحاشية ضعيفة التفكير ، قليلة الحنكة والاختبـار ، افسدت عمله ، وفرقت كلمة البلاد . واحتل الفرنسيون البلاد وجرى له معهم وقائع ومنازعات .

وعقد في سبيل القضية وبحث الموقف عدة اجتماعات في الطيبة والنبطية وعين الملاح (سهل كفركلا) وغيرها . وآخرها المؤتمر الخطير الذي عقد على رأس نبع الحجير في ٥ شعبان ١٣٣٨ وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ .

وكان مؤلف هذا الكتاب والسادة الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر

والحاج اسماعيل الخليل والشيخ عز الدين علي عز الدين لجنة رسمية عهد اليها بوضع مواد المؤتمر بما ينطبق على رغائب الشعب .

وأقر المؤتمرون بالاجماع على طلب الالتحاق بالوحدة السورية ورفض الانتداب . ووقع المحضر ما يزيد عن مائة ذات مثلوا الطائفة الشيعية بسائر طبقاتها . وحمل القرار الى دمشق العلامتان السيد عبد الحسين شرف الدين (صور) والسيد عبد الحسين نور الدين (النبطية) .

وعقيب انفضاض المؤتمر ببرهة وجيزة شب الخلاف بين الشيعيين والمسيحيين في الجنوب بتحريض فئة من الدساسين الذين لا يروق لهم الوئام بين الطوائف . وهناك دواع سياسية اخرى اذكت الخلاف . وقتل عدد من اهالي عين ابل المسيحيين الموارنة واحرقت دورهم . واتهم كامل بك باثارة هذه الفتنة تهمة باطلة لا اصل لها . وارسلت الحكومة المنتدبة فرقة من الجند الفرنسي لتأديب المعتدين بقيادة الكولونيل نيجر ، وحاول هذا القائد اعتقال كامل بك فلم يتم له ذلك حيث فارق هذه البلاد الى دمشق فأقام فيهـــا الى ان حدثت واقعة ميسلون وسقطت الحكومة العربية السورية وسافر الملك فيصل الى اوروبا . فغادر دمشق الى فلسطين الى ان سويت المسألة بمساعي رجال الاكليروس المسيحي مع المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو . فعاد الى الطيبة بطريق النبطية واستقبل استقبالاً لم يسبق له نظير .

ولما قدمت صيدا اللجنة الاميركية سنة ١٩١٨م والتي انتدبهـــا الرئيس ولسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة لاستفتاء السوريين في بيان رغباتهم ومصيرهم وهي المعروفة (بلجنة كراين) كانت وفود جبل عامل مؤلفة من نحو مائة ذات من العلماء والزعماء والوجهاء وعلى رأسهـــا كامل بك ورفعت بيانها الى اللجنة بطلب الانضمام الى الوحدة السورية ورفض الانتداب.وكانت له مساع مشكورة بجمع الكلمة وضم شتيت الآراء .

شبيب باشا الاسعد .

هو اكبر انجال علي بك الاسعد توفي والده وعمره (١٣) سنة . ولد سنة ١٢٦٩هـ - ١٨٥٢م وتوفي في صيدا سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م ودفن فيها .

وكان ذكياً مهاب الطلعة، اديباً شاعراً ، يميل بطبعه لتكريم العلماء وأهل الأدب ، والسير على خطة اسلافه بزعامة البلاد . واختلف مع اخويه نجيب بك وناصيف باشا ثم مع خليل بك الاسعد . وكان هذا اكبر منه سناً واعظم نفوذاً لدى السلطات الحكومية واعيان البلاد في حين ان شبيب باشا كان قاسياً عنيفاً بعيداً عن اللين مما جعل الناس ينفضّون من حوله . فأصابه الفشل وسافر الى الاستانة حنقاً مما حصل له . فأقام فيها (٢٢) سنة ولم يحصل إلّا على رتبة (مير ميران) التي يخاطب بها بلقب (باشا) وكان فخوراً بها .

وعاد الى وطنه بعد نشر الدستور التركي الثاني سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م ، ورشح نفسه لعضوية مجلس الأمة (المبعوثان) عن لواء بيروت (جبل عامل) فزاحمه كامل بك الاسعد مزاحمة شديدة وفاز عليه . وسكن في صيدا لا يبارحها الى ان وافته المنية .

نجيب بك الأسعد :

ولد نجيب بك سنة ١٢٦٦ هـ ١٨٤٩ م وتوفي سنة ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٤ م ، وكان من أكرم ابناء العشائر اخلاقاً ، واطيبهم سيرة والطفهم معشراً ، اديباً عارفاً باخبار العرب ، ينظم الشعر . وله مقطوعات وشعر رائق . تولى عدة وظائف في لواء نابلس ، وآخرها قائمقامية صهيون (لواء اللاذقية) وتوفي في سن الفتوة .

ناصيف باشا الاسعد :

ولد سنة ١٢٧٥ هـ و ١٨٥٨ م وهو النجل الثالث لعلي بك الاسعد يشابه اخاه نجيب بك اخلاقاً وسيرة . درس في المدرسة البطريركية في بيروت .

وكان شديد الغيرة على ابناء طائفته. وهو أول من نهض بخيله ورجاله في حادثة الخيام سنة ١٣١٤ هـ و ١٨٩٦ م ولبّى داعي النخوة والحمية فسار غير هياب ولم يبال بسخط السلطة الحكومية فاكتسب باقدامه ثناء الشعب .

ولم يطرق باب الوظائف غير انه انتخب لعضوية مجلس ادارة صيدا غير مرة . وكان مثـــال النزاهة والاخلاص وتوفي في الزرارية سنة ١٣٣٧ هـ ١٩١٨ م .

خلاصة الدور الاول :

يتلخص معنا مما سبق ايراده ان حكومات جبل عامل الوطنية في الدور الاول تنحصر منذ عرف العهد الاقطاعي في هذه البلاد بأسر اربع :

١ - الاسرة البشارية نسبة الى الأمير بشارة .

٢ - الاسرة السودونية نسبة الى آل سودون .

٣ - الاسرة الشكرية نسبة الى آل شكر .

٤ - الاسرة الوائلية الصغيرية نسبة الى الامير محمد بن هزاع ثم لأحد احفاده علي الصغير بن حسين بن احمد بن مشرف الوائلي القحطاني

وقد انقرضت الاسرتان البشارية والسودونية ولم يبق منهما احد معروف. وأما الأسرة الوائلية التي اطلق عليها في الدور الثاني اسم آل الصغير فقد نمت ورسخت قدمها في البلاد وكثرت فروعها وأنصارها ، ولعبت دوراً مهماً في سياسة جبل عامل . وسيأتي البحث في الدور الثاني عنهـــا وعن الاسرتين اللتين حكمتا الجهة الشمالية من جبل عامل وهما آل صعب وآل منكر . وتعرف الأسر الثلاثة بحكومة الاتحاد العاملي الثلاثي .

الـــدور الـثـاني

الفصل الاول : الادارة التركية واثرها في جبل عامل

الفصل الثاني : الثورات الأهلية - حروب الشيعة في سبيل الاستقلال .

الفصل الثالث : الحكم الاقطاعي والحكومة الاولى، وميزاته- حكومة آل معن - مخالفة ظاهر العمر وناصيف النصار

الفصل الرابع : معركة البحرة - معركة النبطية - كفرمان - معركة الحارة - سهل الفازية .

الفصل الخامس : الحرب بـــين العامليين والجزار - مقتل ناصيف وسقوط الحكومة الاقطاعيـة الاولى - الثورة على الجزار - تأليف الحكومة الاقطاعية الثانية .

الفصل السادس : الادارة المصرية في جبل عامل - الثورة ضدهم - انضمام العامليين الى العثمانيين - ثورة حمـد البك وتأليف الحكومة الاقطاعية الثالثة .

الفصل السابع : الخلاف بين زعمـــاء جبل عامل - سقوط الحكومة الاقطاعية الثالثة - زوال الحـكم الاقطاعي .

وهو من أهم الادوار في تاريخ جبل عامل . وفيه برز الشيعيون بروزاً ظاهراً فارتفع شأنهم، وامتدت صولتهم، ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ سوريا جمعاء .

ويبتدأ هذا الدور من سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م وهي السنة التي دخلت فيها سوريا تحت حكم الدولة التركية العثمانية . وينتهي في سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م وفيها سقطت الحكومة الاقطاعية الثالثة وخسر جبل عامل استقلاله الذاتي . وحكم الاتراك البلاد العاملية حكماً مباشراً حتى نهاية الحرب العظمى سنة ١٣٣٧هـ - ١٩١٨م .

وكان جبل عامل في هذا الدور مقاطعة مستقلة استقلالاً ذاتياً تحكمه اسر قديمة من اهله على طريقة الاقطاع كما كان في الدور السابق في عهد الدولة المصرية .

وقد قسمنا البحث في هذا الدور الى ثمانية فصول . الاول في الادارة التركية واثرها في جبل عامل . والثاني في الثورات الاهلية التي اضرم نارها الشيعيون احتفاظاً باستقلالهم النوعي . والثالث في الحكم الاقطاعي واثره في جبل عامل ومناضلة الشيعيين في تثبيت دعائم حكومتهم الاقطاعية الاولى . والرابع في المعارك التاريخية الثلاث التي فاز فيها الشيعيون وحليفهم ظاهر العمر وهي معركة البحرة - النبطية ، كفر رمان - الحارة ، سهل الغازية .

والخامس في الحروب بين زعماء جبل عامل وأحمد باشا الجزار ومقتل

الشيخ ناصيف النصار وسقوط الحكومة الاقطاعية الاولى . والسادس في حرب العصابات والمعاهدة مع سليمان باشا والي عكا وصيدا وتأليف الحكومة الاقطاعية الثانية . والسابع في ادارة جبل عامل في عهد المصريين واستيلاء الخديوي محمد علي باشا على سوريا ، وسياسة الفاتح ابراهيم باشا ، وسقوط الحكومة الاقطاعية الثانية ثم نشوب الثورة في جبل عامل وانضمام قوى الشيعة للدولة العثمانية ، وتأليف الحكومة الاقطاعية الثالثة .

والفصل الثامن في الخلاف بين زعماء جبل عامل ، وسقوط الحكومة الاقطاعية الثالثة وزوال الحكم الاقطاعي ، وطي صحيفة الاستقلال الذاتي .

الفصل الأول

في الادارة التركية وما ألمّ بالبلاد من خلل في النظام وفساد في الاحكام وما انتهت اليه من ضعف وانحطاط

دانت سوريا للاتراك سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧م وكانت تابعة لمصر في عهد دولة المماليك البرجية. فهاجمها سليم الأول سلطان الاتراك العثمانيين المعروف - بياوزسليم - ومعناها سليم العابس او الشديد الجبار . واستعرت نار الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغوري في الرابع عشر من شهر آب من تلك السنة في مرج دابق قرب حلب وكان الفوز فيها للاتراك بخيانة قائدين من قواد الغوري وهما : خيربك وجان بردي غزالي[1] . واستشهد الغوري في تلك المعركة . وفي رواية ابن اياس انه مات بالفالج متأثراً من خيانة

---

(١) تضاربت اقوال المؤرخين في الاسباب والدواعي التي فاز بها السلطان سليم على جيوش الغوري واجمع معظمهم ان جيش مصر كان اقوى من جيش الترك وأوفر شجاعة وفيهم ابطال من المماليك لا يهابون الموت وقد تمكنوا في اول المعركة من الفوز على الاتراك وغنموا سبعة سناجق واستولوا على المكاحل (المدافع) وهم السلطان سليم بالفرار لولا خيانة خيربك والغزالي. وكان السلطان العثماني قد كاتبهم قبل المعركة ووعد الاول بولاية مصر والثاني بولاية سوريا فتم له النصر وانهزم الجيش المصري .

قواده . وخلفه طومان - باي باسم الملك الاشرف. [1] فاشتبك مع السلطان سليم في معركة على بعد ستة اميال من القاهرة فاز فيها العثمانيون ايضاً وانهزم جيش المماليك ، وسقطت دولتهم وتقلّص ظلها عن مصر وسوريا . وتم للفاتح التركي الاستيلاء على القطرين ودخل القاهرة في ٣ محرم سنة ٩٢٣ ه و ٢٦ كانون الثاني ١٥١٧ م تخفق فوق رأسه رايات النصر والظفر [2] وكان

---

(١) ذكر المؤرخون أن فلول جيش المماليك عادت منهزمة الى مصر فاجتمع رؤساؤهم هناك وانتخبوا - طومان باي - خلفاً للغوري وجرت المعركة في جهة العادلي . وتحمس المماليك فهاجموا جيش الاتراك واخترقوا صفوفهم وقصدوا موقف السلطان سليم لاسره وقتله وتمكنوا من قتل الحرس الذي حوله واسروا وزيره « سنان باشا » . وسنان باشا هو الذي دوّخ الممالك العربية وأخضعها لمملكة آل عثمان واستولى على كنوزها وذخائرها وجمع اموالاً طائلة وثروة واسعة تقدر بمئات الملايين من الليرات الذهبية [راجع ما ذكره الاستاذ كرد علي في كتابه الاسلام والحضارة العربية صحيفة ٣٢٣] حاسبين انه السلطان سليم وقتله طومان باي بيده على الرغم من اظهار حقيقة شخصه . ولم ينفعهم ذلك فتغلبت عليهم جيوش السلطان ودخلوا القاهرة بعد دفاع مجيد ومجزرة عامة ارتكبها الجيش المظفر ذهب ضحيتها اكثر من خمسين الف قتيل . والتجأ طومان باي الى الجيزة واخذ يناوش الجيش العثماني وتمكن الترك من القبض عليه بخيانة بعض رفاقه فشنقه السلطان على باب زويلة .

(٢) تكلم المؤرخ ابن اياس وكان معاصراً للسلطان سليم عن حملة الاتراك على مصر وسوريا وما ارتكبه هذا السلطان من الفظائع وما رسمه من الخطط لمحو معالم الحضارة العربية والاستيلاء على مقام الخلافة الاسلامية مما يتخذ منه الباحث المدقق دليلاً على مقاصد الترك الخفية وسوء نياتهم نحو الامة العربية منذ وطأت اقدامهم ارض العرب . ولما استعرت نار الحروب بين السلطان سليم والشاه عباس الصفوي سلطان ايران عرض السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري على السلطان سليم وساطته لحسم الخلاف بينه وبين الشاه عباس وعقد محالفة ثلاثية

وكان يتظاهر بالجامعة الاسلامية فيطمئن الناس ، وتخضع له الممالك قطراً بعد قطر ، وتقدم له الطاعة . وتغلغلت جيوشه في الاقطار العربية فدانت له باجمعها .

بين الملوك الثلاثة المار ذكرهم لاعلاء شأن الاسلام والدفاع عن حوزته. فرفض السلطان سليم وساطته وطرد رسوله وكاد يقتله .

هذا ما كان من رجل دعى نفسه امير المؤمنين وخليفة الله في ارضه وحامي حمى الاسلام وخادم الحرمين الشريفين . وقال ابن اياس ايضاً يصف معركة مرج دابق ان ابن عثمان خدع الغوري وخاتله ليأخذه على حين غره.ولما استمرت لظى الحرب كان حول سلطان مصر اربعون مصحفاً في أكياس من حرير اصفر على رؤوس جماعةمن الاشراف وفيها مصحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان وجماعة من الفقراء . وكان معه الخليفة العباسي امير المؤمنين المتوكل على الله ، وقضاة المذاهب الاربعة وهم : خليفة السيد البدوي ومعهم اعلام ، والسادة الاشراف القادرية ومعهم اعلام خضر ، وخليفة السيد احمد الرفاعي ومعه اعلام، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسه باعلام سود ، والمماليك الذين كانوا اسوداً لا يهابون الموت فهزموا عساكر ابن عثمان وغنموا منهم سبعة سناجق وأخذوا المكاحل (المدافع) التي كانت تسير على العجل ورماة البندق . وهمّ السلطان سليم بالهرب. وقد قتل من عسكره اكثر من عشرة آلاف قتيل ولكن خيرو بك نائب حلب كان خائناً مع ابن عثمان وهو أول من انهزم ونادى بالهزيمة .

(وكان الامير فخر الدين المعني الاول والامير منصور الشهابي حاكم وادي التيم في جيش الغوري ولكن الغزالي بك نائب الشام اغراهما بالمال على الانضمام للترك، ولما فر خيرو بك والغزالي من الميمنة الى عسكرالترك فرّ المعني والشهابي من الميسرة الى الترك ايضاً) فبقي السلطان الغوري واقفاً تحت السنجق في نفر قليل من المماليك ، ولما رأى ما حلّ به اصابه فالج فوقع ميتاً . ولم يوقف له بعدها على خبر . وفقد المصحف العثماني ايضاً . وزال ملك الاشرف في مثل لمح البصر وملك بعده

وتمشت الدولة التركية على طريقة الدول المصرية في ادارة شؤون البلاد السورية . ولم يغير سليم الاول شيئاً من اوضاعها فأقرها على أساليب حكمها ومناحيها . وكانت مقسمة الى اقسام . كل قسم يسمى نيابة . فأبدلت بكلمة ايالة أو ولاية يحكمها وال برتبة وزير ترسله العاصمة . ولا تتجاوز سلطته مدن الساحل وبعض المدن الداخلية والضواحي . وبقي الحكم في داخلية البلاد اقطاعياً . وسيأتي الكلام عن طريقة الحكم الاقطاعي في الفصل الثالث .

طومان باي وسمي الملك الاشرف ابو النصر طومسان باي وهو السابع والاربعون من ملوك الترك وأولادهم في الديار المصرية والحادي والعشرون من ملوك الجراكسة . وكان مملوكاً اشتراه قانصوه الغوري .(وفي تاريخ مصر لعمر الاسكندري ان طومان باي اخو الغوري) وبعد ان اتى على ذكر المعركة الثانية ومقتل طومان باي قال :

« اقام السلطان سليم بالقاهرة ثمانية اشهر لم يجلس على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه احد ولا انصف مظلوماً من ظالم . وغادر مصر في ٢٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م بعد ان غنم اموالها وقتل ابطالها وخرج ومعه الف حمل جمل مما بين ذهب وفضه فوق ما غنمه من التحف والسلاح والصيني والخيول والبغال والجمال حتى نقل منها الرخام الفاخر والاعمدة السماقية وكذلك عمل جنده ووزرائه فغنموا من النهب ما لا يحصى .

« وقبض على جميع اصحاب الحرف المختلفة من القطر المصري وارسلهم الى القسطنطينية حتى بطل من مصر خمسين صنعة لم يعمل بها في ايامه وارسل اليها جماعة من القضاة والشهود واعيان تجار المغاربة وتجار الوراقين والبنائين والمرخمين والنقاشين والمبلطين والحدادين واعيان اليهود وارسلوهم هم ونسائهم واولادهم الى القسطنطينية ومن تأخر منهم عن السفر او امتنع ضربوه وأهانوه .

وفي ١٢ جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ - و ٣ نوفمبر ١٥١٧ خرج من مصر بأمر السلطان الى اسطنبول امير المؤمنين المتوكل على الله ومعه اولاد عمه خليل وهما ابو بكر واحمد وصهره محمد بن العلائي » (انتهى كلامه) . وعرف السلطان سليم كيف يرضي العامة على اسلوب لا يعرفه غيره . فأكرم

أما حالة الشيعيين في عصر الترك فنقول بالاجمال انهم لم يكونوا اسعد حالاً وأنعم بالاً من بقية الطوائف وأهل المقاطعات . بل كانت وطأة الترك عليهم أشد وقعاً ، وظلمهم أعظم أثراً .

وقد نال الشيعيون من أذاهم واضرارهم الشيء الكثير بسبب الفروق المذهبية والتعصب الديني . فنكلوا بعلمائهم . واستحلّوا دماءهم . وشتتوا شملهم . وصادروا مكاتبهم . وجعلوا مؤلفاتهم طعاماً للنار . وساروا بالبلاد على سياسة الافقار والتدمير وجمع الاموال .

واعظم نكبة حلت بابناء الشيعة في عهد الدولة العثمانية كانت في عصر سليم الاول . فان هذا الجبار العاتي اثار حرباً عواناً دامت سنين على الشاه عباس الصفوي سلطان ايران.وفتك فتكاً ذريعاً بالشيعيين المقيمين على الحدود الايرانية فذبح منهم اربعة واربعين الفاً من رعيته بلا شفقة ولا رحمة ولم يكن

ابن امير مكة وبعث الكسوة للكعبة والضريح النبي (ص) ووضع كسوة لمحمل الحاج المصري وفرق الف رأس غنم ومائة جمل ومائة بقرة على مجاوري الجوامع والمساجد . فأرضى العامة وبعض الخاصة . فانه لا شيء يجلب ألباب الشرقيين مثل الاحتفاظ بالشعائر الدينية ولو ظاهراً .

ولما وصل السلطان الى المكان المعروف بخان يونس ومعه وزيره يونس باشا ، ولم يكن من رأي هذا الوزير الحملة على مصر ، قال له السلطان كيف رأيت نتائج معارضتك فقال الوزير لقد ذهب نصف الجيش في مصر وسلمتهـا الى خائن (يريد خيربك الذي اقامه السلطان نائباً عنه) وكان السلطان عصبي المزاج سفاكاً للدماء لا يطيق معارضة رأيه فأمر بقتل الوزير بالحال . ودفن بالمكان المعروف باسمه وكان ممن ساعده على الوصول الى العرش . وتوفي السلطان سليم في سنة ٩٢٦ هـ وعمره ٥٤ سنة .

لهم ذنب سوى انهم على مذهب الشيعة الامامية مذهب الشاه اسماعيل [1] .

---

(١) قال ابن اياس في تاريخه : ان ابن عثمان احضر فتاوى من علماء بلاده بقتل الشاه اسماعيل وان قتله جائز شرعاً .

ولم يقل ابن اياس لماذا افتى العلماء بقتل الشاه شرعاً ونحن نقول لانـــه على مذهب الشيعة الامامية ولقبه ابن اياس بالصوفي وتابعه اصحاب المقتطف مجلد ٣٤ صحيفة ٣٦٥. والاشهر صفوي نسبة للاسرة الصفوية المنحدرة من السلالة النبوية الطاهرة التي حكمت ايران ونشرت مذهب التشيع واتخذته مذهب الدولة الرسمي .

اما الدولة الصفوية فهي من اعظم دول ايران ذكراً واجلها قدراً وهي من السلالة النبوية الطاهرة واسرة علم وفضل وزهد وتصوف يتصل نسبهم بالامام موسى الكاظم عليه السلام . فهم عرب صميمون بل من اشراف العرب . مؤسس الدولة الشيخ صفي الدين وكان مركزه مدينة أردبيل من اعمال اذربيجان . وقامت هذه الدولة على انقاض الدولة التيمورية التي اولها الفاتح التتري تيمورلنك وآخرها ابو سعيد التيموري .

والمؤرخون يعدون اول الدولة الصفوية الشاه اسماعيل الذي نودي به ملكاً على ايران وهو في الخامسة عشرة من سنيه وقد تشيع وتشيعت بلاد ايران كلها في عهده .

والواقع ان التشيع في ايران قديم العهـــد غير ان اول من اعتنق مذهب الشيعة من ملوك ايران عن يد العلامة الحلي هو السلطان محمد خدابنده من سلاطين المغول ومن احفاد هولاكو الفاتح التتري الذي سقطت على يده الدولة العباسية في سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م . والسلطان خدابنده نشر مذهب الشيعة في ايران وتوفي في سنة ٧١٦ﻫ - ١٣١٦م .

والشاه اسماعيل الصفوي هو صاحب المعارك والحروب الدامية التي نشبت بينه وبين السلطان سليم الاول العثماني (ياوزسليم) وقد هاجمه هذا بمائة وخمسين الف مقاتل ومائتي مدفع . وتولى بعد الشاه اسماعيـــل سبعة ملوك من الصفويين آخرهم الشاه حسين وفي عهده سنة ١١٣٥هـ-١٧٢٢م هاجمها الافغان وكانت بلادهم ولاية تابعة لايران فاستولوا عليها ولم

واصابت شروره مدينة حلب وكان معظم اهلهـــا من الشيعة الامامية فقتل منهم مقتلة عظيمة [1] وجلى من بقي منهم الى الضواحي في جهـات ادلب . وهاجر بعضهم الى جبل عامل فتوطنوه ومنهم السادة آل بدر الدين المتصل نسبهم بالاشراف من آل زهرة فقهاء حلب .

وامتد البغي الى الشيعيين المقيمين في سوريا الجنوبية فاشتد الاضطهـــاد والضغط عليهم . واضرم الاتراك العداوة بينهم وبين اهل السنة كما جرت عادتهم (فرق تسد) . فاستصدر الفتاوى من بعض علماء دمشق باستحلال قتالهم ، وهدر دمائهم ، ومحو آثارهم واستعباد ذراريهم ، وان لا تقبل لهم توبة . الى آخر ما ورد من فتاوى الشيخ نوح حكيم الحنفي المثبتة في كتاب العقود الدرية في الفتاوى الحامدية جزء اول طبع مصر سنة ١٣٠٠ ه

قطل مدتهم ولم يحكمها منهم سوى اثنين هما محمود خان واشرف خـان وتغلب عليهم طهماسب ميرزا بن الشاه حسين ثم عباس ميرزا بمعاونـة نادرشاه في سنة ١١٤٢ ه ١٧٢٩م. ولمع اسم نادر شاه وعلا ذكره وكان وضيع الاصل غير انه كان ثابت العزيمة ونودي به ملكاً على ايران في سنة ١١٤٩ه-١٧٣٦م.وسقطت الدولة الصفوية بعد ان دام ملكها نحو مائتين وخمسين سنة .

وتوالت الحروب والفتن في ايران بعد وفاة نادر شاه وظهور الدولة الزندية حتى سنة ١١٩١ ه - ١٧٧٧ م وفيهـا ظهرت الدولة القاجارية على يد محمد شاه المتوفى سنة ١٢١٢ ه - ١٧٩٧ م وكان من مستشاري كريم خان أول ملوك الدولة الزندية ، وآخرهم لطف علي خان . ومدة الدولة القاجارية زهاء مائة وخمسين سنة وآخرهم احمد شاه الذي خلعه الشاه رضا شاه بهلوي والد الشاه الحالي محمد رضا شاه بهلوي وسقطت الدولة القاجارية وانتخب رضا شاه شاهاً على ايران سنة ١٣٤٣ ه - ١٩٢٤ م

---

(١) في تاريخ العلويين صحيفة ٣٢٢ الى ٣٢٨ ان عدد من قتل في حلب وحدها اربعون الفاً من عامة الشيعة ما عدا الامراء والمشايخ . وعمت البلوى فامتدت الى الشيعة العلوية في ديار بكر والاناضول وغيرها من بلاد الترك والعرب .

صحيفة ١٠٢ . ومن شاء فليرجع اليها يرى العجب العجاب وفي الرد على هذه الفتاوى يقول العلامة المؤرخ الشيخ علي السبيتي من ابيات (وكان الشيخ نوح قد صاغها في احدى جنائن دمشق) .

لقد انتجت يوم الجنينة اولادا ‌ ‌ ‌ ‌ فقولا لهذا ، اتعس الله حبرها

وكانت هذه الفتاوى التي تصدر تحت ستار الدين ، والدين بريء منها ، سبباً لاهراق دماء طاهرة لا ذنب لهـــا سوى انتسابها لمذهب اهل البيت النبوي . ولا فرق بينه وبين مذاهب المسلمين إلا ببعض الفروع . وبالاجمال ان الشيعيين لم ينلهم من الاذى في عهد الصليبيين مثلما نالهم في عهـــد لاتراك المسلمين .

وقد اجمع المؤرخون ان الادارة التركية العثمانية طيلة اربعمائة عام كانت شر ادارة منيت بها الأمصار التي دخلت تحت حكمهم واظلتها رايتهم . وقد تمشوا في ادارة ممالكهم المترامية الأطراف على القاعدة التي وضعها (ارسطو) فيلسوف اليونان وأوحى بهـــا لتلميذه « اسكندر المكدوني : « من تمزيق وتفريق بين الطوائف التي خضعت لسلطانهم واختلفت عنا ديناً وعرقاً »

فسادت الفوضى ، واختـــل الأمن ، وانتشر الفساد ، وخربت القرى وهجرها السكان ، وتلفت النفوس ، وبارت الزراعـة ، وداهم البلاد الفقر ، وعم البؤس والشقاء [1] .

ذبلت زهرة تلك المدن وذوت نضارتها وبدأت تتفكك اطرافها . وتحفز

(١) ورد في كتاب الاسلام والحضارة العربية للاستاذ كرد علي الجزء الثاني صحيفة ٣١٥ : «كانت الدولة اذا غضبت على احد ارباب المقاطعات ترسل اليه حملة يكون اول عمل لها قطع اشجار المقاطعة وتخريب بيوت السكان فزادت البلاد خراباً فوق خرابها . فقد كان مثلا في اعمال حلب ثلاثة آلاف ومئة قرية تدفع الخراج قبل استيلاء العثمانيين فنزل عددهـــا الى اربعمائة في عهدهم . وكان في غوطة دمشق في أواخر عهد المماليك ثلاثمائة وخمسون قرية لا تزال اكثر دمنها ظاهرة . ولما غادر الترك البلاد كان في الغوطة نحو ستين قرية فقط . وهكذا يقال في بقية الاقطار . »

كبار الزعماء لنبذ الطاعة والطموح الى الاستقلال . وتدنت الادارة التركية الى درجة سيئة . وكانوا في العاصمة يبيعون المناصب بالمزاد . وكان معظم الولاة من ذوي الاخلاق الفاسدة لا هم لهم الا جمع الاموال ، ومصادرة اغنيـــاء الشعب ، والتضييق عليهم حتى اتى زمن وبعض الناس يحمد الله على الفقر[1].

وكانت سياستهم في بلاد العرب تدور على اضعاف قوى الأمـة واذلالها ، وتعرية مدنها من ذخائر العلم والبضاعة ، ومحو مجد العرب من سجـل التاريخ للاحتفاظ بالخلافة الاسلامية التي اغتصبها سليم الاول من المتوكل على الله الخليفة العباسي في مصر [2] وقد مر بك ما ذكره ابن اياس من اعمال السلطان سليم

---

(١) كانت المناصب بالمساومة فكانت شراء الولاية بثمانين الف الى مائة الف ريال (والريال يساوي نصف ليرة فرنساوية ذهبا) ووظيفة الدفتردار (مدير المالية) تباع باربعين او خمسين الف ريال والقاضي اقل من ذلك وجميعهم يستعيضون عن مصاريفهم من الاهالي . وجمع عبدي باشا والي حلب بمدة خمسة عشر شهراً نحو اربعة ملايين ليرة ذهبية من الضرائب التي فرضها على جميع ارباب الحرف ، حتى على منظفي النارجيلات . وجمع سنان باشا فاتح اليمن وتونس ووالي الشام ومصر ثروة قسم عظيم من الولايات العربية تفوق الحصر ، وهو الذي غدر بامراء اليمن ومشايخها وكانوا قد جاءوا للسلام عليه ، فأمر بقتلهم ، فغرس بين العرب والترك احقاداً دامت قروناً . وهكذا كانت حال احمد باشا الجزار والي صيدا وعكا فلم يُبق ثروة ولم يعفُ عن انسان .

(٢) سقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م بعد حملة التتار وتخلص ابو القاسم احمد بن الظاهر العبـاسي من براثن الغزاة فجاء الى مصر في سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦٠م وكانت يومئذ بيد الظاهر بيبرس البندقداري من ملوك دولة المماليك البحرية ، فأثبت نسبه ، وبايعه الظاهر بالخلافة ، وضرب السكة باسمه ، وخطب به على المنابر ، ولقب المنتصر بالله وكان بعده في مصر خمسة عشر خليفة ليس لهم من الخلافة إلا الاسم . وآخرهم المتوكل على الله الذي استصحبه السلطان سليم وحمل معه الآثار والمخلفات

في مصر وتدمير معالم مدنيتها .

النبوية ، ثم قتله . وادعى انه تنازل له عن الخلافة فانتقلت الخلافة من العرب الى الترك . واتخذوا لانفسهم لقب امير المؤمنين ، وخادم الحرمين الى آخر ما مر ذكره من النعوت والالقاب . ودامت فيهم من سنة ٩٢٣هـ -- ١٥١٧ الى سنة ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م بعد الحرب الكبرى حيث دالت دولة بني عثمن واسقطها الكماليون وألغوا الخلافة .

الفصل الثاني

في الثورات الاهلية والحروب التي اضرم نارها الشيعيون دفاعاً عن استقلالهم الذاتي

بسطنا القول في الفصل السابق عن ادارة الاتراك وظلمهم الذي عم الاقطار وغم البلدان وما اصاب الشيعيين في عهدهم من البلاء والمحن . ولم يكفهم جور الترك واضطهادهم لهم حتى استعانوا عليهم باهل الاقطاعات المجاورة من انصارهم. فاصبحت بلادهم عرضة لغـــارات اللبنانيين من الشمال وبدو فلسطين (من الهنادي والهوارة) من الجنوب والشرق . واشتبكوا معهم في حروب دامية رخصت فيها النفوس واستهينت الأرواح [1] .

---

(١) ورد في مجموعة العلامة اللغوي الشيخ علي السبيتي التي نشرتهـا مجلة العرفان في المجلد الخامس صحيفة ٣١ ما يلي :
ان الشيعيين في اوائل حكم الاتراك العثمانيين وقعت بينهم وبين الطوائف المجاورة عدة معارك كانت الحرب فيها سجالاً فمنهـــا معركة انصار سنة ١٠٤٨ ﻫ - ١٦٣٨ م مع الأمير ملحم بن معن . ومعركة عيثاثا سنة ١٠٧٠ ﻫ - ١٦٥٩ م . ومعركة النبطية سنة ١٠٧٧ ﻫ - ١٦٦٦ م ومعركة وادي الكفور سنة ١٠٧٨ ﻫ - ١٦٦٧ . ومعركة انصار الثانية سنة ١١٤٧ ﻫ - ١٧٣٤ مع الامير ملحم ابن الامير حيدر الشهابي . ومعركة ميس ومرج قدس سنة ١١٥٦ ﻫ - ١٧٤٣ مع سليمان باشا العظم

ولقد كان توالي تلك الحروب الطاحنة ، وتألب الطوائف المجاورة على ابناء جبل عامل لاختلافهم عنهم عرقاً ومذهباً ، سبباً اولياً لوقوفهم وقفة المستميت دفاعاً عن اوطانهم ، وحفظاً لكيانهم . وقد خلق منهم هـــذا الارهاق الشديـــد ، والضغط يولد الانفجار ، شعباً حربياً باسلاً يهزأ بالمنايا ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف .

(آل العظم من قبائل قونية في بلاد الترك . وقال بعض المؤرخين ان اصلهم من عرب بني غزيم من بلاد حوران صرح بعروبتهم الشيخ عبد الرحمن الفاسي المغربي في تاريخه المخطوط في مصر سنة ١١٠٠ هـ فذكر وفاة احدهم وقال ان هذا اللقب من الدولة وانما اصلهم عربان من من بادية الشام . ذهب احدهم الى قونيه واشتهر منهم فيها اميران احدهما قاسم بك العظم المعروف بابي كتف وقد مات عقيماً والثاني ابراهيم بك وهو والد اسماعيل باشا العظم . فانتقل ابراهيم هذا من قونيه الى بغداد في زمن السلطان مراد الرابع العثماني فتوطن بها وولد له اسماعيل باشا الآنف الذكر . واخوه سليمان باشا وهما اول من قدم الشام من هذه الاسرة . فسليمان باشا لم يعقب واسماعيل باشا هو جد الاسرة الباقية في معرة النعمان وحماة ودمشق . وعرف منهم ولاة كثيرون ولهم آثار في مواطنهم شاهدة بفضلهم ولقب العظم هو لضخامة جسم جدهم ابي كتف الملقب بالتركية كيملك لي . اي ذو العظم . انتهى نقلاً عن مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق مجلد ١٤ صحيفة ٥٧ تاريخ كانون الثاني وشباط ١٩٣٦) ومعركة انصار ايضاً وايضاً في السنة ذاتها مع الامير ملحم الشهابي . ومعركة مرج عيون في سنة ١١٥٧ هـ - ١٧٤٤م . ومعركة رأس العين سنة ١١٧١ هـ - ١٥٧١م . ومعركة طيرسمنا مع ظاهر العمر سنة ١١٨٠هـ - ١٧٦٦م . ومعركة دير قانون سنة ١١٦٣هـ - ١٧٥٠ م مع الامير ملحم الشهابي . ومعركة في فلسطين سنة ١١٧٩ هـ - ١٧٦٥م مع علي الظاهر .

هذا ما ذكره العلامة السبيتي وغيره من مؤرخي جبل عامل ولم يذكر أحد

وانصرف الشعب العاملي كله في ذاك العهد لممارسة فنون الحرب واحكام خطتي الدفاع والهجوم وكانوا لا همّ لهم في فترات السلم الا شحذ السيوف ، وتسديد المرمى ، والكر على ظهور الخيل يعلمونها أولادهم منذ الصغر . لا يعبأون بذهب يجمع او ذخر يرفع او قصر يبنى ، او غرس يجنى .

منهم تفصيلا وافياً عن هذه المعارك سوى قولهم ان الحرب كانت سجالا وان كفة النصر في معظمها كانت اميل الى جهة الشيعيين منهـا الى جهة اخصامهم . خلا المذبحة التي وقعت في قريـــة (انصار) وهي القرية المعروفة في شمالي جبل عـامل وكانت مقر حكومة آل منكر في سنة ١٠٤٨ هـ - ١٦٣٨م وفيها دخل الامير ملحم بن معن قرية انصار بحجة التفتيش عن خصمه الامير علي علم الدين . دخلهادخول مسالم ولما استأمن القوم امر بهم فذبحهم عن آخرهم في المرج المعروف الآن بمرج الدجاج . وكان عدد القتلى ١٦٠٠ قتيل واباح البلدة ثلاثة أيام .

والمذبحة الثانية حصلت في القرية ذاتها سنة ١٥٦ هـ - ١٧٤٣م وبطلها الامير ملحم بن الامير حيدر الشهابي . فقد قام هذا بعسكره من لبنان متظاهراً انه يقصد جبهة فلسطين بطريق الساحل . ولما وصل الى محاذاة قرية انصار داهمها في يوم الجمعة ، والقوم عزل من السلاح ، يؤدون الفريضة في جامع منصور ،وقيل جامع السرايا . وكان حاكمها (علي سليمان منكر) فذبح منهم الف قتيل ، وقيل ألف واربعمايـة ، حتى سال الدم في الازقة . وفي هذه المذبحة قتل ثمانية من آل منكر ، وسبعة من مشايخ آل صعب ، وثلاثة عشر من الحمادية .

والمجمع عليه من أقوال المؤرخين في جبل عامل ان مواقف المهاجمين في مذابح انصار لم تكن مواقف مشرفه . وان الشيعيين أخذوا غيلة وغدراً ولئن اغفل ذكر هذه الحقائق بعض المؤرخين اللبنانيين سيراً مع الهوى والغرض ، واغضى عن ذكر دفاع الشيعيين المجيد ، وانتصاراتهم الباهرة ومواقفهم الشريفة مع اخصامهم هؤلاء ، والدفاع عن حوزة البلاد ضد الاجنبي الدخيل ، فلا يخلو الامر من منصف لا تطاوعه ذمته على كتم الحقائق مما سيرد بيانه . والحق لا يعدم انصاراً .

ولم يكن فخرهم الا بعدو يغلب ، وثناء يجلب، وذبائح تنحر، وحديث يذكر .

وكان الشعب العاملي مدرباً على الطاعة التامة لزعماء البلاد ، ومن اسرع الشعوب لحمل السلاح . ينفرون كباراً وصغاراً في حالة الخطر للدفاع عن وطنهم ، والانضواء تحت لواء القادة عند اول اشارة . وكانت قصائدهم وأهازيجهم وشعرهم الزجلي حماسية محضة تكاد تكون مقصورة على التباهي بالنصر والظفر والحث على خوض المنايا والموت في سبيل الذود عن الوطن .

وزادهم عزة ومنعة وهيبة في نفوس الطوائف المجاورة ظفرهم العظيم في المعارك التاريخية الثلاث : البحرة - النبطية - سهل الفازية . التي سيأتي الكلام عنها وعن اسبابها ونتائجها والتي رن صداها في الشرق الاوسط وذكرها مؤرخو الترك والأفرنج بأعجاب. وقد احرزوا من ذياع الصيت وبعد الشهرة غاية ما بعدها غاية . ونحن نورد فيما يلي طائفة من الاخبار التي اثبتها المؤرخون الثقاة من غير ابناء جبل عامل تؤيد ما وصلت اليه الطائفة الشيعية من الصولة وشدة البأس ، وتشهد بالبطولة والبسالة في ذاك العهد .

قال المؤرخ جورجي يني الطرابلسي في ترجمة ظاهر العمر التي نشرها في المقتطف مجلد ٢٨ صحيفة ٣٣٦ :

ورأى ان قوته تزداد كثيراً بانضمام المتاولة اليه وكانوا يومئذ في سماء عزهم فقد بلغ جيشهم العشرة آلاف فارس من الابطال المجربين . ولهم حكم بلاد بشارة ومدينة صور . وقد ارتفعت عنهم سلطة ولاة لبنان ، فتمادوا في سلطتهم حتى كانوا يغيرون على اطراف ولاية الشام، ويمسكون المال السلطاني عن والي صيدا . »

وقال المؤرخ الافرنسي (ادوار لكروا) في كتابه تاريخ سوريا ومصر في اواخر القرن الثامن عشر ، تعريب الاستاذ جورج مسرة صحيفة ٤٧:

« ان الشيخ ناصيف النصار الكبير المشهور في كل سوريا اتخذ قصر تبنين

(كذا) مقراً وهو من اشهر القصور وكان يتعاطى التجارة (كذا) والحرب في وقت واحد وكان مخيفاً كتاجر كما كان مخيفاً كجندي [1] . »

وقال في صحيفة ٩٤ :

« ان الامير يوسف الشهابي لما اعياه امر الجزار وامتنع عن تسليمه مدينة بيروت ، واهمل الباب العالي مساعدته ، استنجد بالشيخ ناصيف نصار شيخ المتاولة الكبير والحليف القوي لظاهر العمر ، فأرسل اليه الشيخ علي جنبلاط فوافاه الى قصر (تبنين) . ولما ادلى اليه بمهمته ، ادرك ناصيف اهمية هذه المحالفة التي تضعف نفوذ عثمان باشا والي الشام . فأسرع ناصيف الى عكا وهناك اوضح للشيخ ظاهر الغاية من مجيئه وتوسطه بعقد معاهدة هجوم ودفاع تعهد فيها الشيخ ظاهر وحليفه بأخذ بيروت عنوة وتمت المعاهدة في أول تموز سنة ١٧٧٣ م »

وقال في صحيفة ٦٦ :

زحف الامير يوسف الشهابي بعد معركة البحرة بشهرين على بلاد المتاولة في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٧٧١م وبدأ يحرق القرى والمزارع ولم يوفر رجـاله رجالاً ولا نساء واطفالا ، ولكنه انكسر بغتة وبدون انتظار . وسبب ذلك ان طليعة جيشه كانت تنحدر بسرعة في اكمة فاذا بها امام خمسماية او ستماية فـارس من المتاولة الذين حملوا على الدروز لاعتدائهم على قراهم ومـا اجروه من القسوة . فارتدت طليعة جيش الامير يوسف تتسلق الاكمة التي نزلت منها والحراب تعمل في اقفيتها . ولما وصلت الى القمة التقت بالجيش فظنه العدو فانهزم كله وكان الانكسار هائلا ، وطرحت البنادق والذخائر والاعلام . ومع انهم كانوا اربعين الفاً لم يفكر واحد منهم بالثبات . وقدر الخمسماية متوالي ان يضربوا اقفيتهم ضرباً شديداً

---

(١) وقول المؤرخ انه كان تاجراً بحثنا عنه في مجلة العرفان مجلد ٢٦ ص ٢٥٣ من ان الضرائب كانت تجبى اليه أشياء عينية فيبيعها وكلاؤه للتجار ومن هنا توهم المؤلف انه كان تاجراً .

وفر الوالي درويش باشا من صيدا وتبعه الشيخ جنبلاط بعد ان نهب رجاله المدينة » .

وقال المؤرخ جودت باشا في الجزء الاول من تاريخه طبع بيروت صحيفة ٣٧٧ ما نصه :

« خرج عثمان باشا والي الشام باكثر من خمسة عشر الف مقاتل من الجنود ونصب خيامه في البقاع(١) وتهيأ لقتال الامير يوسف الشهابي . فاستنجد الامير يوسف بالشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ بني متوال فجاء بعسكره لجهة البقاع نجدة له . ولما اتصل الخبر بعثمان باشا فرّ ليلاً راجعاً الى الشام واتبعه الدروز فنهبوا اثقاله بما فيهـا من مدافع وخيام . وطار الخبر الى الاستانة فنزعت منه لقب الوزارة واحالت خطة الشام الى محمد علي باشا العظم . »

وقال الامير حيدر الشهـابي في تاريخه صحيفة ٧٨ في حوادث سنة ١١٨٣ هـ . ١٧٦٩ م طبع بيروت عند كلامه عن ظاهر العمر :

« وكان متفقاً مع المشايخ المتاولة والحكام على صور وبلاد بشارة ، واقوامهم في المال والرجال الشيخ ناصيف النصار . وكان تحت يده حصون وقلاع وبلدان وضياع ، وفداوية يركبون الخيل ، وفرسان وابطـال وشجعان . وقد راق لهم الزمان ، وتملكوا البلدان ، وهجعت عنهم حكام جبل الدروز وراقت ايامهم واطمأنت . »

وبلغوا من تنظيم قواهم ، وتيقظهم وشدة حذرهم وسهرهم على احكام خطة الدفاع والهجوم شأواً بعيداً . وكانت الاوامر تصدر من الزعماء والقادة بالوقوف دائماً على قدم الاستعداد لخوض غمار المنايا والمبادرة للنجدة وحمل السلاح لدى سماعهم أول طلق ناري .

وحدث ان احدهم كان يحرس مزرعة في ساحل صور فاطلق بندقيته في بعض الليالي لطرد وحش كاسر جاس مزرعته ، فظن الذي سمع دويّ الرصاص

---

(١) في جهة القرية المعروفة بالمنيشه على عين ماء تعرف للان بعين ناصيف .

ان العدو هاجمهم ودهمهم، فاطلق بندقيته ، وتتابع اطلاق البنادق استنجاداً للحامية واعلاناً للحرب . وتجاوبت اصداؤها من البصة وهي آخر حدود بلاد الشيعة جنوبـاً الى جبع وهي منتهى الحدود الشمالية . ولم يسفر الصباح الا والساحل الصوري يعج بالمقاتلة فرساناً ومشاة . وقد ارتفعت أصواتها بالحداء والاهازيج الحربية تنتظر أوامر القادة للزحف وشن الغارة .

واهتموا بتحصين القلاع والحصون فرمموا ما خرب منها وزادوا عليهـا . واصدر الشيخ ناصيف منشوراً في سنة ١١٦٣ هـ - ١٧٤٩م بنقل مراكز الحكومات اليهـا وشحنها بالسلاح والمقاتلة . وفي وصف عزهم وصولتهم يقول الشاعر الصفدي المعروف « بشناعة » قصيدته المشهورة .

لبني متوال ظهر العـاديات من متون الخيل يضون الصقال

الفَصْل الثَالِث

في الحكم الاقطاعي [1] واثره في جبل عامل ومناضلة الشيعيين في تثبيت دعائم حكوماتهم الاقطاعية وانشاء الحصون وترميم القلاع ونقل مراكز المقاطعات اليها

كانت الحال جيدة في سوريا في عهد الدول التي سبقت الترك بما كان لهم من الرغبة في اصلاح الشعب والعمل بما تقتضيه مصلحة الدولة والأمة . والبحث يطول في شرح اساليب الحكم والادارة التي كانت تدار فيها البلاد اوانئذ فمن ثروة واسعة وحضارة لا بأس بهـا ومدارس وفيرة وعدل شامل ونهج قويم ورغبة صادقة بالذب عن الرعية وحماية البلاد من الطوارىء بحيث كانت البلاد تدرّ لبناً وعسلاً . مما اثبته المؤرخون وبحثوا عنه بحثاً مستفيضاً ولا سيما مؤرخو هذا العصر .

واختلفت الاحوال اختلافاً بيناً في عهد الاتراك فقد اهملوا البلاد التي اكتسحوها وتركوها وشأنها تحت رحمة الاقطاعيين والولاة الطغاة . وقد

---

(١) كلمة اقطاع مشتقة من اقطع ومعناها منح الحق بتمليك نتاج الارض فقط . وفي العهد التركي كان الاقطاعيون يدعون مقاطعجية واحدهم مقاطعجي . والحكم الاقطاعي كان وراثياً للانسب والارشد او الافتى في الاسرة . وهو نظـام قديم كان سائداً في الشرق كله وفي اوربا ويعرف (بالفيدراليسم) . وكما انه كان في بعض الاصقاع نعمة على قوم ، كان في بعضها نقمة على الآخرين .

تكلمنا في الفصل السابق عن سوء ادارتهم وما جرته على البلاد من الويلات والمحن .

ولم يكن لذلك من سبب سوى ان الاتراك لا عهد لهم بالادارة واساليب الحكم [1] وقد انصرف سلاطينهم في اوائل حكمهم للفتوحات وتوسيع امبراطوريتهم الضخمة ، ثم احتجبوا في الدور والقصور وخلدوا الى اللذة والنعيم ، واكتفوا بجباية الأموال الى خزائنهم كيفما اتفقت الحال ، والخطبة باسمهم على المنابر .

وكانت الاقطاعات مقسمة الى خطط صغيرة يديرها امير او مقدم او شيخ من ابناء الأسر القديمة او المتغلبة . يحكمها كيفما يشاء ويختار . وليس عليه الا ان يؤدي مالا مقطوعاً لخزانة الدولة وهدية للوزير تسمى عوائد . غير ان الحال في جبل عامل كانت تختلف عن بقية البلدان اذ كان الحكم الاقطاعي يومئذ حكماً وطنياً محضاً، نمت في عهده الروح الوطنية ، واشتدت روابط التضامن القومي ، وساد الوفاق بين الزعماء ، وحال دون تدخل رجال الدولة في الشؤون الداخلية . واذا حاول احدهم خرق هذه الأصول صدوه بقوة السلاح . ولئن صرفنا النظر عن الفتن والحروب التي خاضها العامليون في العهد السالف بحكم الضرورة وفي حالة الدفاع عن أوطانهم واستقلالهم الذاتي واتقاء الأذى والضرر الذي يراد بهم ، والحذر من وقوعهم تحت سلطة الاجنبي كما حصل لهم في فترات مختلفة . جاز لنا القول انهم كانوا انعم بالا ، واهنأ عيشاً ، وأوفر ثروة ، واعز نفساً من جيرانهم اهل الاقطاعات المجاورة .

ولم يقع في جبل عامل ما كان يقع في غيره من البلدان المار ذكرها

---

(١) هم رجال فتح وحرب ولم يكونوا رجال تعمير وتمدين . فالبلاد العربية والبلاد التركية التي خضعت للسيادة التركية كانت في التقهقر والتأخر سواء . لذلك انضم احرار العرب ومتعلموهم من ضباط وغيرهم الى احرار الترك وعملوا معهم في الجمعيات السرية واشتركوا بالاعمال الثورية التي اسقطت السلطان عبد الحميد واعلنت الدستور في تركيا سنة ١٩٠٨ م .

فيجبي حاكم المقاطعة مرتين او ثلاثاً في العام الواحد . ويضع رسوماً جديدة على أنواع الانتاج ، ويزيدها او يضاعفها مـــا شاءت مطامعه ارضاء للوزير ورجال الدولة ليـــأمن على مركزه او لتشييد السرايات والقصور على كتف البائس ومن مال المزارع المسكين .

ولم يقع خلاف يذكر بين زعماء جبل عامل او منافسات على الحكم . ولم يعرف العامليون في عهدهم الاقطاعي الضرائب المتنوعة التي ضربها الترك على الاراضي من ويركو واعشار ورسوم تمليك [1] وغيرها ولم تكن شبانهم تساق

---

(١) كان الاقطاعيون لا يلزمون برفع علم الدولة الرسمي في اجتماعــاتهم بـــل كان لهم اعلام خاصة من نسيج حريري – اخضر واحمر – كتب عليها بالنسيج الابيض ثلاثة سطور الأول : لا إله إلا الله محمد رسول الله – والثاني : لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار – والثالث : نصر من الله وفتح قريب .

وكانت سلطة الدولة الرسمية لا تتدخل في شؤون البلاد المحلية ولا يهمهـا الا قبض الضريبة المفروضة على مقاطعات جبل عامل ومقدارها ستون الف قرش توزع على المقاطعات الثمانية وهي : مقاطعـــات الشقيف ، والشومر ، والتفاح ، في الشمال ؛ ومقاطعة جبل هونين ، وجبل تبنين ، وساحل معركة ، وساحل قانا ، وساحل صور ، في الجنوب . وكثيراً ما رفضوا تأديتها لصندوق الدولة ولا سيما في حالة ضعف الـــدولة واشتباكها في حرب مع احدى الدول . هذا في الدور الثالث واما في الدور الثاني والاول فكانت البلاد تطرح الالتزام . ودامت هذه الاصول الحكومية مدة العهد الاقطاعي اي لسنة ١٢٨٢ هـ . ومما يذكر في هـذا الفصل حادثة بل حوادث وقعت في عهـــد الاقطاعية الثالثة واشتداد صولتها .

كانت الدولة في خصام شديد وبلبلة زائدة اثناء الحروب التي دارت رحاها بينها وبين الروس وظهور عدة مشاكل في أنحاء السلطنة العثمانية بلبلت أحوال الدولة . فأرسلت حكومة الايالة ظابطاً برتبة بينمباشي (رئيس

الى الجندية سوق الغنم الى الموت المحتم جوعاً وهزالا في خارج البلاد وكانوا يلجأون الى تحكيم كبار الزعماء في فض كل خلاف [٢] يقع بينهم وكان في

ألف) مع شرذمة من الجند لتحصيل الاموال المتراكمة من الاقطاعيين في جبل عامل ووصل الضابط بجنده الى قلعة تبنين فأكرمه صاحبها علي بك كضيف واستمهله بدفع القيمة المتوجبة على مقاطعته بينا تنتهي مهمته ويعود راجعاً من بنت جبيل آخر المقاطعات الجنوبية . وحاكمها يومئذ تامر بك الحسين المعروف بالبأس والشدة وقوة الشكيمة . وقد القى علي بك بدهائه هذا الضابط في أتون من نار لما يعلمه من شدة تامر بك واحتقاره للترك . والظاهر ان هذا الضابط كان على جانب من النزق والطيش وجهل تام بأحوال البلاد . ولما وصل الى بنت جبيل ابدى شيئاً من الشدة في حديثه مع تامر بك فاستشاط البك غضباً وأمر اتباعه بجلده وضربه ضرباً مبرحاً وأقسم لولا شفاعة (الحاجة) لقضى على حياته . ويريد بالحاجة زوجته بندر كريمة المقدم محمد من مقدمي جزين .

ورجع الضابط الى تبنين في حالة مؤثرة من الألم والاهانة مشدوداً على ظهر جواده فقابله علي بك آسفاً وكان يضحك في سره . وعاد الضابط الى بيروت ولم يظفر بقرش واحد من الضرائب بدهاء علي بك وجرأة تامر بك . وتغاضت الحكومة عن هذه القضية وذهبت تلك العلقة في جلد الضباط .

(٢) كان الشيخ قبلان بن الشيخ حسن بن الشيخ احمد بن الشيخ مشرف (الكبير) بن محمد بن حسين بن علي الصغير . زعيماً قوياً سديد الرأي وافر التدبير انتهت اليه رئاسة العشائر ومشيخة المشايخ بعد وفاة والده سنة ١١٥٠ هـ - ١٧٣٥ م ووصفه المؤرخ الفرنسي « ادوار لكروا » في كتابه تاريخ سوريا ومصر وقد تقدم الكلام آنفاً .

قال في صحيفة ٥٥ : « منذ زمن بعيد رفض المتاولة دفع الميرة لباشا صيدا وكانوا أمناء للشيخ ظاهر العمر مع بقائهم على استقلالهم . وهناك شيخ اسمه قبلان لم يكن يتداخل في الحروب . وتصوره مراسلات القناصل فيلسوفاً حكيماً لانه عرف كيف ينال رضا السلطان بارسال

المبره اليه رأساً اربع مرات في السنة . فكانت العواصف تمر فوق رأسه دون ان تمسه . وكان هؤلاء الشيوخ يسكنون القصور المحصنة احسن تحصين . (انتهى كلامه ملخصاً) .

نقل الشيخ قبلان مركز حكومته من مزرعته (مشرف) الى قلعة هونين واستأثر بحكومة جنوبي جبل عامل او بلاد بشاره الجنوبية كلها لأنه كان رأس العشيرة وأكبر زعمائها سناً واعرضها جاهاً . وكان بقية افراد الاسرة فتياناً حديثي السن وفي ١١٦٤ هـ - ١٧٥٠ م نشأ خلاف بينه وبين ابناء عمه على حكم المقاطعة انتهى بتحكيم الشيخ ظاهر العمر ، وكان صديقاً لزعماء جبل عامل ، فانقسمت المقاطعة الى ثلاثة اقسام : الأول قبلان ، والثاني عباس بن محمد بن مشرف ، والثالث ناصيف بن نصار بن محمد بن مشرف . والأخيران زعيمان من آل وائل ذاع صيتهما ونبه ذكرهما من العشيرة في ذاك العهد .

وعقد اجتماع حافل برئاسة الشيخ ظاهر وقسمت اقطاعات بلاد بشارة الى ثلاثة اقسام فكان سهم الشيخ قبلان : جبل هونين . وسهم الشيخ ناصيف : جبل تبنين والبلدان الجنوبية كلها . وسهم الشيخ عباس : مقاطعة قانا ومقاطعة شحور ومقاطعة الشعب . واعطيت صور للشيخ قبلان فرفض قبولها بحجة انها بلد خربة لا يوجد فيها الا مصنع للملح (ملاحه) فاعطيت للشيخ عباس . فاستلم عباس صور وبنى فيها داراً للحكومة لم تزل عامرة الى اليوم وموقعها على باب المدينة ، وشاد فيها مسجداً وكنيسة وسوقاً ودوراً كثيرة . واسكن فيها عائلات كثيرة من المسلمين والمسيحيين من سكان جبل عامل وجبل لبنان . وكان يصرف فيها فصل الشتاء ، ويصيف في قلعة مارون الواقعة في ناحية شحور بالقرب من دير دغيا . ولم يمض اربع سنين حتى غدت صور بلدة تجارية ، وكثر فيها الأخذ والعطاء ، وامت اليها السفن الشراعية لافراغ شحنها وابتياع حاصلات البلاد من حبوب وتبغ وقطن وزيوت .

ولما رأى قبلان ، تقدم العمران في صور ندم على تسليمها لابن عمه الشيخ عباس ففاوضه باعطائها له فلم يجب طلبه ووقع الخصام بينهما . فحدثته

وتحنى الرقاب ، وهي سلطة المجتهدين من كبار العلماء . اليهم يرجع القضاء

نفسه بالاستيلاء عليها قسراً . واغتنم فرصة غياب الحاكم عباس وولده حسين عن صور في زيارة للشيخ علي الظاهر (في قرية الجش) فهاجم صور على رأس اربعماية فارس ونهب دورها ومتاجرها حتى حلي نسائها ، وأسر الشيخ حمزه أخا الشيخ عباس وكان صغيراً وسار بهم الى هونين . وطار الخبر الى الشيخ عباس فأسرع بخيله ليقطع عليه الطريق فلحقه في وادي الحجير وقد نزل على عين ماء تسمى عين الطابورة واقعة بين القنطرة والقصير . وقد تقدمته الأسلاب والأسير الى هونين . وفي تلك البقعة تغلب عباس على قبلان فأخذه اسيراً وسجنه في قلعة مارون المار ذكرها وبقي قبلان اسيراً عدة اشهر . وقد طلب اخوته وساطة الشيخ ناصيف لانقاذه من الاسر فرد طلبهم ورماهم بالغدر والخيانة قائلا لهم : لقد هتكتم ستر العشيرة باعتدائكم الشائن . وألحوا عليه كثيراً فأجاب طلبهم وركب في شرذمة من رجاله وسار قاصداً قلعة مارون مقر الشيخ عباس فلقيه بالحفاوة والترحاب . ولكن ناصيف ابى ان ينزل عن ظهر جواده ويقبل ضيافته حتى يجاب طلبه كائناً ما كان . والقاعدة عندهم يومئذ ان يخاطب الزائر المزور وهو راكب على ظهر جواده قائلاً : هل جازت؟ فأن قال له : نعم جازت . وجب عليه ان يقضي حاجته ويجيب طلبه مهما كان عظيماً . وان أبى القول فمعناه انه لا يجيب طلبه فيرجع الطالب من حيث أتى ، لا يأكل زاده ، ولا يشرب قهوته .

وصل ناصيف تواً الى باب القلعة ، وهب الشيخ عباس لاستقباله والاحتفاء به ولكن ناصيف قبل ان ينزل عن جواده قال لعباس فوراً : هل جازت يا ابن العم ؟ فأجاب عباس : نعم جازت على ما تختار وتريد عدا عمنا الشيخ قبلان !! فقال ناصيف : اياه اردت ولسنا بحاجة الى طعامك وشرابك ، ولوى عنان جواده يريد الرجوع وتبعته الخيل . فلحقه عباس وقبض على عنان الجواد وقال : نعم نعم جازت على القلعة ومن فيها حتى قبلان .

ونزل ناصيف جذلاً طرباً ، وضربت الطبول والصنوج واطلق البارود ، ونصب ميدان الجريد ، وجالت الفرسان على الخيل يظهرون براعتهم

وفصل الخلاف بين الناس وكانت قراراتهم حكماً مبرمــاً لا يقبل النقض يوجب على الحاكم الزمني العمل بنصه ولو كان ضد الحاكم نفسه

بانواع الفروسية . وجيء بالشيخ قبلان مكرماً وعقد ناصيف رايــة الصلح بيده ولفظ عليها العبارة المأثورة التي يقولها عاقد الراية وهي :
(يا اهل المعونة من مكة والمدينة ليعلم الحاضر والغائب والغادي والبادي ان الراية عقدت بين فلان وفلان بكفالة الزعيم فلان)

وكان ناصيف حكيماً عاقلاً معروفاً بالشهامة والعدل ورأى ان اعــادة الاموال والعروض المسلوبة وهي كثيرة جداً غير ممكن وتركها لا يتفق مع العدل والانصاف . فأمر بتنظيم دفتر بأثمانها . قوّمت المسلوبات بعد البحث عنها من اصحابها تجار صور . فبلغت اثمانها مائة وتسعين الف غرش ، والغرش في تلك الايام كان على نسبة واحد من عشرة عملة ذهبية او نحو ثمانين غرشاً سورياً في عملة هذه الايام . ووضعوا ثمناً للشــال الطرابلسي بغرشين ونصف ، والتفصيلة القطنية بغرش وربع . وحرروا بقيمة المسلوب سنداً لاربــع سنوات تدفع على اربعة اقساط وكفــل القيمة الشيخ ناصيف نفسه .

انتهى الخلاف وتصافى القوم وذهب كل الى مقر حكومته مشيعاً بالاكرام . ولما وصل الشيخ ناصيف الى البئر الواقع بالقرب من كفردونين في طريقه الى قلعة تبنين نزل للراحة قليلاً واستعرض بفكره ما حدث ، وكان بعيد النظر بصيراً بالعواقب ، فتبين له ان المسألة لم تنته عند حدهــا المعروف لعلمه بما وصف به قبلان من نكث العهود . فأمر ولده عقيلاً بالرجوع الى قلعة مارون ومعه فارسان من حاشيته وقال له : قل لعمك عباس ان والدي امرني ان ابقى رهينة عندك في القلعة حتى يفي قبلان ما عليه من الذمة ، ولا يبقى له وسيلة للانتقاض والتسويف .

فرجــع عقيل الى قلعة مارون وابلغ عباساً رسالة ابيــه فاستشاط غضباً . وقال لعقيل : او حسبني ابوك خالي المروءة حتى يبعثك وانت فلذة كبده رهينة عندي لقاء دريهمات . وامر كاتبه باحضار السندات الاربــع فشقها قطعاً وألقاها في النار . وقال لعقيل : عد لابيك واخبره بمــا

وكانت سيرة اولئك العلماء الابرار في ذاك العهد خير سيرة اتصف بهـــا عالم أحاط باسرار الشريعة الاسلامية المطهرة وانصرف الى التدريس والارشاد وعاش عيش الزهد والقناعة لا يستهويه مال ولا تغريه زخارف الدنيا [1].

رأيت ، وقد سامحت قبـــلان بهذا المال اكراماً له ، وسأعوض على اصحابها من مالي الخاص . ثم اهدى لعقيل جواداً عربياً مسروجاً بسرج محلى بالفضة والذهب .

وعاد عقيل ومعه خادماه ووراءهما الحصان يقوده سائسه فلحق بأبيه عند عين المزراب بالقرب من تبنين فأخبره بمـــا توقع فترنح سروراً وطرباً وانشد متحمساً قول ابي فراس :

انا إذا اشتد الزمان ونـــاب خطب وادلهم
الفيت حول بيوتنـا عدد الشجاعة والكرم
للقا العدى بيض السيوف وللنــدى حمر النعـــم
هـــذا وهـــذا دأبنا يودى دم ويراق دم

(١) في جبل عامل روايات ونوادر تروى عن هؤلاء العلمـاء الاجلاء تطيب لها النفس وتقر بها العين . ومنها يستنتج الباحث احترام الشعب والقادة لهم . واننا نورد منها ثلاث قصص فيها الدليل على عظمة العلماء واحترام الزعماء لهم .

الأولى : ان العلامة المقدس السيد علي نور الدين الموسوي الحسيني جد السادة آل نور الدين الاسرة المقيمة في النبطية الصغيرة امسى ذات ليلة وليس في بيته قوت عياله وأولاده واتت اليه زوجته تخبره بذلك فأجابهـــا الرزق على الله . وبعد هنيهة طرق الباب وكان رسولاً ارسله الشيخ علي الفارس حاكم المقاطعة وكان مقيمـــاً في قلعة الشقيف يحمل كيساً فيه خمسمائة درهم برسم الهدية وتعادل خمسين ليرة ذهباً بعملة هذه الايام . فنادى السيد زوجته وسألها عن حاجة بيتهـا فذكرتها له فأخذ السيد قيمتها من الكيس واعاد مـــا بقي للرسول . وتردد الرسول عن أخذ الكيس خوفاً من غضب الحاكم فأصر عليه السيد وقـــال ان الشيخ لذلك احوج .

وكان الحكام الاقطاعيون بجبل عامل يعنون عناية تامة بأهل اقطاعاتهم وابناء طائفتهم اينما ساروا وحيثما حلوا . وربما اوقع احدهم قصاصاً صارماً او شهر حرباً عواناً انتصاراً لأبناء طائفته وانتقاماً ممن يعتدي عليهم

وسيرى القارىء فيما يأتي ان معركة النبطية ـ كفر رمان التي اثارهـــا اولاً الشيخ علي الفارس وأخوه الشيخ حيدر الفارس من زعمـــاء آل صعب وانتصر فيها الشيعيون انتصاراً تاماً على الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان ووقع فيها الأمير اسيراً وقتل من جنده الوف من الخلق . انمـــا كانت اخذاً بثأر مكاريين من اهل كفر رمان قتلا في قرية نيحا الشوف .

وقد حدثني السيد جهيز وهو شيخ طاعن في السن تجاوز المائة من سنيه عرك وخبر ووقف على كثير من حوادث البلاد وهو من قرية الناقورة قال :

« ان احد الباعة من اهالي جبل عامل ذهب يبيع عنبه في سوق البصة »

والثانية ـ ان الزعيم الكبير الشيخ ناصيف النصار الوائلي الشهير قصد بموكب حافل على عادته قرية (عيناثا) لزيارة العلامة السيد محمد الامين وهو جد السيد محمد الأمين المعروف بمفتي البشارتين ومن السادة آل الامين سكان شقرا ، واليه انتهت رآسة العلماء في ذلك العهد . فلقيه يناول احجاراً وطيناً لبنّاء يبني جدار منزل السيد . فنزل الزعيم عن ظهر جواده وقبّل يد السيد وأخذ يساعده على نقل الأحجار والطين ولم يقبل ان ينوب عنه بعض رجاله . (لم يزل الجدار قائماً للآن في قرية عيناثا بقرب بنت جبيل ويدعى بجدار ناصيف) .

والثالثة ـ وفيها الدليل على تواضع الزعماء امام العلماء . ان العلامة الأكبر شيخ الطائفة الشيخ عبدالله آل نعمة الجبعي والمتوفى في جبع كان اذا زار تبنين نزل دار احد الاهلين فيهرع اليه حمد البك او علي بك حكام ذاك العهد ملتمسين قبول دعوتهما فلا يقبل . ولم يعرف عنه انـــه صعد القلعة او قبل ضيافة حاكم . واذا قفل راجعاً سار الزعيم امامه ماشياً مسافة ميلين او ثلاثة . وكذا كانت سيرة ذلك الشيخ المبرور مع امراء آل الحرفوش والمشايخ الحمادية اذا زار بعلبك والهرمل ونواحيها .

وكانت تابعة الى فلسطين ، وحاكمها الشيخ ظاهر العمر الذي تكلمنا عنه مراراً ، فاختلف بائع العنب مع بعض أهالي البصة . وشتم الفلسطيني مذهب البائع العاملي وعيّره بأنه متوالي . واتصل الأمر بالزعيم العاملي الشيخ ناصيف النصار فركب في يوم السوق التالي ومعه مائة فارس الى البصة فأحاطوا بسوقها من جميع اطرافه ، وامر الشيخ بالقبض على المعتدي ، وحاكمه مع خصمه محاكمة علنية . ولما ثبت اعتداؤه أمر بشنقه في ساحة السوق قصاصاً وعبرة لأمثاله . ثم صرف خيله وسار في حاشية صغيرة الى عكا فقابله الشيخ ظاهر العمر بالحفاوة والترحاب . ولما بسط الشيخ ناصيف قضية البصة وما أجراه ، صوب عمله وأصدر منشوراً عاماً يعلن فيه اتحاد الطائفتين السنة الشيعة وينذر من يخالف بالعقاب الشديد .

الحكومات الاقطاعية الثلاث

لماذا قسمنا الحكم الاقطاعي الى ثلاثة أدوار

كانت البلاد عائشة في أمن وسلام في عهد الدولة المصرية التي سبقت الدولة التركية . ولما دخلت سوريا في عهدة الدولة العثمانية اهملت شأنهـا كما اشرنا مراراً فاشتعلت البلاد بالحروب والفتن ، واسرع اليها الخراب والدمار، وتوالى الهجوم على جبل عامل من جهات شتى .

غير ان الاتحاد العاملي ، وسنتكلم عن خصائصه ، كان متيناً قوياً فلم ينل منه المهاجمون ارباً [1] حتى وقعت موقعة يارون التي انتصر فيهـا الجزار على عسـاكر جبل عامل. وقتل العميد ناصيف سنة ١١٩٥هـ - ١٧٨٠م. فهذه مرحلة عبرنا عنها بالحكومة الاقطاعية الاولى .

ولم يهنأ الأتراك بهذا الحكم المباشر في عهد الجزار ولم تطل مدته وقد ذاق

(١) اذا استثنينا استيلاء آل سودون وهم مصريون كما ذكرنا من قبل ، وقد حكموا البلاد في عهد الدول المصرية، وآل معن وقد حكموها بطريق الالتزام وفي عهد الترك حكماً غير مباشر ، فقد كانت تلك الحكومات الغريبة تلاقي اشد المقاومة تبتدي وتنتهي في فترات قصيرة، فاننا نستطيع القول ان البلاد لم تخضع خضوعاً تاماً لحاكم اجنبي حتى معركة يارون ١١٩٥ هـ ـ ١٧٨٠ م ومقتل ناصيف.

ولما قام بالامر بعده الشيخ فارس الناصيف لم ينم على ضيم فألف العصابات على عمال الترك ونكل بهم ذبحاً وقتلا حتى سنة ١٢١٩ هـ ـ ١٨٠٤م وفيها هلك الجزار وتولى بعده سليم باشا ثم سليمان باشا وفي عهده استعاد الشيعيون حكومتهم وتألفت الحكومة الاقطاعية الثانية . وكانت الفترة بين سقوط الاولى وقيام الثانية ربع قرن .

العاملي وعماله وجنده الامرين من فتك عصابات الشيعة وهجمات ابطالهم . وقد هاجموا مراراً قلعة تبنين وذبحوا حاكمها المنصوب من قبل والي صيدا ونكلوا بجنده حتى لم يجسر احد من اتباع الوالي على قبول منصب حكومي في جبل عامل . وقد اضطر الوالي مراراً الى الاستعانة بكبار العلماء لتهدئة الخواطر وتسكين الثورة .

ولما انقضى امر الجزار وطويت صفحة حياته السوداء وتسلم الايالة سليمان باشا عقد معهم معاهدة وسلم لهم حكم بلادهم في سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م وكان ذلك بدء عهد الحكومة الاقطاعية الثانية ودامت حتى سنة ١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢ م وفيها هاجم الفاتح ابراهيم باشا المصري البلاد واسقط الحكومات الاقطاعية كلها ، وضم جبل عامل الى حكومة الامير بشير الشهابي . فانقضى عهد الحكومة الاقطاعية الثانية [1] .

وأما الثالثة فقد ابتدأت بعد مضي تسع سنوات على سقوط الثانية ففي سنة ١٢٥٧ هـ - ١٨٤١ م وهي السنة التي جلا فيها المصريون عن سوريا وعادت للحظيرة التركية . وتكونت فيها الحكومة الاقطاعية الثالثة وعلى رأسها الشيخ حمد البك ودامت حتى سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م وفيها توفي علي بك الاسعد وزال الحكم الاقطاعي كما اشرنا .

الحكومة الاقطاعية الاولى في بدئها وتطوراتها

لا يعرف الصعوبات التي تعترض الباحث المنقب في تاريخ جبل عامل الا من عني بهذه المواضيع ، ووقع في يديه طائفة من تلك الوريقات المعروفة

---

(١) كان زعماء الشيعة على خصام دائم مع الحكومة المصرية لما نالهم في عصرها من ظلم وارهاق وما ارتكبوا من الاغلاط الفادحة في ادارة البلاد، وقد اشرنا اليها سابقاً . وكان من اعظم اخطائهم في بلاد الشيعيين تسليم ادارة احكامهم للامير بشير الشهابي الذي اطلق العنان اولاده الامير مجيد يعيث في جبل عامل ويرهق اهلها قتلا وأسراً ويلقي علماءهم وزعماءهم في غياهب السجون . فتألبوا كلهم على خصامه عدا الشيخ حسن السلمان من آل عباس احدى بطون آل علي الصغير فقد كان على اتفاق مع الامير بشير الشهابي لصداقة قديمة بينهما ما اغاض اهل عشيرته وغير عشيرته عليه .

بالسفائن الخشبية مفككة الأجزاء ، سقيمة الخط ، مشوهة الترتيب ، تسربت اليها الرطوبة ، وقرضت بعض أوراقها الارضة ، وأكلت اطرافها الجرذان .

وكادت تعترينا السآمة ويدركنا الملل لما لقيناه من بلبلة وتشويش . لولا عهد اخذناه علينـــا ، ورغبة اكيدة تملكت حواسنا ، وواجب نراه فرضاً لازماً في ذمتنا ، وهو بذل اقصى ما في الهمة من جهود لإحياء مآثر السلف من بني قومنا . وقد كاد يعفى اثرها ، ويختفي ذكرها ، وتنسج عليهـا عناكب النسيان .

والغاية الثانية التي نتوخاها هي ايقاظ الخاملين من أبنـاء جبل عامل ، ليسيروا على خطط اجدادهم الذين كانوا اعلى كعباً في تصريف مهمات الامور ، واتزه قصداً ، وابعد نظراً ، وأعز نفساً من ابناء هذه الأيام . وان كان هؤلاء أوفر ثقافة ، وأغزر علماً . فانمـــا العلم والثقافة شيء والمبادىء والاخلاق شيء آخر .

ويعود السبب في تشويش هذه المؤلفات والحالة التي اعترتها لسياسة الضغط والشدة التي اتخذها الترك تجاه العلماء والكتبة والمؤلفين من أبنـــاء الشيعة ، بدافع الحقد والتعصب . فيضطر بعضهم خوفاً وحذراً لاخفاء كتبه واوراقه في زوايا البيوت وبين الواح الصناديق . وربما وقعت تلك الاوراق اذا دهمت البلاد الحروب والفتن في يد من لا يعرف لها قيمة فيمزقها أو يحرقها كما جرى في عهد الجزار . وقد أشرنا لسوء اثره في مكاتب جبل عامل .

فضاعت الحقائق وكثر الالتباس ، وطمس كثير من الحوادث ، وغمضت اخبارها . وندرت المؤلفات التاريخية القيمة في جبل عامل في عهد اولئك الترك الذين جنوا على البلاد العربية جمعاء ، لا سيما اهل الشيعة جناية لا تغتفر ، مع انتشار المدارس الأهلية في ذاك العهد ، وتوفر الثقافة والاحاطة بانواع العلوم بين طبقة العلماء والفقهاء .

وكان المؤلفون اللبنانيون اسعد حظاً من العامليين فقد سلم معظم مؤلفاتهم

من التلف والضياع ، وان كانت حالة الضغط متشابهة من بعض الوجوه . وقد أسعفتهم الاديرة والمعابد الحصينة الكثيرة الزوايا والمخابىء ، يحفظون فيها كتبهم فلا تصل اليها الأيدي . ولكن هذه المؤلفات ، وقد حوت القليل من حوادث جبل عامل ، لم تخلُ من عاطفة التعصب والسير مع الحزبية والاهواء كتضعيف الروايات وتحريفها والتخفيف من خطورتها .

مع أن من أهم واجبات المؤرخ التجرد والاستقصاء ووزن الاقوال والتروي ، حتى اذا حصل الاطمئنان في قضية اصدر حكمه فيها عالماً انه المسؤول عن كل حرف يخطه ، وأخبار يدونها .

وكادت تخفى علينا هذه الحقائق اولا كثرة البحث والتنقيب والرجوع الى بعض المؤلفات الاجنبية ممن لا هوى له في سياسة هذه البلاد وتباين طوائفها.

وبعد . فان الحكومة الاقطاعية الاولى في جبل عامل بدأت من زمن غير معروف . ولا مشاحة انها عرفت منذ تكون الحكم الاقطاعي في سوريا . وأول حاكم اقطاعي ذكره التاريخ ولم نرَ ذكراً لأحد قبله هو الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي الذي كان معاصراً الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . وقد شملت حكومته انحاء القطر العاملي ساحلا وجبلا وسميت البلاد باسمه ، وعرفت بالبشارتين الشمالية والجنوبية يفصل بينهما نهر الليطاني (وقد مر الكلام عنه في الدور الاول) .

ولما انقضى عهده وورث امارته محمد بن دزاع الوائلي . نشأت في البلاد حكومات ثلاث اطلق عليها المؤرخون العامليون اسم حكومة الاتحاد الثلاثي العاملي . ولكل مقاطعة استقلالها والانفراد بادارتها . وقد مرّ الكلام على هذا الاتحاد وخصائصه . وكانت هذه الزعامة الثلاثية المتحدة تختفي حيناً اذا ادركها الضعف ، وتظهر في حين آخر بصورة أقوى وأشد حماساً واكثر تماسكاً ، مضمومة الاقسام ، عزيزة الجانب . والحكم فيها لأهلها فهي كميزان الحرارة بين صعود وهبوط يتبع حالة الجو

وكانت مقسمة الى خطط في حالة استظهار عمال الدولة وضعف الزعامة العامة . فالقسم الجنوبي كان في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة يتبع سنجقية صفد والاردن (اذ كانت عكا خراباً) .

والقسم الشمالي ووادي التيم وبانياس وكلها كانت تابعة لايالة دمشق الشام ، ولم تكن قد تكونت بعد ايالة صيدا [1]. لان ايالة صيدا سلخت عن حكومة

---

(١) ورد في تاريخ صيدا للشيخ عارف الزين صحيفة ٦١ ما ملخصه :

« اجمع المؤرخون بان صيدا بقيت خراباً او قرية حقيرة لا شأن لها ما يقرب من ثلاثة قرون من سنة ٧٢١ هـ - ١٣٢١ م الى سنة ١٠٠٤ هـ - ١٥٩٥ م وفي هذه السنة هبط اليها الامير فخر الدين الثاني فجدد بناءها وبنى الشارع الكبير الممتد من البوابة الفوقا الى البوابة التحتا ، وخانات كثيرة ، وقصوراً فخمة . ولما انتهت حكومة فخر الدين بقتله شنقاً في استنبول سنة ١٠٤٤ هـ - ١٦٣٤م عين حاكماً لصيدا بعد ضم مدينة بيروت لها احمد باشا الشمالي سنة ١٠٤٤ هـ . ثم اسماعيل آغا سنة ١٠٦٦ هـ . ثم محمد باشا ارناؤوط وغيره وكلهم كانوا يرجعون في احكامهم لايالة الشام » .

وقد انتزعها ظاهر العمر بعد معركة الحارة التي فاز فيها وحلفاؤه المتاولة على عساكر الدولة سنة ١١٨٦ هـ - ١٧٧٢ م وضمها لحكومته واقره عليها عثمان باشا المصري والي الشام سنة ١١٨٧ هـ ١٧٧٣ م وضم اليه حكومة لبنان واشعر بذلك الامير يوسف الشهابي فامتعض ولم يسعه إلا الطاعة. ولما استفحل امر الظاهر قدم حسن باشا غازي بالاسطول العثماني على رأس حملة لتأديب الظاهر وانتهت بقتله عن يد احد اتباعه في سنة ١١٩٠ هـ - ١٧٧٦م . وتشكلت الايالة رسمياً من صيدا وعكا وما يتبعها من البلدان منفصلة عن الشام (راجع الباب العالي تحت اسم ايالة صيدا) عين حاكماً لها محمد باشا ثم احمد باشا الجزار .

لقد ذكر الامير حيدر خطأ في تاريخه وتابعه على هذا الخطأ صاحب تاريخ صيدا ، من ان محمد بك ابو الذهب هو الذي قضى على سلطة ظاهر العمر في سنة ١١٩٠ . ووجه الخطأ أن ظاهر العمر قتل في سنة ١١٩٠ هـ ومحمد بك ابو الذهب مات في عكا سنة ١١٨٨ هـ ولم يظفر بظاهر العمر الذي

عكا وصفد وجبل عامل في سنة ١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م بأمر حسن باشا الغازي الذي كان يحمل لقب والي عربستان وانتدبته الاستانة لتأديب ظاهر العمر والقضاء على امارته .

قرّ واختبأ في جبل الريحان كما رأيته في بعض مخطوطات جبل عامل. والذي قضى عليه هو حسن باشا غازي المتقدم ذكره في سنة ١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م (راجع جودت باشا وغيره) .

وكانت حدود ايالة صيدا تبتدىء شمالاً من جسر المعاملتين وتضم الشوف وجنوبي لبنان كله . وبقيت ايالة صيدا الى سنة ١٨٣٢ م حيث سقطت سوريا كلها بيد الفاتح ابراهيم باشا المصري وقسمت البلاد الى متسلميات مرجعها الحاكم شريف باشا المصري والي الشام . ولما اعيدت للحكومة العثمانية في سنة ١٨٤١ م بقيت التشكيلات الادارية كما وضعها المصريون ثم جعلت متصرفية من ذاك العهد حتى سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٤ م حيث جعلت قائمقامية وعين لها نجيب افندي . وبقيت كذلك حتى زوال الحكم العثماني ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨م .

مميزات الحكم الاقطاعي في جبل عامل

يذمّ كثير من الناس نظام الحكم الاقطاعي ، ويعددون مساوئه . ويعتبرون انه كان شر انواع الحكم ، اصاب البلاد في عهده كثير من الاذى والاضرار .

وهذا الحكم الذي اصدره الناس على الاحكام الاقطاعية فيه كثير من القساوة وقلة التدقيق والاستقراء . ومن تتبع الحوادث التي جرت في جبل عامل في عهد الاقطاعات ، ودرس اعمال الحكام ، وتعمق في البحث ، يرى ان الحال كانت تختلف عن غيرها من البلدان .

كان العامليون يعيشون في عهد حكمهم الاقطاعي حتى في زمن الحروب والاهوال في عز ومنعة لا ضرائب ترهقهم ولا حكام قساة تظلمهم وتنهب أموالهم وتضيق انفاسهم وتستحل اضرارهم . وكانوا بعد هدوء الاحوال واستقرارها ينصرفون الى استثمار ارضهم واستغلالها كيفما شاءوا وارادوا لا اعشار ولا رسوم ولا احتكار .

وكان حكامهم بهم ارفق ، وعليهم احنّ واشفق . وكان الشيعي اذا سار الى غير بلده يسير معتزاً بقوميته ، لا يجرؤ احد على تحديه او احتقاره .

وكان الوفاق بين الزعماء عاماً ، والاتحاد محكماً . وكل زعيم حر في مقاطعته يتصرف بشؤونها ، ويحمي حدودها ، ويحفظ كيانها . لا سلطة فوق سلطته ، ولا رقيب على اعماله سوى سلطة العلماء .

وكانت سلطة الدولة اسمية ، والرسوم التي تتقاضاها مقطوعة . لا يحق

لها التدخل في أمور البلاد الداخلية ، ولا يفرض عليهم طاعة الحاكم وكانت الويتهم لها ميزة خاصة خضراء وحمراء مرسوم عليهـــا « نصر من الله وفتح قريب »

أما مقدار الرسوم المقطوعة فهو ستون الف غرش على المقاطعات الثمانية : مقاطعة الشقيف ، والشومر ، والتفـــاح في الشمال . وجبل هونين ، وجبل تبنين ، وساحل معركة ، وساحل قانا، وساحل صور في الجنوب يؤدونها اذا راق لهم ويرفضون دفعها اذا شاءوا تبعاً للظروف وحال الدولة من حيث القوة والضعف .

اما نظام الدفاع عن البلاد ومكافحة المعتدي الدخيل ورد الغـارات فقد كان على درجة من الرقي تدهش الباحثين . وكانوا اذا هاجمهم العدو ، أوأراد بهم حاكم اجنبي شراً ، هبّت المقاطعات كلهـــا هبة رجل واحد ، واتحدت كلمتهم على صـــدّ المعتدي بقوة السلاح ؛ لا فرق بين كبير وصغير ، وغني وفقير . وفي مثل هذه الحال من المساواة والاخـــاء كانوا من ارقى الشعوب الديمقراطية .

اما القضاة العلماء فقد كانوا على نزاهة ما فوقهـــا نزاهة . وسلطتهم هي السلطة العليا التي تحنى لها الرقاب ، وتتطأطأ لهـــا الرؤوس . ولم يكن يجسر زعيم قط ، مهما عظم شأنه وكبر مقـــامه وتوفر ماله وجنده ، على مناوأة العالم او رد حكمه الذي لم يكن سلاحه وجنده الا تقوى الله والزهد والنزاهة والبعد عن زخارف الدنيا .

انقلاب الحال بعد زوال الحكم الاقطاعي

سقطت الحكومة الاقطاعية الاولى في عصر الجزار الذي حكم البلاد بأشد انواع القساوة من سنة ١١٩٥هـ الى سنة ١٢١٩هـ . واستردها فارس الناصيف بعد اتفاقه مع سليمان باشا وبعده مع عبدالله باشا فانتعشت البلاد نوعـاً . ثم دهمتها جيوش الفاتح المصري فأسقطت الحكومة الاقطاعيـة الثانية في سنة

١٨٣٢ م والحقتها بجبل لبنان. ودامت الحروب والثورات تعج في جبل عامل عشر سنين الى ان تم جلاء المصريين وحكم البلاد حمد البك في الجنوب ، وآل صعب ومنكر في الشمال ، الى سنة ١٨٦٣ م . فسقطتْ الحكومة الاقطاعية الثالثة ، وزال نظامها من البلاد ، وحكمها الاتراك حكماً مباشراً الى سنة ١٩١٨ م بالظلم والجور والضغط . الى ان كادت تلفظ انفاسها الاخيرة لولا ان تقلص ظل الترك .

كان من نتيجة حكم الترك الفقر والخراب وكذا الغش والتزلف والنفاق والوشايات . فساءت الاخلاق وفسدت النفوس وتنافرت القلوب . والحكم القاسي مورث الافتقار ويرافقه الذل والصغار . ولم تزل آثار هذه الاخلاق تفتك فتكاً ذريعاً في ادبيات البلاد ومعنوياتها .

وانقرض ابناء ذاك الجيل ، جيل العز والمنعة والاباء . وخلفهم جيل اتخذ التزلّف والخداع والاثرة ديدناً له . فكان اسوأ خلف لخير سلف .

نعم الجدود ولكن بئس ما ولدوا ....

لا ريب ان القارىء الكريم تعتريه الدهشة والذهول عندما يقرأ هذه الحوادث التي غفل عن تنسيقها واذاعتها مؤرخو جبل عامل . وأغفلها أو حرّفها الاغيار والمؤرخون المتعصبون .

وان القلب ليحزن والعين لتدمع على المصير المحزن ، والعاقبة الوبيلة التي وصلت اليها الطائفة بعد ذاك العزّ والمنعة والمقام الرفيع .

وكيف تبدلت الحال غير الحال والارض غير الارض . ويزداد حزنه عندما يرى احفاد اولئك الابطال الجبابرة الذين كانوا يفترشون صهوات الخيول ، ويلتحفون السماء ، يكرّ احدهم على الف مقاتل ويُلقي نفسه في لهوات المنايا – كما قال الامير حيدر الشهابي في تاريخه عن الشيخ ابي حمد وانه كان يعد بألف فارس – وجرأة الشيخ علي الفارس ومهاجمته لاربعين الف مقاتل – كما ذكر ادوار لكروا .

وكيف اصبحت الحال وتغيرت. فقنع احفادهم بحالتهم الحاضرة ، ينعمون برخاء العيش فلا يمدون لاصلاح بلدانهم يداً ، ولا يعيرونها التفاتاً . شغلتهم المنازعات والهتهم التفرقة ، لا شأن لهم إلا التزلّف الى الحكام ، وتعفير الجباه على مواطىء اقدامهم .

ولا يسع المنصف إلا ان يرسل دمعة سخية على المصير المحزن الذي وصلت اليه هذه البلاد ، منبت الابطال، ومهبط العبقرية . وكيف هوت للحضيض، وتدهورت في مهاوي الانحطاط .

حكومة آل معن

الخلاف بين المعنيين والامير يونس الحرفوشي

قلنا ان الأسر التي حكمت جبل عـامل من غير اهله حكماً موقتاً في عهد الأتراك العثمانين هم آل معن [1] وآل شهاب [2] الا ان آل شهـاب لم يكن

---

(١) آل معن بطن من ربيعة نزحوا من نجد وديار ربيعة الى جزيرة الفرات وفيهـا دعوا بالعرب الايوبيين نسبة الى جدهم ايوب وفيها مات . فخلفه ولده معن بن ايوب وهو اول من قدم الديار الشامية بعشيرته سنة٥٢٩هـ ١١٣٤ م في عهد الخليفة المسترشد بالله العباسي . وفي سنة ٥٣١ هـ — ١١٣٦ م امره طغتكين صاحب الشام ان يتقدم الى لبنان لغزوالأفرنج في السـاحل . فرحل الى الشوف وضرب خيامه في مرج بعقلين واتحـد مع الامير بحتر التنوخي امير عرب لبنـــان . ومعن هو الجد الجامع للأمراء المعنيين واليه يرتقي نسبهم وبه عرف الجبل (لبنان) فيقال له: جبل آل معن .

وقد حكم لبنان في عهد الترك العثمانيين ستة من آل معن وكانت بعقلين مقر حكومتهم الأولى . اولهم فخر الدين الأول وآخرهم الامير احمـد بن ملحم . ومدة حكمهم ماية وثمانون سنة . من سنة ٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م الى سنة ١١٠٩هـ -- ١٦٩٧م وأشهرهم فخر الدين الثاني بن الامير قرقماز تولى حكومة لبنان من سنة ١٠٠٦ هـ — ١٥٩٧ م الى سنة ١٠٤٣ هـ — ١٦٣٣م وهو الذي جدد ابنية بيروت وصيدا وكانتـــا اشبه بقريتين

لهم حكم ثابت طويل الأجل في بلاد الشيعة . فقد كانت مهمتهم معاونة الترك على الشيعيين اذا عصى هؤلاء وتمردوا على الولاة وأبوا دفع الضرائب .

صغيرتين . فشاد فيها الدور والقصور والخانات والابراج ، ورمم القلاع وبلغ عدد جيشه اربعين الف مقاتل من السقبان والمغاربــة والدروز وغيرهم من اهل البلاد . ودخل امارته تسعمائة الف ليرة يؤدي منهـا الى خزانة الدولة ثلاثمائة وأربعين ألف ليرة .

وكان طموحاً عظيم الهمة ، بعيد النظر ، تنزع نفسه الاستقلال التام والتخلص من نير الاتراك. وقد عقد ميثاقاً في سنة ١٦٠٨م ١٦٠٩م مع الدوق فرديناند والدوق قوزمـا من اسرة المديشيش اصحاب توسكانا في ايطاليا . ولم تكن تلك المواثيق تجارية محضة بل كانت مشتملة على الدفاع والهجوم.

وادرك الحافظ احمد باشا والي الشام مقاصده وما فيها من الخطر على الدولة فاشتبك معه في حرب لم يكن الامير فيها موفقاً . ففارق البـلاد فاراً الى توسكانا في ١٥ ايلول ١٠٢٣ هـ – ١٦١٤ م . وعاد بعد غياب خمس سنوات وقد عُزل احمد باشا عن الشام وتولاها محمود باشا . ونقل مقره الى دير القمر . وما زال يعظم قدره في الاستانة حتى منحه السلطان لقب سلطان البر مع الاشراف على سائر الاقطار السورية .

واخذ بعد العدة وبتهيأ للاستقلال . فثار في وجهه رؤساء الحزب اليمني من آل علم الدين التنوخي (وبنو معن قيسيون) وانجدهم الباب العالي بجيش على رأسه كوجـك احمد باشا والي الشام وارسلت الدولة عليه حملة على ظهر الاسطول العثماني بقيادة جعفر باشا . ودارت المعركة في وادي التيم في سنة ١٠٤٣ هـ - ١٦٣٣ م انتصر فيها الترك وقتل ولده الامير علي وجرح اخوه الامير يونس الذي مات متأثراً من جراحه ، وكان القائد العام للجيش. وفر الامير الى الجبل فاختبأ في مغارة شقيف طيرون ثم في مغارة جزين .

واخيراً سلم نفسه الى الوزير المنتصر فسار به وباولاده الاربعة الى الاستانة ، وهم :الامير منصور ، والامير حيدر ، والامير بلك ، والامير حسن. فأمر السلطان بابقائه في العاصمة ولم تسكن الفتن في لبنان بعد القبض

ولا بد من القول ، وان نكرر اكثر من مرة ، ان سلطة ولاة الاتراك في معظم العهد الاقطاعي في جبل عامل كانت اسمية لا تتعدى استيفاء الأموال الأميرية على العمالة لخزانة الدولة والاكراميات والهدايا لجيوبهم . واكثر ما تكون بطريق الالتزام ومن رمى عليه المزاد سواء كان من اهل البلاد أو من

على الامير فخر الدين فأمر السلطان مراد الرابع بقتلهم جميعاً وقيل استبقى الرابع الامير حسن لصغر سنه في سنة ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٥ م.

وخلفه في امارة لبنان ابن اخيه الامير ملحم ، ثم الاميران قرقماز واحمد. وتوفي الاول سنة ١٦٦٥م وانفرد الامير احمد بالامارة حتى وافاه الاجل سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩٧ م عن غير عقب فانتهت به سلالتهم وانقرضت حكومة المعنيين .

(٢) آل شهاب عرب قرشيون يتصل نسبهم ببني مخزوم ، بطن من قريش، قدموا الشام في سنة ١٢ هـ - ٦٣٣ م مع جيش ابي عبيدة بن الجراح في اول الفتح الاسلامي وتوطنوا بلدة شهبا في حوران .

وفي سنة ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م هاجروا من حوران الى وادي التيم واميرهم يومئذ الامير منقذ بن الامير عمر . ونازلوا الصليبيين وانتصروا عليهم وطردوهم من بلاد حاصبيا . ولُقِّب جدهم مالك بشهاب لان امه من رهط آمنة ام النبي صل الله عليه وآله وسلم .

وفي سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩٧ م توفي الامير احمد المعني بلا عقب وخلت امارة لبنان . فاجتمع اعيان الجبل في مرج السمقانية بين الختارة ودير القمر واختاروا الامير بشير الشهابي الاول احد امراء وادي التيم اميراً على لبنان. وهو ابن اخت الامير أحمد المعني. غير ان الباب العالي اسند الامارة الى الامير حيدر الشهابي حفيد الامير احمد المعني وكان في سن الثانية عشرة فاقيم الامير بشير الاول وصياً عليه .

وبنى احدهم الامير نجم قصراً منيفاً في قمة جبل حرمون يصرف فيه فصل الصيف . يدعوه العامة خطأ قصر شبيب وفيه يقول الامير نفسه .

غيرهم فوضوا اليه أحكامها يتصرف فيها كما يشاء ويريد . غير ان اهل البلاد لم يكونوا يوماً خاضعين لمن يلتزم بلادهم او يحكمها بالقوة . فكانوا يقاومونه ويثورون عليه حتى يعيدوا حقهم . والباحث في تاريخ تلك العصور لا يرى سبباً معقولاً للخلاف وقع بين الولاة وأهل الاقطاعات الا لأجل المال .

وأول من تقدم من آل معن لالتزام اقطاعات جبل عامل من والي الشام مصطفى باشا هو الامير فخر الدين الثاني التزم سنجقية صفد (وكان جبل عامل داخلاً في ضمنه) سنة ١٠١٧ هـ — ١٦٠٨ م . ولم يلبث ان نازعه الامير يونس الحرفوش فالتزم السنجق بخمسة عشر الف غرش ذهب .

ومنزل فوق متن الشيخ بت به معانق البسط واللذات والطرب
اهدى لنا من صبا نجد معطرة ومنظراً من بلاد العجم والعرب

وقد حكم لبنان من آل شهاب ثمانية امراء اولهم الامير حيدر المار ذكره وآخرهم الامير بشير الثالث المعروف بأبي طحين الذي عزل في سنة ١٨٤٠ م وقتل في حادثة سنة ١٨٦٠ م . وعين بدلاً منه عمر باشا النمساوي . ومدة حكومتهم مائة وثلاثة واربعون سنة من سنة ١١٠٩ هـ — ١٦٩٧ م الى سنة ١٢٥٦ هـ — ١٨٤٠ م .

واشهرهم الامير بشير الثاني بن الامير قاسم عمر المعروف بالمالطي . تولى حكومة لبنان بعد الامير يوسف من سنة ١٢٠٣ هـ — ١٧٨٨ م الى سنة ١٢٥٦ هـ — ١٨٤٠ م وسقطت حكومته بعد جلاء المصريين ونفي الى مالطه ولذلك دعي بالمالطي . ونقل الى بروسه ، ثم الى الاستانة ، واقام في زعفران بول ، وتوفي في سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥٠ م وعمره ٨٣ سنة .

وقد دان الامراء الشهابيون الذين توطنوا لبنان بالنصرانية على مذهب الموارنة لاكتساب موالاة هذه الطائفة لانها اوفر الطوائف عدداً . واول من تنصر منهم الامير حيدر بن الامير ملحم في سنة ١١٤٦ هـ ١٧٣٣ م وتبعهم الامراء اللمعيون تاركين مذهبهم الدرزي .

واشتد الخلاف بين المعنيين وآل حرفوش مع مـــا بينهما من الألفة والمصاهرة [1].

واشتد حنق الامير فخر الدين على الامير يونس الحرفوش فكتب الى دمشق يطلب التزام اقطاعات آل حرفوش بزيادة اربعين الف غرش ذهب ، فرد الوالي طلبه. فكتب الى الاستانة . وراجع مدبره فيها الباب العالي فاعطى له فرماناً بسنجقية صفد وعجلون ونابلس .

وامتعض الوالي مصطفى باشا فجرد عليه حملة انضم اليها آل حرفوش . وانتصر عليهم المعني فالتجأوا الى قلعة حصن الاكراد وكانت تابعة للحرافشة فتحصنوا فيها ثم تصالحا على مال دفع المعني مقداره اربعون الف غرش .

وفي سنة ١٠٣٣ هـ - ١٦٢٣ م قدم الصدر الاعظم خليل باشا الى حلب

---

(١) كانت الاميرة فاخرة كريمة الامير فخر الدين الثاني زوجة للامير احمد بن الامير يونس الحرفوش عقد له عليهـا في سنة ١٠٢٧ هـ - ١٦١٧ م وسكن هذا الامير مشغرة وبنى فيهـا داراً عظيمة . وكانت الزيارات متبادلة بينه وبين مشايخ جبل عـامل . نطلب الامير فخر الدين من الامير يونس ان يمنع ولده من سكنى مشغره فتركها. وتوفي هذا الامير فعقد لاخيه الامير حسين على الاميرة فاخرة ارملة اخيه بأذن ابيهـــا ودفع له مهرها ثمانية آلاف غرش (كذا) .

وردت هذه الرواية في تاريخ بعلبك لميخائيـــل الوف طبع بيروت سنة ١٩٠٤ م والاعيان للشدياق صحيفة ٣٩٥ . وكان الامير يونس الحرفوش يعطف عطفاً شديداً على ابنـــاء طائفته في جبل عامل . ويفتح دوره وقصوره لايوائهم وحمايتهم عندما تدور عليهم الدوائر ، وتلجؤهم القوة الغاشمة لهجر ديارهم . وطالمـا دفع عنهم الغوائل ، وصرف في سبيلهم الأموال وفاء ومروءة كما جرى له مع الحاج ناصر الدين منكر الذي اعتقله الامير المعني لاموال متأخرة عليه فسعى الامير يونس الحرفوش باطلاق سراحه وكفل ما يطلب منه من الاموال .

وكان الامير فخر الدين لم يزل حانقاً على الامير يونس فوشى به للوزير واستماله بالمال فقتله غدراً .

ودامت سلطة آل معن في جبل عامل بعد مقتل فخر الدين مدة حكومة ارسلان باشا الذي تولى ولاية صيدا في سنة ١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م . ولم يخضع الشيعيون خضوعاً تاماً لآل معن بالرغم من مناصرة ولاة الدولة لهم . وقد تألبوا معاً على اخضاع الشيعيين فاشتبكوا معهم في عدة معارك كانت الحرب بينهما سجالا . وقد تقدمت الاشارة اليها في فصول سابقة .

وكان الشيعيون في جبل عامل اذا اشتد الضغط عليهم ، وتعذر عليهم التملص من اخصامهم ، وغُلبوا على امرهم بوفرة الجند وقلة الانصار ، يلجأون الى حرب العصابات ، والحيل الحربية ، ومفاجأة العدو في سواد الليل .

وقد بدأوا بها من عهد فخر الدين الثاني فشمل الدمار البلاد وعمّ انحاءها الخراب حتى لم يبق مزرعة او قرية صغيرة إلا وهجرها اهلها وسكنوا القرى الكبيرة الآهلة . وهذا هو السبب لمـــا نراه من كثرة الخرائب والمزارع التي كانت عامرة منتشرة بين الدوالي والهضاب .

حتى اذا دار الزمان دورته التي يدير بها مقدرات الشعوب . وظهر الوهن في حكومة المعنيين . نهض زعماء العشائر من بني عاملة ، واجتمعت كلمتهم ، وعزموا على تجديد شباب الطائفة واسترجاع حقها السليب فنظموا صفوفهم ، وثاروا في سنة ١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م ثورة رجلٍ واحد وطردوا عمال ارسلان باشا وفتكوا فيهم . فارسل الوالي حملة عليهم مستعيناً بجنود آل معن . فنازلوهم في النبطية ووادي الكفور وكان الفوز للشيعيين وفر اعداؤهم فلحقوا بهم الى عين المزراب ودامت المناوشات والمعارك نحو ثلاثين سنة حتى سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩٧ م وفيها توفي الامير احمد المعني وانقرضت به سلالة المعنيين وزالت دولتهم . وانتقلت الامارة الى الشهابيين . وفيها نهض الزعيم الوائلي الشيخ مشرف فقاد الصفوف ورفع راية الاستقلال فساق الوالي على مشرف

جيشاً كثيفاً ، وانجده الامير بشير الشهابي الاول الذي سبق الكلام عنه . وشاء نكد الطالع ان يقع الشيخ مشرف أسيراً ، وسير به الى قلعة صيدا فمات فيها في سنة ١١١٤ هـ في رواية مؤرخي جبل عامل .

ولكن الأمير حيدر في تاريخه يقول : اطلق سبيل مشرف ولم يفت ذلك في عضد الشيعيين فجمعت كلمتهم وثارت حميتهم ودامت الحروب بينهم وبين رجال الدولة سنين لم تنقطع الا في فترات قصيرة .

وقد فازوا فوزاً تاماً في سنة ١١١٧ - ١٧٠٥ وفيها تولى حكومة صيدا بشير باشا . ورأى حالة الشيعيين تزداد قوة فهادنهم ورفع سلطة اللبنانيين عنهم وسلخ بلادهم عن سنجقية صفد وولاهم حكومة بلادهم .

خمدت نار الحروب ، وسكنت الفتن ، واستراح العامليون من جور الولاة والحكام وخوض المعامع مدة طويلة . وكانت الزعامة العامة في آل علي الصغير تنتقل بعد وفاة مشرف من زعيم الى زعيم حتى انتهت للشيخ ناصيف بن نصار الاحمد . وخلال هذه المدة وقعت حروب ومناوشات كثيرة مر الكلام عنها.

أما الشيخ ناصيف فلقد سبق وقلنا عنه انه كان اشهر زعيم قام في جبل عامل بل في الديار العربية جمعاء . وسيرد عليك من آثار بسالته وبعد نظره ما يثبت هذا القول

بدأ عهد هذا الزعيم بحرب ضروس بينه وبين الشيخ ظاهر العمر . وانتهى بمعاهدة بينهما لو ساعدها القدر لكانت الحجر الأول في أساس نهضة سورية عامة ، ولتبدلت اوضاع البلاد وتغير تاريخها . غير ان الاقدار شاءت ان تحبط الخطط المحكة التي رسمها الشيخان العظيمان ظاهر العمر وناصيف النصار فذهبت الآمال ضياعاً .

الشيخ ظاهر العمر ومحالفته لزعماء جبل عامل

وقبل الخوض في الحروب التي ثارت بين الشيخ ظاهر العمر وزعماء جبل عامل لا بد لنا من كلمة وجيزة نقدمها بين يدي القاريء اللبيب في تاريخ حياة

ظاهر العمر والدور الذي لعبه في تاريخ سوريا الحديث .

هو رجل عصامي وبطل من ابطال الشرق ، عظيم الهمة ، شديد البأس ، واسع الحيلة ، حكيم التدبير . وهو علوي النسب من سلالة زيد بن الامام الثاني الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام « كما يقول ميخائيل نقولا الصباغ مؤلف تاريخه بتعليق الخوري قسطنطين الباشا المخلصي » .

وقال « فولني » في حقه : « انه مضى زمن طويل على سوريا لم ترَ رجلا مثله وكانت اطماعه فوق قدرته . وكانت العدالة ضاربة اطنابها في بلاده ولا فرق عنده في شمولها اهل المذاهب المختلفة . »

هاجرت عشيرته من المدينة المنورة الى بادية حماة ، فنزلت في بني اسد . وفي هجرتها الثانية حلت فلسطين واتحدت مع عرب بني صقر .

ولد سنة ١٦٨٦ م وقتل في سنة ١٧٧٦ م في التسعين من عمره . وقد تولى حكومة صفد وطبريا وما يليها بعد ابيه الشيخ عمر بن ابي زيدان في سنة ١٧٠٦ . وكانت عكا من ملحقات صفد ولم تكن ذات منعة بل كانت اشبه بقرية حقيرة لا يسكنها الا القليل من الناس ، وجوارها بادية قفراء تسرح فيها قبائل البدو ، ومياهها تذهب ضياعاً من حولها فتفسد هواءها، ومیناؤها معطلة بتراكم التراب .

استولى عليها ظاهر سنة ١١٥٤ هـ - ١٧٤١ م واتخذها مقراً لحكومته . وفي سنة ١١٦٣ هـ - ١٧٤٩ م بنى ابراجها وشيد حصونها المنيعة وملأها بالمدافع والذخائر وعززها بالسلاح واحاطها بسور متين ولم يترك لها إلا بابين. وازدحم الناس من انحاء سوريا وقبرص مهاجرين اليها وفيهم المسلم والمسيحي وكان يرعاهم بعنايته ويهتم بشؤونهم ، ويتساهل بامور عقائدهم ، مما لم يكن مألوفاً في ذاك العصر .

وصاهر كبار رؤساء القبائل العربية المخيّمة في سوريا الجنوبية ، فاشتد ازره بهم ، وسعى في سنة ١٧٦٨ م فمنحته الدولة العثمانية لقب شيخ عكا

وامير الامراء وحاكم الناصرة وطبريا وصفد وسائر الجليل . وفي سنة ١١٨٨ هـ - ١٧٧٤ م ورد الفرمان السلطاني باحالة ولاية صيدا لعهدته .

وكانت له صلات مع علي بك الكبير حاكم مصر وكان هذا على وفاق مع امبراطورة روسيا كاترينا الثانية وقيصر النمسا وجرمانيا . وكاد يؤلف دولة صغيرة على ضفاف البحر المتوسط لولا معاكسة الاقدار وفساد بطانته وضعف عقلية ابنائه وانتقاضهم عليه ممـا كان سببا لزوال تلك الامارة الفتية وضياع مجدها .

راع الدولة تعاظم نفوذ ظاهر العمر واوجست منه خيفة فتربصت به الغوائل . وكانت تقارير الجزار ، وسيأتي الكلام عنه ، تتوالى بحقه الى الاستانة بالوشاية والاغراء به . فجردت الدولة حملة عليه سنة ١١٩٠ م - ١٧٧٦ م بقيادة الوزير حسن باشا الجزائري فوافى سوريا على ظهر الاسطول العثماني والقى مراسيه في ميناء صيدا . وانفض من حول ظاهر قواده وجنده وانتهى امره بان اطلق عليه الرصاص مغربي من جماعة و الدنكزلي ، فخر قتيلا وفر اولاده ملتجئين الى الشيخ ناصيف النصار في جبل عامل ، وهم عثمان وسعيد واحمد وصالح . وأما ولده علي فكان معتصما بدير ماريوحنا ثم استسلم بعضهم الوزير حسن باشا ، فقتل احدهم لفلتة ظهرت من لسانه ، وذهب بالباقي الى استانبول . وفقد علي ولديه الحسن والحسين وقتل غيلة في نابلس . وتبعثرت الاسرة بكرور الايام وتقلبات الدهور واختفى عليها الذي اخنى على لبد حتى اضطرت احدى مخدرات هذا البيت الى التسول كما ذكره الامير حيدر في تاريخه .

ظاهر العمر في جبل عامل

لمـا أخضع ظاهر العمر البلاد التي تقدم الكلام عليها ودانت له سوريا الجنوبية حول وجهه الى جبل عامل يريد أن يخضعه لسلطته . غير ان جبل عامل في ذاك الوقت كان امنع من عقاب الجو . وبجمل القول في تاريخه السياسي

أوانئذ ان الشيعة في جبل عامل، وكانوا من قبل حتى سنة ١٠٢١هـ، يعيشون في جبالهم مستقلين ، كما صرح بذلك جودت باشا في تاريخه . ولما التزم بلادهم فخر الدين المعني ، وتعهد الدولة بتأدية أموالها الاميرية ، وارهقهم عمال المعنيين جوراً واستبداد ، وانزلوا بالبلاد انواع البلاء ، نهضوا في سنة ١٠٧٧ هـ لما ضعفت حكومة المعنيين في زمن الامير احمد ، فطردوا عماله واسترجعوا استقلالهم . ودارت رحى الحرب بينهم وبين المعنيين والشهابيين من بعدهم بقصد اخضاعهم بالقوة . وكانت الحرب بينهما سجالا ، ولم يظفر المهاجمون بطائل لان الشيعة استبسلوا في الدفاع عن حوزتهم ، واستماتوا في الذود عن حياضهم ، وبلغوا شأواً رفيعاً في شدة البأس والنجدة والحماس القومي .

كانت الطائفية والفوارق المذهبية في ذاك العصر من اكبر الدواعي لأثارة الفتن واشتعال نار الحروب الأهلية .ونال الشيعة منها قسطاًوافراً لوقوع بلادهم في محيط يختلف عنهم عقيدة ومذهباً . فأصبحوا بحكم الطبيعة مضطرين لحفظ كيانهم ، ورد الطوارىء عنهم . وساعدهم وعورة البلاد ووضعها الجغرافي فنشأوا نشأة حربية رجالاً أشداء وابطالا مجرّبين لا همّ لهم الا شحذالسيوف وتوفير الذخائر الحربية وتمرين ابنائهم منذ الصغر على الحرب والجلاد .

تحرش ظاهر العمر بناصيف النصار [1] عميد عشائر جبل عامل، وناهيك بناصيف بطلاً مغواراً وقائداً محنكاً . جمع الى الشجاعة والنخوة ، سخاء الكف وحسن التدبير والغيرة القومية والمروءة المحضة .

---

(١) كان الشيخان ظاهر ، وناصيف صديقين حميمين وحليفين قويين انجد الثاني الاول في حربه مع بني صقر والحوارث عرب مرج بني عامر بعدما هزموه في سخنين من اعمال طبريا فاستظهر عليهم ناصيف وهزمهم بنفاهم الى خارج فلسطين . وانجده ايضاًيوم دانون وكان النصر حليفه . وانجد ظاهر الشيعة يوم هجوم الامير ملحم الشهابي على جبل عامل في سنة ١١٦٣ هـ ، ويوم مرجعيون على الدروز والاميرين الشهابيين نجم والسيد احمد . وكان النصر للشيعة وحليفهم ظاهر (الاعيان مجلد سادس صفحة ١٢٤) والى ذلك اشار الشيخ عبد الحليم النابلسي والشيخ ابرهيم الحاريصي .

اتخذ ناصيف قلعة تبنين مقراً لحكومته وكانت عامرة بابراجهـا الشامخة وحصونها المنيعة وفي سنة ١١٦٣ هـ - ١٧٥٠ م جدد بناء الحصون ، في انحاء البلاد وشحنها بالمقاتلة والسلاح واوعز لزعماء والحكام بالانتقال اليها واتخاذها مراكز حكومية . وبسط العدل وأمّن السبل فدوى اسمه في الآفاق وكانت له هيبة تحنى له الرقاب .

تحرش ظاهر بالعميد الوائلي وكتب اليه ان يتخلى عن قريتي البصة ومارون بدعوى انهما تابعتان لفلسطين . وادرك العميد الغاية فردّ رسوله رداً عنيفاً وقال له : قل لمولاك يتحرش بغيرنا فليس له عندنا الا السيف والنار ,واصدر امره حالا بالتأهب للحرب وذهب السوّات يجوب انحاء البلاد لنفير العام ، وبلغ ظاهر العمر جوابه ، فطرد عمال ناصيف من القريتين ، ونهض لاكتساح بلاد عاملة . فصدته خيول ناصيف عند الحدود ونشبت بينهما حرب ضروس وانتصر ناصيف في عدة معارك اخصها معركة (دولاب وطربيخا) وفي هذه الاخيرة اكره ظاهر على التراجع فانقض عليه ناصيف ومكن الرمح من صدره ثم عفى عنه واكتفى بسلبه فرسه المعروفة (بالبريصة) تصغير « برصة » التي قال فيها ناصيف كلمته المشهورة بعد ان استرد البصة واعاد البريصة لظاهر : لا بأس ان اعدنا البريصة بعد ان عادت البسيسة . « تصغير بصة » ولشعراء جبل عامل في وصف انتصارات ناصيف قصائد جمة نذكر منها قصيدة الشيخ ابراهيم الحاريصي من شعراء ذلك العصر وقد ارسلها للشاعر الفلسطيني الشيخ عبد الحليم النابلسي ، وكانت بينهما مفاخرات ومراسلات ادبية .

يا للرجـــال لحنة لا يرتجى غير ابن نصار يحـلّ عقالها
ناصيف من يحمي الثغور ومن به ابدت سماء المكرمات هلالها
بطل له انقى الزمان قياده لو طاولته الشامخـات لطالها
ويد مقبلة البـــنان كريمة مدت على المستضعفين ظلالها

* * *

شوس تمد من السيوف قصارها يوم الوغى ومن الرماح طوالها

وافى بها في يوم طربيخا وقد | جاست خيول الدارعين خلالها
طافوا عليها بالصوارم والقنا | فكأنهم قطع الغمام حيالها
فسطا ونادى لا فرار فادبرت | تلك الجموع ونالها ما نالها
عافت هنالك خيلها وسلاحها | والرعب عن تلك السروج امالها
يا عصبة رأت الجميل وما وفت | وبنت على نياتها اعمالها
وتعمدت سفك الدماء وما رعت | سنن النبيّ حرامها وحلالها
انسيتم ايام سخنين التي | لم ينسكم طول المدى اهوالها
جافت جفون كلتا طيب الكرى | فيها وعافت عذبها وزلالها
والصقر لولا الخوف من عقبانها | ما ازمعت عن ارضكم ترحالها
انما الجنسا في العراك غنيمة | اغنامها وخيولها وجمالها
حتى خلت لكم البلاد واوترت | من كان يبغي حربها ونزالها
يفني الجديدان الصفا وحقوقنا | تبقى وان حاولتم ابطالها

* * *

والقصيدة طويلة جداً وانما اخترنا منها موضع الحاجة وقد اشار الشاعر لمعركة طربيخا التي انتصر فيها ناصيف على ظاهر العمر كما مرّ . واما الصقر فهم القبيلة المعروفة وقد نشبت بينها وبين الشيخ ظاهر حرب تغلبت فيها عليه وضايقته فاستنجد بحلفائه الشيعيين ولبى ناصيف الطلب وهاجم بني صقر فدارت بينهما معركة حامية الوطيس في المكان المعروف « بسخنين » وظفر بهم ناصيف ظفراً تاماً وشردهم الى البادية منهزمين .

المعاهدة بين ناصيف وظاهر العمر :

اسقط في يد ظاهر ورأى نفسه امام قائد محنك وفرسان مجربين تعودوا خوض المنايا ولقاء الحتوف، وبينا كان في حيرة من امره واذ باحمد آغا الدنكزلي، وهو رجل مغربي كان في خدمة ظاهر ، يسير خفية فيهاجم قلعة تبنين على حين غرة من الحامية القليلة ويقبض على غلامين مراهقين من ابناء ناصيف

ويفرّ بها الى عكا . ولا يعلم بالتحقيق ان كان ذلك بإشارة ظاهر أو فكر ارتآه الدنكزلي من عند نفسه ليفت في عضد ناصيف ويرغمه على التراجع ومصالحة ظاهر العمر بشروط مناسبة .

وعلى كل فان عمل الدنكزلي يدل على الغدر واللؤم وخسة النفس . ولا يصدر من ذي مروءة وشرف . وبلغ الخبر ناصيف وهو في ساحة العراك . فطارت نفسه شعاعاً غيرة على حرمه واولاده فتراجع عن المعركة متعقباً آثار الدنكزلي فلم يظفر به وعقدت هدنة بين الجيشين وخمدت الحرب خمود النار تحت الرماد .

احتفى ظاهر العمر احتفاء تاماً بابني ناصيف وانزلهما مكرمين معززين في جناح خاص من قصره ، وغمرهما بالالطاف ، وآنسهما بنفسه . فكتب ابنا ناصيف الى والدهما يصفان ما لقياه من اكرام ظاهر العمر ومروءته ، وانهما مع ما هما فيه من رعاية واحترام يطلبان تجهيز حملة لتخليصهما من الاسر . فكتب اليهما والدهما ما معناه .

انه لم يهنأ له عيش ، ولا غمض له جفن ، منذ وقعا اسيرين . وانه ينتظر انخفاض مياه الانهر (وكان الفصل شتاء) التي سدّت الطرق والمسالك فيثيرها حرباً شعواء تميد لها الجبال ويطير لها الهام .

فلما وقف ولداه على جوابه ، اعادا الكتاب عينه لابيهما بعد ان كتبا على حاشيته البيتين التاليين جواباً على اعتذاره :

كتب الزمــــان عجائباً في جبهة الايام سطرا
هــــلا سمعتم او رأيتم ان نهراً صدّ بحرا

وكان ظاهر واقفاً على هذه المراسلات . فدعى بالغلامين وسرحهما الى ابيهما مكرمين بعد ان اهداهما جوادين من خيرة خيوله .

ثم توسط الامر بين العميدين الشيخ سعد اخو ظاهر العمر فتصالحا وتصافيا

وعقدا محالفة هجوم ودفاع وقعت في عكا في يوم الجمعة الواقع في اليوم الثامن من رجب عام ١١٨١ ﻫ – ١٧٦٧ م . وحلفا اليمين على السيف والمصحف (القرآن الكريم) ان يكونا وشعباهما متصافيين متضامنين ما دامت الارض والسماء . واعيدت البصة ومارون الى ناصيف وبنى بالقرب من الاولى خاناً يعرف الآن بخان ناصيف .

هذه مأثرة من مآثر ظاهر العمر ، ودليل على رجاحة عقله وسمو الغاية التي كان يسعى اليها . فقد دلّ بحسن معاملته لابني ناصيف على غريزة عربية فياضة بكرم الاخلاق وعلو الشيم . وغنم بذلك ولاء شعب حربي نشيط له سطوته وخطورته في ذاك الزمن ، وكان من اكبر العوامل على امتداد نفوذه وتعاظم سلطانه .

الفصل الرابع

في المعارك التاريخية الثلاث التي فاز فيها الشيعيون وحليفهم ظاهر العمر

معركة البحرة - معركة النبطية، كفرمان - معركة الحارة، سهل الفازية

معركة البحرة

اشتد ازر ظاهر العمر بمحالفته لزعماء الشيعة ، واعتز جانب الشيعيين وطمحت نفوس الفريقين للاستقلال الناجز ، فخلعوا نير السلطة التركية ، وابوا دفع الضرائب .

وأوجس رجال الدولة خيفة من هذه المحالفة التي تلت محالفة ظاهر العمر وعلي بك الكبير حاكم مصر، فانتدبت عثمان باشا الصادق والي الشام، يعاونه والي صيدا ، على رأس ثلاثين ألف مقاتل لاخضاع جبل عامل وبلاد فلسطين، وهدم سلطة المتاولة وظاهر العمر .

قام عثمان باشا بجيشه في ٣٠ آب سنة ١١٨٥هـ - ١٧٧١م من دمشق قاصداً مهاجمة بلاد الشيعة من الجهة الجنوبية الشرقية . وصل الى بحيرة الحولة فضرب خيامه على ضفافها بعد ان اجتاز نهر الاردن على جسر بنات يعقوب ، وهو المكان الذي فاجأ فيه نور الدين و الشهيد محمود بن زنكي ، في سنة ١١٥٦ م (بودوان) الثالث ملك اورشليم في الحروب الصليبية .

وقيل ان جيش الظاهر والمتاولة داهموا جيش عثمان باشا زحفاً على بطونهم من أربع جهات . وكان جيشه مؤلفاً من عشرة آلاف رجل واثني عشر مدفعاً وأربعة مدافع لذلك الحصون . وان ناصيف النصار قطع بسيفه رأس قـــائد ماردیني ظناً من انه عثمان باشا . وان هذا الباشا فر ناجياً بنفسه وفقد خيمته وسلاحه وخيوله واركيلته (كذا) . وأما الجيش فقد فني عن آخره ، ومن سلم من القتل رمى نفسه في البحيرة فمـات غرقاً . هذا ما اورده المؤرخ والوزير الفرنسي « ادوار لكروا » في كتابه المسمّى تاريخ احمد باشا الجزار او سوريا ومصر في اواخر القرن الثامن عشر الذي استقاه من تقارير قناصل فرنسا في صيدا ومن سجلات وزارة الخارجية الفرنسية .

اقول ان هذه المعركة تعرف بمعركة (بحيرة الحولة) وقعت في ٥ المحرم سنة ١١٨٥ هـ و ٣٠ آب ١٧٧١ م .

ويقول المؤرخون العامليون ان حملة عثمان باشا كانت على الشيعيين لما نبذوا طاعة ولده درويش باشا والي صيدا ، ورفضوا دفع مال الميري المقطوع . فجهز عثمان باشا لحربهم ، وعسكر الشيخ ناصيف النصار بجنوده في جوار مقام النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل . وعقد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطة بالهجوم وتضرعوا الى الله ان ينصرهم على العدو الباغي . وكان مقام النبي يوشع بناية حقيرة فقطع الشيخ ناصيف عهداً على نفسه ان يبني المقام بناء فخماً اذا ظفر بالعدو. ثم كنس المقام بعمامته تواضعاً وتبركاً . ولما احرز النصر بناه على الشكل الحاضر ، ورفع فوق الضريح قبة شامخة [1] . وانتدب ناصيف فرقة من ابسل جنوده واوفرها شجاعة لا تزيد

---

(١) للشيخ ابراهيم يحيى العاملي مؤرخاً في بناء الشيخ ناصيف النصار للمشهد المنسوب للنبي يوشع :

مقام شريف اسه اليوم شامخ — خليفة نصار المؤيد بالنصر
فمذ جاءه طالباً المني بني — من الله طول العمر مع وافر الاجر
وفي عتبة ناداه السلام مؤرخاً — عليك سلام الله يا ثاوي القبر
١١٨٨

عن خمسمائة فارس فبيتت العدو وزحفت اليه ليلا فأحاطت به من جهات ثلاث واعملت فيه السيف . ولم ينج من القتل إلا من القى نفسه في البحيرة . ولم يقتل من المهاجرين جندي واحد . وفرّ الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء. وكان الناس لعهد قريب يعثرون على اسلحة الغرقى في البحيرة .

وسمعت استاذنا المغفور له العلامة السيد محمد علي ابرهيم الحسيني يذكر نادرةً لطيفة حدثت خلال هذه المعركة تدل على ما لسلامة الاعتقاد من التأثير قال : « لما بدأ ناصيف بالزحف برجاله ليلاً بعد الصلاة والدعاء شاهدوا ظبياً يقفز امامهم بين تلك الروابي وخلفه رجل معمم ينشد ابياتاً اولها :

ايحـــل لساكنة العــلم تفني في الحب بسفك دمي

وسرى الخبر بين المهاجرين ونشطهم رؤساؤهم ان الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعاءهم ببركة النبي يوشع وان روحه الشريفة تجسدت هذا الغزال اللطيف [كما كان المختار بن ابي عبيدة ينشط عسكره باطلاق الحمام في الغمام قائلا انها ملائكة النصر] وان الفوز بجانبهم وكان ما املوا » .

وتكلم عن هذه المعركة الامير حيدر الشهابي في تاريخه (صحيفة ٨٩) مجلد اول بما لا يخرج عما ذكرناه وزاد عليه بقوله : « ان ابطال المتاولة بعد تلك الكسرة الهائلة شاهدوا درويش باشا والي صيدا وهو ابن عثمان باشا والي الشام فخاف على نفسه وكان جباناً ففرّ منها . »

وفي معركة البحيرة نظم شعراء جبل عامل قصائد وزجليات نكتفي منها بابيات من قصيدة للشيخ ابرهيم الحاريصي حيث يقول :

اكرم بالخيـــل اذا وفدت اذ ذاك بناصيف البطـــل
بحـــر يحبوك بلجتـــه والبحـــر ضنين بالوشـــل
سل يوم البحرة مـا فعلت كفـــاه بفرسان الدول
ايام اتونـــا يقـــدمهم جبـــار يـجـــد للهـــل

فهنـــاك هنـاك ابو حمد وافى بالخيل على عجـل
ولديه رجـــال تحسبهم اسد تنقضّ على حمـــل
وهنالـــك فرّ اميرهم بالويل ينـــادي والثكل
وهناك البـــاز يطاردهم والقوم كأفراخ الحجـــل
وهنالـــك شتت شملهم ذو الطول فعادوا كالنمل
ما ابطل حكم الجور سوى صمصـــام ابي حمد البطل

وابو حمد هو محمود بن نصار الاحمد اخو ناصيف ووالد حمد البك الشهير وكان يلقب بالبيك ، وكان يعد في الحرب بالف فارس ذكره الامير حيدر صحيفة ٨٤٢ ،

معركة كفرمان ، النبطية

خسر عثمان باشا « معركة البحرة » كما مر ولم يقدر الامير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان على انجاده رغم اعلانه الصوت العام (النفير العام) وارساله المنادين الى مرتفعات الجبال وسماع الناس نداءهم تردده اصداء الاودية بجسماً قائلين (الى الحرب الى الحرب احملوا بنادقكم احملوا طبنجاتكم ايها المشايخ الكرام ، اركبوا خيولكم تقلدوا رماحكم وسيوفكم يا غيرة الله يا غيرة الحرب) .

ولم يمض شهران على معركة البحرة حتى ثارت معركة ثانية تدعى معركة « النبطية – كفرمان » في الخامس من ربيع الاول سنة ١١٨٥ هـ و ٢٩ ت ١ ١٧٧١ م واما أسبابها فهي كما سمعتها وانا غلام يافع من الشيوخ والمعمرين يرويها احدهم عن أبيه عن جده ممن شهد المعركة بنفسه ، فيصفها وصفاً دقيقاً كأنك تراها . ويذكر الاماكن التي حصل العراك فيها ، والهجوم والدفاع ، واسماء القواد الذين ابلوا بلاء حسناً فيها .

وملخص الرواية التي استقيناها من اوثق المصادر هو : ان مكاريين من قرية « كفر رمان » ، وهي على بعد ميلين من النبطية ، مرّا بعنب لهما بقرية

ونيحا الشوف، فاعتدى عليها بين الكروم بعض اهالي نيحا وسلبوهما وضربوهما ضرباً اليماً قضى على حياتها . فشكى اهل القتيلين امرهما الى الشيخ علي بن احمد الفارس عميد آل صعب وحاكم المقاطعة، وكان مقيماً في قلعة الشقيف فكتب الى الامير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان يومئذ يطلب منه ارسال المعتدين لمحاكمتهم ، وذكر له اسماءهم . فكتب اليه الشهابي بعدم امكان القبض على الجناة وعرض عليه دية القتيلين توزع على اهالي نيحا . واصر الصعبي على طلبه وكتب للامير يوسف كتاباً شديد اللهجة قائلا: ان الشيعة لم تعتد بيع دماء ابنائها بمال ونحن نعرف كيف نثأر لبني قومنا .

واقتحم بعض الشيعيين قرية نيحا فقتلوا اربعة من اهلها بين الكروم في المكان الذي ضرب فيه الرجلان الشيعيان . واتصل الامر بالامير يوسف فاحتدم غيظاً وكان الحقد يغلي في صدره لارتفاع شأن الشيعة واستفحال امرهم وتطاولهم على اطراف الشوف ووادي التيم ، وانذارهم لدرويش باشا والي صيدا منذ انتصارهم في معركة البحرة وهزيمة عثمان باشا التي تلكأ الامير يوسف عن نجدته فيها .

فزحف الامير يوسف لاكتساح جبل عامل بجيش كثيف يزيد على اربعين الف مقاتل مؤلف من طوائف شتى كما ثبت من تقارير القناصل . ولما دخلوا البلاد من جهة صيدا بدأوا يحرقون القرى ، ويدمرون المزارع ، ويقطعون الاشجار ، ويقتلون من يقع في ايديهم من السكان الآمنين ، ولا يعفون عن شيوخ ولا صبية ولا نساء .

وكتب الشيخ علي الفارس الى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل يبسط له القضية ويستنجده للدفاع عن البلاد وحماية الطائفة . فهبّ ناصيف للنجدة وارسل (الصوّات) لجمع الجنود وكتب الى حليفه الشيخ ظاهر العمر الزيداني صاحب فلسطين يطلب النجدة .

وصول الجيش المهاجم الى النبطية وعاقبة البغي والغرور :

وكان جيش الامير يوسف يسير في اربع فرق . فالفرقة الاولى وهي المقدمة وفيها الامير يوسف في اول الجيش . والفرقة الثانية ، وهي الجناح الايمن كانت تسير في طريق جبـاع – فحومين – فحبوش – فالنبطية . والفرقة الثالثة ، وهي الجناح الايسر كانت تسير في طريق العرقوب – فالميذنة فالجرمق – فكفرتبنيت – فالنبطية . والفرقـة الرابعة ، وهي القلب كانت تسير في طريق جرجوع فعرب صالم فالنبطية .

وكانت قوى الشيخ علي الفارس واخيه الشيخ حيدر الفارس [الذي كان في بدء الخلاف مقيماً في جبع فوافى اخاه الى النبطية للاشتراك في الدفاع] مؤلفة من فرقتين فرقة الفرسان وعددها خمسماية من الابطال المجربين كانت تقيم معه في قلعة الشقيف . وفرقة المشاة وعددها الف مقاتل من الشبان المتمرنين على تسديد الرماية جمعها من النبطية وضواحيها . وعسكر الشيخان بجيشها في الضاحية الشرقية الشمالية من البلدة في ارض تسمى (قلادش) التي دعيت بعد المعركة . بمريض القهوة – ولم تزل تعرف بهذا الاسم الى اليوم لان جيش الشيعة شرب فيها قهوة النصر والظفر .

ولما وصلت طلائع الجيش المهاجم الى (جبع) واحرقتهـا وقطعت اشجارها ، بعث الشيخ علي الفـارس رسولا آخر الى الشيخ ناصيف النصار يخبره بحركة العدو وما فعله من الفظائع ، ويستعجل قدومه . وارسل كشافاً يستطلع طلائع الجيش المهاجم، ويرقب حركاته ويقدّر قوته . وعاد الكشاف يهوّل بكثرة المهاجين ووفرة معداتهم . فانتهره الشيخ وصاح بـه : اسكت قطع الله لسانك . وامر بسجنه . وارسل كشافاً آخر ورجع هـذا (وقد تعلم الامثولة) يهوّن الخطب ويزري بالعدو وبسيره غير المنتظم ، وان قسماً منه غير مسلح رافق الجيش للنهب والسلب ، وان الفوز سيكون حليف الشيعيين حتماً . فأثنى عليه الشيخ وامر له بخلعة .

ديوان المشورة وتقرير خطة الدفاع

وعقد الشيخ علي الفارس ديوان مشورة من خواصه وكبار رجاله وخيّرهم بين التسليم والحرب ، بل بين الموت الذليل والحياة العزيزة . بين حرب مجزية او سلم مخزية ووراءها سبي النساء والاستعباد واخيراً دمار البلاد . فاختاروا الحرب والدفاع الى آخر نسمة من حياتهم وصلوا جميعاً صلاة الموت ودعوا الله ان ينصرهم ويخذل العدو الباغي عليهم . وبدأ الاستعراض ودب الحماس في النفوس ، وارتفعت الاصوات بالحداء الحربي .

ووصلت مقدمة المهاجمين صباحاً الى النبطية وفيها الامير يوسف الشهابي . فاحتلت الضاحية الغربية من البلدة ، ونصب الامير سرادقاً كبيراً على البيدر الاعلى قرب الجبانة ، ولم تكن الدور والابنية اتصلت بالجهة المحتلة كما هي اليوم وانما كانت البلدة تشغل بقعة ضيقة متلاصقة البيوت شرقي دار الحكومـــة . واصبح الناس يرون خيم الامير وفي اعلى السرادق كرة من الذهب تشع في نور الشمس . واجتمعت فرق الجيش كله في كفررمان واتخذتها مركزاً .

انقلاب خطة الدفاع الى الهجوم

ولما انفرد الامير الشهابي عن الجيش وسار في المقدمة وآوى الى سرادقـه آمناً مطمئناً كأنه يسير في نزهة معتزاً بكثرة جيشه غير حاسب لاخصامـه حساباً مما يخالف ابسط القواعد الحربية ويدل على الغرور وضعف الرأي

رأى القائد الصمعي وهو الباسل المحنك ان الفرصة سانحة فعوّل على الهجوم بالفرسان بعد ان كانت الخطة دفاعية ، كما سبقت الاشارة . وخشي بادرة الحماس من الشبان المشاة فأمر بحجزهم في خان الميري الواقع في جوار بيت آل الفضل في النبطية . وأمر قائدهم الشيخ دندش بن احمد الفارس ان يوصد الابواب ولا يدع احداً يتحرك الّا باشارته . لانـه لم يكن على ثقة ان جيشه القليل يفوز على ذلك الجيش العرمرم .

وعبأ خيالته تعبئة حربية محكمة . فأحاطت بفرقة الامير من جهات ثلاث من الغرب والشرق والجنوب تاركاً جهـــة الشمال ليسهل طريق الفرار والانسحـــاب ، وبدأت المعركة باطلاق الرصاص ، فذعر الامير يوسف ، ورأى الخطر المحدق به ، فارتبك وتشوشت جنوده ، وضيّق المهاجمون الحلقة ، فالتجأ الى الفرار راكباً بغلة لا يلوي على شيء . وكانت الاوامر ان لا يقطعوا عليه الطريق ولا يمسّ بسوء . ولما سمع الشباب المحصور بالخان ازيز الرصاص اشتد هياجه فنقب جدار الخان الشمالي ، ولم تزل آثار النقب الى اليوم ، وتعقب العدو فاشتبك معه في ساحات ثلاث (في الجزائر) شمالي البلدة ، (ووادي بو نعيم) شرقيها ، وبين زيتون كفررمان . وكان جيش الشيخ ناصيف المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل قد وصل الى قرب قرية شوكين وهنـــاك التقى بكشاف يصيح (علق الشر ، علق الشر) اي دارت رحى الحرب . فاسرع برجاله سالكاً طريق (زبدين) ودخل البلدة من الجهة الغربية ليدهم مقدمة الجيش المخيمة غربي البلدة كما قدمنـــا . وتنكب عن طريق « نبعة حبيب » لأنها مضيق واقع بين جبلين فخاف الكمين . وسار بخيله خبباً الى ساحة العراك ورأى الحرب قائمة على قدم وساق فهجم هجوم المستميت ، ولم يلبث العدو ان لوى عنانه متقهقراً الى كفررمان .

ولما مالت الشمس الى الغروب تحاجز الفريقان واسدل الليل سدوله فانتشر جيش الشيعة على تلك الروابي والتلال يوقد نار الحرب ويهزج بالعتابا والاغاني الحماسية .

وفي صباح اليوم التالي دارت رحى القتال بشدة وكان جيش العدو قد فقد حماسته وخمدت جذوته فانسل من حيث اتى راضياً من الغنيمة بالاياب . وثبتت قليلا بعض الفرق بقيـــادة المشايخ النكديين ، وهجم الشيعيون بالسلاح الابيض فانهزم الجيش كله انهزاماً تاماً يصعدون في جبل العرقوب وروابي سجد المطلة على سهل الميذنة وعقبة جرجوع ، وحراب الشيعة تعمل في اقفيتهم وتذبحهم ذبح النعاج . ومات اكثرهم خوفاً وتعباً .

وكانوا اذا علق رداء احدهم بغصن او جب شجرة طرح سلاحـــه ووقف كالمذهول حتى يأتي من يقبض على حياتـه . وشاعت عنهم الكلمة التي سارت مثلا يتداولها الناس الى اليوم وهي قول العالق باغصان الشجر : « يا شيخ جب ارخيني خذ القبق والسكيني »

ويقول المؤرخ العاملي الشيخ علي رضا : ان الشيخ ناصيف النصار تعقّب بنفسه الامير يوسف الشهابي فأدركه في عقبة جرجوع فقنّع رأسه بالرمح ، وانزله عن ظهر بغلته الى الارض ؟ والبسه الفرو مقلوباً وقال له : عفوت عنك رأفة بشبابك واحتراماً لأمرتك واذا ابن نصار . فأجابه الامير يوسف: قدها اولاد ام علي . اي انكم اهل للعفو . واولاد ام علي لقب يطلق على الشيعة وكانوا يفخرون به .

اما عدد القتلى فيقول الامير حيدر الشهـــابي في تاريخه مجلد اول صحيفة ٩١ : انه الف وخمسماية قتيل . وان الامير يوسف لما وصل الى كفررمان احرقها وسار الى النبطية فالتقى بطارش عسكر المتاولة ، بنحو خمسماية خيال فانكسر عسكر الدروز كسرة عظيمة ، ولم يكن في الزمان انكسر مثل تلك الكسرة ولولا ثبات الشيخ كليب نكد ووصول الامير اسماعيل الشهـــابي لاجهز المتاولة على الجيش كله لانهم كانوا كالغنم بين ايدي الذئاب [1] .

ويقول مؤرخو جبل عامل ان جيش الامير يوسف ترك في ساحة القتال ما يزيد عن ثلاثة آلاف قتيل حتى قيل انه كان بين القتلى اربعماية زوج اخوة اي كل اثنين لأب وأم .

وحدثت شيخة هرمة من آل الحاج علي ووالدة السيد موسى ابو خدود تدعى « الدرويشة » وكانت ممن شهد المعركة ، قالت : كانت الفتيـــات تمدّ عسكر الشيعة بالماء والزاد ، وتسير زرافات من فرقة الى فرقة تثير نخوة

(١) وذكرها الشدياق في الاعيان صحيفة ٣٩٨ في حوادث سنة ١٧٦٨ .

المقاتلة وحميتهم بالزغاريد والاغـــاني الحماسية كقولهن : « وين راحوا اولاد ام علي وين سياج العذارى - وين بني متوال يا عز الرجال ». وان فرسان الشيعة كانت تطلق طلقاً واحداً من بنادقها ثم يضع كل بندقيته وراء ظهره ويهاجم العدو يقاتله بالسلاح الابيض وينقض عليه انقضاض البزاة على الطير. وان جثث القتلى غطت ضواحي النبطية وكفررمان وسهل الميذنة . وكن اذا ذهبن الى ينبوع الميذنة لغسل ملابسهن لا يستطعن البقاء طويلاً لفظاعة تلك المناظر الرهيبة . ولبس الشوف اثواب الحداد حتى كانت النساء ترى كالغربان . »

ووصلت نجدة الشيخ ظاهر العمر بقيادة ولديه الشيخ علي والشيخ عثمان بعد ان وضعت الحرب اوزارها وقيل انها تباطأت قصداً برأي الشيخ عثمان بين احراج يحمر . ولما انجلت المعركة عن انتصار الشيعيين قال علي لاخيه : سود الله وجهك ، كسب اولاد ام علي الحرب وكسبنا العار .

اقوال بعض الشعراء في هذه المعركة :

ولشعراء جبل عامل قصائد وزجليات في وصف هذه الحرب الطاحنة نذكر منها ابياتاً من قصيدة طويلة لشاعر زجلي فلسطيني يدعى (شناعة بن مريح) من شعراء ظاهر العمر .

وين مير الشوف يوسف يوم صال   من عرب صالين على الوادي نزل
في عساكر عدها تسعون ألف   أو تزيـــد عداد خوفاً ان نزل
قادمـــا من حمص لديرة حما   لقرايا الشام صوّاتو وصـــل
من أرض بيروت للشوف العريض   من بلاد جبيل كم فارس وصل
شي دروز وشي يهود وشي صنوف   شي نصارا شي كراد وشي ملل
وانحدر بجموع مـــا إلهم عداد   يا جبيل الستر في هـــذي الملل

* * *

وانتخى على لنــاصيف يقول ان هذا الأمر ما عاد ينمهل
مــا يخش المير ديرتنا حرام لو نبت من فوق راياته نخل
لبني متوال ظهر العاديات من متون الخيل يضوون الصقال
قادهـــا ناصيف كـــاب الثنا و فترعها قبل ان جازت فحل
سيفهم ناصيف يا نعم العقيد شاهراً للسيف في ايـدو يتل
والذي فيهم سياج المحصنـــات ذاك اخوه الليث محمود الخصال
يا علي الفـــارس بمارك في الجموع شبه ليث صال واشجع من بطل
عندما البارود زمجر واستطار واظلم الأفق وابرقن النصال
واذهل الابطال ركض الصافنات لعبت الفرسان في ذاك المحل
صاح مير الشوف هاتولي الحصان عن عظم ما صار جابولو بغل
وين مير الشوف يوسف وين راح الذي للحرب راكبلو نفـــل
يحسبون الحرب هي شلة حرير وبش يجيب الحرب لغزل الشلل

والقصيد نشرت في الجزء الخامس من المجلد السادس من مجلة الكلية عـــام ١٩٣٠ وعقب عليها العلامة الشيخ احمد رضا فليرجع اليها من يشاء .

معركة الحارة وسهل الغازية

في ١٠ حزيران ١٧٧٢ م – ١١٨٦ هـ بعد انهزام جيش الامير يوسف وفشله في معركة كفررمــان – النبطية انضم الى جيش عثمان باشا والي الشام الذي انهزم في معركة البحرة (التي اشرنا اليها) ، واتحدوا على حرب ظاهر العمر وحلفائه المتاولة . وكان عدد جيش الاتراك ثلاثين ألفـــاً ، وجيش الظاهر والمتاولة عشرة آلاف حملوا على ذلك الجيش فانهزم حالا وبدأت المذبحة بعد المعركة حسب المألوف . ولكن الدروز هذه المرة هم الذين يذبحون حلفـاءهم بعد انقلاب الجيش ، لان خيالة عثمان باشا كانوا يملكون سلاحاً جميلاً ، وثياباً موشاة بالذهب ، وسروجــاً مصفحة بالفضة . فارتمى الدروز عليهم لينهبوهم وكانوا لا يقدرون ان يدافعوا عن انفسهم . وعند سقوطهم على الحضيض

يسحقون رؤوسهم باعقاب بنادقهم او يذبحونهم بالخناجر ، فلم ينج منهم الا القليل . وعـاد المتاولة الى بيوتهم ، وذهب الظاهر بالصفديين والمماليك الى يافا .

وكان الجزار يومئذ في خدمة عثمان باشا وانهزم مع من انهزم فاعجب بـه الامير يوسف الشهابي لان كل انسان ينتظر نهاية المعركة ليأخذ طريق الهرب ينظر اليه الامير كبطل (كذا) . فاستقدمه الى دير القمر كمستشار له ، لأن الأمير يوسف كان من طبيعته كالنباتات المعترشة لا تعيش دون وصي . وقد زعزعت الهزيمة سلطته لان الناس حملوه مسؤولية الهزيمة . والدروز يقبلون هذا الرأي الذي يبررهم فخشي ان يخسر لقبه وسلطته وثروته التي جمعها له وزيره « سعد الخوري » فخطر له تحصين بيروت وايداع امواله فيها . ولم يرَ رجلا اكثر موافقة لهذه المهمة واكثر امانة من الجزّار .

هذا ما قاله المؤرخ الفرنسي (ادوار لكروا) في تاريخه صفحة ٧٤ .

اما مؤرخو جبل عامل فقد تكلموا ايضاً عن هذه المعركة وتُعرف عندهم بمعركة الحارة حدثت في ٦ شوال ١١٨٦ هـ و ١٠ حزيران ١٧٧٢ وقالوا عنها:

انه لمـا انتصر الشيعيون في المعارك السابق ذكرها تهددوا والي صيدا درويش باشا بن عثمان باشا وارغموه على الهرب ، فأخلى المدينة ملتحقاً بوالده. واحتلها الظاهر وحلفاؤه ، وعين لها حاكماً (احمد آغا الدنكزلي) . وجهز عثمان باشا حملة بقيادة خليل باشا والي القدس فسارت الى صيدا اولاً وحاصرتها لكي بعد سقوطها في ايدي المحاصرين يستأنف الهجوم الى جبل عامل لسحق الشيعيين وانصارهم

واجتمع في النبطية قواد الشيعة وحكام المقاطعات وعزموا على مداهمة العدو ليلاً والفتك به . فاختاروا من رجالهم خمساية فارس ولفّوا حوافر خيولهم باللبّاد لكي لا يسمع لسنابكها صوت عند المسير ودهموا عسكر العدو في

ضاحية صيدا قرب قرية الحارة ، وكانوا يحاصرون المدينة ، فالجأتهم قنابل الاسطول الروسي ان يتقهقروا للضواحي فوقعوا بين نارين . واحاطت خيل الشيعة بهم في ليلة حالكة السواد وهم نيام فأصلوهم ناراً حامية فهبوا مذعورين يفتك بعضهم ببعض واختلط الحابل بالنابل لشدة الظلام وهلك منهم خلق كثير .

وفي الصباح نشبت المعركة الفاصلة في سهل الغازية وانجلت عن فوز الشيعيين وانهزام العدو . واجهز عليه الدروز كما سبقت الاشارة فلم يبق منهم احد .

الفصل الخامس

الحرب بين زعماء جبل عامل واحمد باشا الجزار – مقتل الشيخ ناصيف النصار في معركة يارون وسقوط الحكومة الاقطاعية الاولى – ثورة الشيعيين على الجزار وحروب العصابات – المعاهدة مع سليمان باشا وتأليف الحكومة الاقطاعية الثانية .

قبل البدء في سرد وقائع تلك المعارك والحروب لا بد لنا من ذكر لمحة عن تاريخ حياة « احمد باشا الجزار » ذلك الطاغية السفاح والجبار العاتي .

في سنة ١١٨٤ هـ – ١٧٧٠ م قدم الجزّار على الامير يوسف الشهابي ، حاكم جبل لبنـــان ، فأكرم وفادته وارسله الى بيروت ورتب له نفقة من مكوسها . ثم عينه متسلماً عليها في سنة ١١٨٦ – ١٧٧٢ . فأخذ بتحصينها وترميم قلاعها . وشعر الامير يوسف بسوء نيته وخبث غايته فكتب اليه ان يتخلى عن المدينة ويسير الى دمشق بمهمة انتدبه اليها . فاعتذر عن الذهاب ، واخذ يحاول ويراوغ ، واخيراً جاهر بالعصيان .

وكانت الحرب بين الاتراك والروس قائمة على قدم وساق ايام كاترينـــا الثانية . وكان للروس خمس سفن من الطراز الكبير المسمى يومئذ (غليون) تتجول في مياه البحر المتوسط على شواطىء سوريا استقدمها علي بك الكبير حاكم مصر وحليف ظاهر العمر وكان هذا يستعين بها في تهديم المدن والحصون التي تخرج عن طاعته .

واتفق الامير يوسف مع عمه الامير منصور وكتب الثاني الى ظاهر العمر يسأله الايعاز الى اميرال تلك السفن باستخلاص بيروت من الجزار ووعده بستماية كيس (اي ثلاثماية الف غرش) .

وجاءت السفن من قبرص فحاصرت المدينة بحراً واطلقت قنابلهـا على الحصون . وحاصرها الامير يوسف براً بجنوده ، ودام الحصار اربعة اشهر . وتضايق الجزار فطلب التسليم على يد ظاهر العمر [1] فأرسل الشيخ ظاهر رجلاً من اخصائه يدعى (يعقوب الصيقلي) فاستلم القلعة وسلمها الى الامير يوسف . فغرم الامير اهل المدينة المال الذي تعهد به للاميرال . وجاء الصيقلي بالجزار الى عكا فأكرمه الشيخ ، وولاه جباية بعض الضرائب وسلمه بغالا له ، فجباها وفر بالبغال والمال .

وقلب الدهر ظهر المجن لظاهر العمر فمات قتيلاً سنة ١١٩٠هـ - ١٧٧٦م برصاص بعض الخونة الاشرار من اتباع الدنكزلي كما مر . وتقوض بنيان مجده ، وذهبت أمارته بين عشية وضحاها . وشاءت الاقدار الغاشمة ان تلقي زمام الايالة الى احمد باشا الجزار . فعين والياً على صيدا سنة ١١٩٠هـ -١٧٧٦م وعزل محمد باشا الذي كان اقامه حسن باشا الجزائري صاحب حوادث ظاهر العمر . وفي سنة ١٢٠٠ هـ - ١٧٨٥ م ضمت اليه ولاية دمشق ايضاً وايضاً .

معركة يارون :

لما تولى المذكور ايالة صيدا واستفحل امره وانقضى عهد الشيخ ظاهر العمر ودانت له فلسطين والقى الخلاف بين الامراء اللبنانيين فأصبحوا يناوىء بعضهم الآخر ، وهو يصفق طرباً ويضحك في سره . حول نظره الى جبل عامل يريد ان يخضعه لسلطته ، وكان يومئذٍ امنع من عقاب الجو ، وكان

---

(١) ورد في تاريخ (ادوار لكروا) ان الامير يوسف اوفد الشيخ علي جنبلاط لعند ناصيف النصار ليتفق مع الشيخ ظاهر العمر على انتزاع بيروت من يد الجزار وكان ما طلب .

زعيمه الاكبر الشيخ ناصيف النصار من اشجع رجال عصره واعرضهم جاهاً وأوسعهم شهرة .

فساق عليه جنده وكر على جبل عامل الكرة بعد الكرة ، فلم يتسن له الفوز . وكان في كل مرة يرجع خائباً وتدور الدائرة عليه . حتى اذا شاءت الاقدار هـاجمه بجيش كثيف في سنة ١١٩٥ هـ - ١٧٨٠م من الجهة الجنوبية متظاهراً بأنه يريد اجتيازه الى وادي التيم لتأديب العصاة . فأدرك الشيخ ناصيف قصده فأسرع اصده بشرذمة من خيله لا تزيد عن سبعماية فارس كانت ترابط معه دائماً في حصن تبنين .

وكان الشيخ ناصيف بطلا مقداماً تعود خوض المعارك وممارسة الحروب ، يهزأ بالمنايا ولا يبالي بالموت . فحملته الجرأة والبسالة على منازلة ذلك الجيش اللجب بخيله القليلة ، ولم ينتظر وصول بقيـة الجنود والاعوان المرابطة في القلاع . وزلت قدم جواده على بلاطة يارون وعـاجله بعض الجنود باطلاق الرصاص فخرّ قتيلا وتشتتت جنوده وطويت صحيفة استقـلال جبل عامل بعد ناصيف [1] وسقطت بقتله الحكومة الاقطاعية الاولى بحصونها وقلاعها .

ثم اكتسحت جنود الجزار البلاد واحرقت القرى ودمرت المنازل. وشحن مـا في مكاتب جبل عامل من التـآليف والمخطوطات النادرة حيث احرقت في عكا . وشكاه علماء البلاد الى الاستانة ولكن حكومة الباب العالي ارسلت اليه الشكوى عيناً فانتقم من موقعيهـا . وأسرف رجاله في ذلك الشعب قتلا وذبحاً وقبض على فريق من الوجهاء فأماتهم خنقـاً في سجون عكا ، وشرّد من بقي منهم الى البلاد المجاورة . وهاجر العلماء وأهل الفضل للبلاد

---

(١) لقد ارخ المرحوم الشيخ ابرهيم يحيى العاملي مقتل الشيخ ناصيف النصار بهذه الابيات :

قتل ابن نصار فيا لله من ... مولى شهيد بالدماء مضرج
وتداولتنا بعده ايدي العدى ... من فاجر او غادر او اهوج
هي دولة عم البلاد انظم في ... تاريخهـا امة خير مفرج
١١٩٥

الاسلامية النائية كالهند والعراق وايران والافغان وخدموا فيها الاسلام والشيعة الامامية اجل خدمة . وفر من بقي من الحكام وابنـــاء العشائر الى جبال حلب والاناضول وقصد بعضهم « عكار » فأنزلهم حـاكمها علي بك الاسعد المرعبي في دار رحبة لم تزل للآن تعرف بدار العشائر .

وللعلامة الشيخ ابراهيم يحيى العاملي ، وكان فيمن فرّ من العلماء وسكن دمشق متستراً ، قصيدة غراء الم فيها لهذه الكوارث :

من لي برد مواسم اللذات والعيش بين فتىً وبين فتات
ورجوع ايام مضين بعامل بين الجبـال الشم والهضبات

الى ان قال :

خطب دعاني للخروج عن الحمى فخرجت بعد تلوم وأناة
وتركته خوف الهوان وربمـــا تُرك النمير مخـافة الهلكات

وهكذا دامت الحال سنيناً والعامليون يقاسون ضروب العسف والشقاء . فحملهم ذلك على الاستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن حوزتهم . فثار الزعماء وابناء العشائر والفوا العصابات الثورية « والضغط يولد الانفجار » .

حرب العصابات :

وفي سنة ١١٩٨هـ – ١٧٨٣م اجتمع في (شحور) جماعة من اعيان البلاد وقد اعياهم امر الجزار وارهقهم جوره وما اصاب البلاد من شروره . فأجمع رأيهم على الكفاح وانقاذ البقية الباقية من وطنهم من الدمار . فألفوا فرقة من رجالهم الاشداء للفتك بعمّال الجزار وجنوده التي كانت ترابط في حواجز جبل عاملة وتحتلها احتلالاً عسكرياً صارماً ، وتلزمها بنفقاتها وعلف خيولها واعاشتها واحتمال اضرارها واذاها . وقد جمعهم الجزار من شذاذ الآفاق كما كان سائر جنده مؤلفاً من ارناؤوط ودالاتية واكراد . وكان على رأس الثورة

الشيخ حمزة بن محمد النصار من آل علي الصغير . ومدبر شؤونهـا الشيخ علي الزين صاحب شحور وهاجمت الفرقة حاكم البلاد العام في (تبنين) من طرف الجزار فذبحوه ذبح النعاج ، واثخنوا باعوانه وجنده ، ونهبوا الخزينة الاميرية [1] . فأرسل الجزار جنوده وزبانيته تتعقب الثوار فداهموهم في قرية شحور ونشبت بينهما حرب دامية قتل فيها الشيخ حمزة النصار وفر اعوانه(. وسار الشيخ علي الزين واخوانه الى العراق ، وواصل الشيخ علي سيره الى ايران في عهد (محمد شاه) فاكرم وفادته . ثم اتى الهند فاستوزره احد ملوكها (نوابها) واقام فيها زمناً . وقيل انه صاهره وتولى مكانه الى ان وقعت البلاد في يد الانكليز فعاد الى وطنه بعد نضال ودفاع لم يجده نفعاً ، وعاش عزيزاً مكرماً .

وقد ذكر هذه القطعة المؤرخ اللغوي الشيخ علي سبيتي في مجموعته ، ووردت في تاريخ صيدا صحيفة ١٤٦ :

كان دور العصابات والفدائيين ويسمى بعهد (الطياحة) اتعس دور مر على جبل عامل . وقع فيهـا بين نارين : نار زبانية الجزار ونار رجال الثورة . فالزبانية التي كان يقذفها الطاغية تعيث في البلاد فساداً ، وتضيق الخناق على الاهلين المساكين ، وتؤلف منهم فرقاً تسمى (سرولي) [2] لمطاردة العصابات فلا تظفر بهم . والثوار يشنون الغارة للسلب والنهب ، وحرق القرى وتدمير البيوت متغلغلين في بطون الاودية بين الاحراج والغابات معتصمين برؤوس الجبـال .

---

(١) ذكر هذه الحادثة المؤرخ الفرنسي (الكورا) في تاريخه صحيفة ١٧٤ .

(٢) لم نهتد لمعنى هذه الكلمة وارجح انها مركبة من كلمتين تركيتين (سر) بمعنى رأس (وولي) بمعنى سريه او فرقه ومنها كلمة ــ ولي باش ــ التي كانت تطلق على رئيس الشرطة والدرك في اوائل عهد الاتراك وقد تكون محرفة عن سرت التركيه ومعناها شديد ولي اداة نسبة فيكون معناها ذو الشدة

المعاهدة مع الوالي سليمان باشا

ولم تهدأ الأحوال بعد هلاك الطاغية الجزار سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤م وتعيين سليم باشا ثم سليمان باشا خلفاً له . فانتشرت حرب العصابات وامتدت سلطة الثوار فشملت بلاد عكا وصفد وكانوا يفرضون الضرائب والرسوم على البلاد ويفتكون بمن يخالفهم .

ورأى الوالي سليمان باشا ، وكان سلس القياد لين العريكة ، ما اصاب جنده من الفشل ، وما ألم بالبلاد من بؤس وشقاء ، فأيقن انها سائرة الى الخراب التام حتماً فمال الى اللين ، واستدعى الى عكا الشيخ علي الفارس عميد آل صعب فأقامه حاكماً عاماً في قلعة (تبنين) ولم يكن يجسر احد على قبول ذلك المنصب بعد ذبح الحاكم السابق كما اشرنا ، ولم يقبل الشيخ علي الفارس (وكان شيخاً محنكاً) ذلك المنصب الا بعد اتفاقه مع زعماء الثوار على ان يسعى باجلاء جيش الاتراك والارناؤوط عن البلاد ، وارجاع الحكم الى أهلها.

وارسل الوالي سليمان باشا ضابطاً ألبانياً يدعى « بكرآغا » لمفاوضة الثوار والاتفاق معهم على شروط الصلح والتسليم فرفضوا مفاوضته حذراً من الغدر والخديعة . فكتب سليمان باشا الى الامير بشير الشهابي الثاني يطلب وساطته لاخماد نار الثورة واقناع الثوار بالكف عن العدوان على ان تجاب مطالبهم . وأثر تدخل الامير الشهابي مع الزعماء فقبلوا ان يغمدوا سيوفهم ويسكنوا حركاتهم ويدخلوا في مفاوضة مع الوالي سليمان باشا . ثم عقدوا اجتماعاً في حضرة الامير بشير في بيت الدين حضره الشيخ فارس الناصيف وذوو قرابته واقروا فيه الخطة التي يجب ان يسار عليها .

وتولى (كاخية) ، معتمد الامير الشهابي ، الشيخ جرجس باز والحاج حسن الشيت (كاخية) ، معتمد الشيخ فارس الناصيف ، ادارة المفاوضة بين الوالي والثوار . واقر الوالي سليمان باشا وراغب افندي معتمد الباب العالي شروط الصلح واخماد الثورة على الوجه الآتي :

أولاً . العفو العام عن عموم الثائرين

ثانياً . يعطى لهم اقليم الشومر ملكاً لهم ولذريتهم مقسوماً بالتساوي بدلاً عن أملاكهم التي ضبطتها الدولة[1] (على ان يستثنى منه قرى: الصرفند وانصار وقلعة ميس) مرفوعة القدم ممنوعة القلم (اي معفاة من الضرائب والاموال الاميرية) من دون معارض ولا منازع كما ذكر في (البيولريدي) المنشور الرسمي .

ثالثاً . ان لا يكون دخل في حكم البلاد ولا سلطة لموظفي الدولة عليهم . وانما يرجعون في امورهم وفصل الخلاف الذي يقع بينهم الى شيخ المشايخ الشيخ فارس الناصيف . فهو يمثلهم تجاه الحكومة وبه تنحصر المخابرات ، وعليه تعود المسؤولية .

وفي تاريخ المعلم ابرهيم العورا الذي نشره وصححه الفاضل الخوري قسطنطين الباشا المخلصي تفصيل واف لهذه الحوادث ، ووصف احوال العصابات ، ومساعي الامير بشير الشهابي ، ووصول وفد العشائر برياسة الشيخ فارس الناصيف الى عكا ، وما لقيه من اكرام الوالي ورعايته . وان الوالي اجلس الشيخ فارس عن يمينه ، وقدم له الشبق والقهوة . (والشبق هو قصبة طويلة فيها غليون لشرب التبغ لها فم من الكهرباء) وكانت قواعد التشريفات يومئذ لا تجيز تقديم الشبق إلا لكبار الزعماء . وأنزلوا في دار رحبة ضرب على ظهرها (صيوان) قبة كبيرة لرئيس الوفد . وارسلت لهم الموائد . وخيولهم العلايف .

وبعد ثلاثة ايام عقد مجلس حافل حضره المفتي والقاضي وكبار القواد .

---

(١) ضبطت الدولة بعد معركة يارون املاك العشائر وكانت كثيرة منها جفتلك رأس العين وقسم كبير من بساتين صيدا واراضٍ كثيرة ومطاحن وبساتين من الزيتون لا تحصى .

وطيب الوالي خاطر الوفد ، واثنى على طاعتهم ، ووقع الاتفاق وأرسل مع (جفت تتار) اثنين من سعـــاة البريد الى الاستانة فصادق عليه الباب العالي ، وصدرت بـه (البيولريدي) المرسوم الرسمي ، واحتفل بتلاوته احتفالاً جامعاً .

ثم انفض الجمع واكرم الوالي سليمان باشا الشيخ فارس الناصيف بخمسة آلاف غرش (اي ما يعادل خمسين الف غرش ذهباً في هذه الايام لان غرش ماتيك الايام يساوي عشرة غروش ذهباً صاغاً عملة اليوم) وفروة من السمور تشعر بانه شيخ المشايخ . وانعم على بقيـــة الوفد بأفرية السمور والعطايا . وذكرها ايضاً صاحب العقد المنضد صحيفة (١٣٠) وقبله صاحب الجوهر المجرّد .

وقال: ان الوالي سليمان باشا امر باتخاذ قرية (الزراريه) مقراً لشيخ المشايخ. وبنيت فيها دار لرآسة العشائر على نفقة الدولة . وعيّن لبيت الرآسة مائتي كيس (الف جنيه) تدفع في كل سنة من خزينة عكا وذخائر مرجعيون .

الحكومة الاقطاعية الثانية في جبل عامل

وذكر غيرهم من المؤرخين ان هذه الاتفاقية تعدلت في عهد عبدالله باشا الخزندار والي ايالة عكا الذي خلف سليمان باشا . ففي سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢١م عقد عبدالله باشا اتفاقاً مع زعماء جبل عامل واعاد لهم حـكم بلادهم كما كانوا سابقاً . وضم اليهم مقاطعة مرج العيون وكانت تتبع وادي التيم ، وترك لهم خمسين الف غرش من اموالها الاميرية ، ورتب لهم ماية غرارة شعير علائف لخيولهم ، على ان يمدّوه بالفي مقاتل عند الطلب .

ولما اشتد الخلاف بينه وبين درويش باشا والي الشام خاضوا الحرب معه في معركة المزّة ومعركة جسر بنات يعقوب وابلوا بلاءً حسنـاً . وقتل في

احدى المعارك الشيخ احمد العباس من آل علي الصغير ودفن في المزة. وذكرها الامير حيدر الشهابي في تاريخه صحيفة ٧١٠ في حوادث ١٢٣٧ هـ - ١٨٢١ م وانها تمت في عهد عبدالله باشا الخزندار الذي تولى ايالة عكا بعد سليمان باشا. ومن الغريب انه اغفل ذكر الاتفاق الاول الذي حصل في عهد سليمان باشا واثبته المؤرخ ابرهيم العورا وكان من كتاب سليمان باشا وحضره بنفسه .

وفي سنة ١٢٤٧ هـ - ١٨٣٢ م احتل الجيش المصري سوريا بقيادة الفاتح ابرهيم باشا فألغى النظام الاقطاعي وسقطت الحكومة الاقطاعية الشانية في جبل عامل .

الفصل السادس

في ادارة جبل عامل في عهد المصريين – استيلاء الخديوي محمد علي باشا علـــى سوريا – سياسة الفاتح ابراهيم باشا – سقوط الحكومة الاقطاعية الثانية في جبل عامل وتأليف الحكومة الاقطاعية الثالثة

لا بد لنا قبل الخوض في هذه الابحاث من ايراد خلاصة وجيزة في تاريخ الدولة المصرية الخديوية .

ومؤسس الدولة هو محمد علي باشا الكبير من اصل البانى ولد في (قوله) احدى الموانيء الصغيرة بين تراقيا ومقدونيه من اعمال اليونان (حالياً) في سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٦٩م . توفي ابوه ابرهيم آغا وكان رئيس حراس قولة، وخدم حاكم (قوله) في جباية الأموال ثم اشتغل بالتجارة . قدم مصر في سنة ١٢١٥ هـ - ١٨٠٠م مع حملة القبطان حسين باشا[1] التي ارسلتها الحكومة التركية العثمانية لساعدة القائد الانكليزي (ابركرومبي) على اجلاء الفرنسيين بعد ان استولى عليها الجنرال بونابرت (نابليون الاول) وكان يومئذ برتبة (بين باشي) رئيس ألف وقبل (اونباشي) رئيس عشرة . ولم يزل يعمل على التنكيل بالماليك حكام مصر بعد ان جلى الفرنسيون عنهـا حتى انتخبه العلماء والاعيان والياً لمصر في سنة ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥م واقره الباب العالي عليها .

---

(١) تاريخ مصر لعمر الاسكندري وسليم حسن صحيفة ١١٧

كان محمد علي باشا من نوابغ الشرق في عقله وتفكيره، طموحاً عظيم الهمة، وافر العزم شديد البأس، واسع الحيلة والتدبير نهض بمصر وكانت على وشك الاضمحلال لسوء سياسة الاتراك، وجور حكامها من المماليك وشذاذ الآفاق الذين تحكموا بمقدراتها وقبضوا على ازمة احكامها وعاثوا فيها فساداً زمناً ليس بقصير لم تمد اليهم الحكومة التركية الرئيسية يداً، ولا اعترضتهم بأمر. واكتفت بقبض الاموال المترتبة عليهم. وهكذا كان شأنها في مصر وغيرها من الديار العربية من عصر سليم الاول سنة ١٥١٧ م حتى سنة ١٧٩٢ م حيث هاجمها نابليون الاول في سنة ١٢١٣ ه – ١٧٩٨ م على رأس حملة مؤلفة من اربعين الف جندي فرنسي. فاستولى عليها بعد معارك طفيفة، وشتت شمل المماليك، وتابع هذا القائد سيره الى سوريا فافتتح ثغورها حتى وصل الى عكا، فوقفت هذه المدينة الحصينة في وجهه وحاصرها مدة خمسين يوماً، وكانت البوارج الانكليزية تظاهر المحصورين في عكا وتمدهم بالذخائر. ولم يكن للفرنسيين سفن حربية تناضل الانكليز بعد ان دمر اسطول انكلترا العمارة الفرنسية الضخمة في معركة (ابي قير) ولم تنل مدافع الفرنسيين من اسوار عكا منالاً.

اخفقت الحملة الفرنسية في سوريا ومصر وعاد نابليون وتبعه ما بقي من جيشه وقواده الى فرنسا في ١٩ ربيع الثاني ١٢١٤ ه و ١٢ اغسطوس ١٧٩٩م، وعادت البلاد الى الحظيرة التركية.

وفي خلال هذه الحوادث استيقظ الاتراك من غفلتهم فاعلنوا الحرب على الفرنسيين وارسلوا حملة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل فيهم محمد علي باشا. وكان نابليون قد باغتهم في معركة ابي قير في ٩ محرم ١٢١٤ه و ١٣ يونيه ١٧٩٩م فضربهم ضربة قاتلة. واشرف محمد علي على الغرق لولا ان قيض له (السر سدني سميث) قائد البوارج الانكليزية نفسه فانتشله من الماء وانزله في سفينته. ورجع محمد علي بعد ذلك الى بلدته ثم عاد في سنة ١٢١٥ ه – ١٨٠٠ م مع جيش القبطان حسين باشا الذي جاء ليساعد القائد الانكليزي (ابر كرومبي) على اجلاء الفرنسيين. ومن هذا الوقت بقي في مصر حتى صار والياً عليها.

ثم بدأ بتوسيع دائرة ملكه لما رأى تضعضع كيان الاتراك وتوالي انهزام جنودهم امام جيوش الروس . فوضع لنفسه برنامجاً لمحو الدولة وتشييد دولة فتية على انقاضها تسير على المناهج العصرية . واستخدم لاتمام هذه الفكرة كبار القوّاد ورجال الادارة والاختصاصيين من الافرنج .

وفي سنة ۱۸۳۱ م بدأ بتنفيذ فكرته فأرسل ولده ابرهيم باشا على سوريا فاستولى عليها ثغراً بعد ثغر . ولما حطّ رحاله امام اسوار عكا ، وحاكمها عبدالله باشا الخزندار الذي خلف سليمان باشا على ولاية صيدا وكان مركز الايالة يومئذ في عكا،وكلاهما من مماليك احمد باشا الجزار الذي تكلمنا وسنتكلم عن اعماله الفظيعة وسياسته الحمقاء فيما يأتي .

تولى عبدالله باشا حكومة الايالة وعمره ٢٤ سنة بوساطة صرّافه (حاييم فارحي اليهودي)الذي كان على صلة مع اقاربه - آل فارحي صرافي الباب العالي في الاستانة (وفارحي) هذا كان بمثابة مدير مالية عبدالله باشا وانتهى امره الى الموت خنقـاً بأمر عبدالله باشا عن يد نسيبه ادهم بك الجركسي . والكلام عن سياسة عبدالله باشا وصلفه وغروره يطول شرحه .

وكان ان وقع هذا الباشا مراراً تحت طائلة غضب البـاب العالي وانقذه محمد علي باشا وبذل في سبيله اموالا طائلة ، غير انه لم يكن وفيـاً معه . وبدرت منـه اخطاء واعمال جعلت محمد علي باشا يستعجل الوقت لتأديبه والاستيلاء على عكا حصن سوريا فأرسل في تشرين الاول سنة ۱۸۳۱ م ولده ابرهيم باشا على رأس حملة كبيرة وشاءت الاقدار ان تسقط تلك المدينة الحصينة ، التي عجز عنها نابليون الاول ، بين يديّ الفاتح بعد حصار سبعة اشهر . ويجيء عبدالله باشا لحضرة الفاتح وفي عنقه منديل ابيض(منديل الامان) فيقابله الفاتح بلطف ثم يرسله الى مصر مع حرمه وحاشيته مكرّماً ثم يذهب منها الى الديار الحجازية فيموت فيها مجاوراً .

سقطت سوريا كلها بيد الجيش المصري بعد سقوط عـكا . وقسّمها الفاتح الى مقاطعات او متسلميات ، وعهد بأدارتها العامة ال احـد انسبائه شريف

باشا . والحق جبل عامل بجبل لبنان واميره يومئذ الامير بشير الشهابي الثاني المعروف بالمالطي .

وليس من غرضنا البحث عن سياسة المصريين في سوريا وتعداد اخطائهم الفاضحة . غير اننا نقول ان سياسة المصريين في جبل عامل كانت غيرها في البلدان السورية التي رفعت عليها اعلامهم . ويعود السبب الى ضم جبل عامل لامارة جبل لبنان والخلاف المستحكم بين ابناء لبنان واهل جبل عامل ، الى الاحقاد بين ذوي الاقطاعات من زعماء البلدين المتغلغلة في النفوس والسارية سريان الدم في العروق . فمن البديهي ان يكون حكم الشهابيين شديداً صارماً على ابناء جبل عامل .

ولّى الامير الشهابي ولده الامير مجيد ادارة مقاطعات جبل عامل ، وكان شاباً غراً لم تحنكه التجارب ، فصبّ غضبه على الشيعيين وارهقهم ظلماً ، وساق مئات منهم الى السجون . فكان في محبسه في صور زهاء الألف رجل ؛ وحقّر العلماء . فكان من نتيجة هذا ، ومن الضغط والشدة التي اتخذها بعض العمال المصريين في جبل عامل وبعلبك ، واتخاذهم سياسة العنف وقلة المبالاة بزعمائهم وعلمائهم ، وسقوط الحكومة الاقطاعية الثانية ، ان ثار الشيعيون في البلدين بعلبك وجبل عامل . وكان قائد الثورة في بعلبك الامير جواد الحرفوش ، وفي جبل عامل حسين بك الشبيب .

نشوب الثورة ضد المصريين وتأليف الحكومة الاقطاعية الثالثة :

مما اجمع عليه المؤرخون ان ادارة المصريين في سوريا وما اتخذوه من الشدة في جمع الضرائب ومضاعفتها ، وجمع السلاح ، وتجنيد الشبان على غير قاعدة نظامية وبغير وقت معين ، وفرض السخرة وغير ذلك ، كان من الاسباب الداعية لسخط السكان واندلاع لسان الثورة في جبال النصيرية وبلاد بعلبك ووادي التيم وحوران وفلسطين وجبل عامل وشمالي لبنان .

وقاد الثوار في جبل عامل حسين بك ابن الشيخ شبيب بن الشيخ علي

الفارس من آل صعب ، واخوه محمد علي بك من سنة ١٢٥٢ هـ - ١٨٣٦ م الى سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م ثلاث سنوات متواليات . وهاجموا مراكز الحكومة وطردوا عمالها ونكلوا بجنودها .

وبلغ امرهم ابراهيم باشا وكانت الثورة قد اتسع نطاقـها فشمل معظم الأنحاء السورية . فوضع فرقة من عسكره تحت تصرف الامير الشهابي واوكل اليه أمر اخماد الثورة . فأرسل الامير الى جبل عامل ولده الامير مجيد ، وكان شاباً متغطرساً شديد الاعجاب بنفسه كما ذكرنا ، فاشتبك مع الثوّار في عدة وقائع فلم يظفر بهم . ولما عجز عن اخضاعهم ضيّق الخناق على اهلهم وذوي قرابتهم .

فاجتمع فريق من الوجهـاء بزعيمي الثورة وعرضوا عليهما التسليم تحت شرط حفظ حياتهما فأبيا ، وبارحا البلاد بأنصارهما الى حوران وارباض دمشق ، حتى تخف وطأة جنود الحكومة على الأهلين . واتصل خبرهم بشريف باشا المصري والي الشام بوشاية احد مشايخ الدروز فأرسل عليهم فرقة من عسكره احاطت بهم في منزل كانوا فيه . وكان حسين بك الشبيب مريضاً مدنفاً فأوعز لأخيه محمد علي بك ان ينجو بنفسه فخرج من الدار وبيده (القرابينه [١]) يهدّد بالموت كل من يدنو منه ، فاخترق صفوف الجند وهم لا يعرفونه يتبعه جماعة من رجاله فيهم نصر الله نمنوع من المروانية وايوب عليق ونصر الله زهذون من يحمر . ودخل الجند البيت فكان من السهل القبض على حسين بك لشدة مرضه ، وبقي معه جماعة من رجاله وبينهم شاب وافر المروءة يدعى موسى قليط من قرية (ياطر) جنوبي جبل عامل . وسأل قائد الجند عن محمد علي بك بعد ان قبض على حسين بك وخشي موسى قليط ان يتعقبوه فقال : انا هو . وكان يشابهه شكلاً ؛ فقبضوا عليه وساروا بهما الى دمشق . فأمر شريف باشا بشنقهما . ونجا محمد علي بك بنفسه وعاش بعد

---

(١) قرابينة كلمة تركية تطلق على نوع من السلاح الناري واسع الفم قصير الانبوب .

هذه الحادثة اربعين سنة بمروءة ذاك الفدائي موسى قليط .

وتتبع الامير الشهابي زعماء الشيعة يريد التنكيل بهم ويضيق عليهم الخناق. فقبض على الشيخ فضل حفيد الشيخ حيدر الفارس حاكم بلاد الشقيف وزعيم الصعبيين خلال زيارته له في عيد والقاه في السجن اشهراً بحجة انه لديه ودائع للشيخ بشير جنبلاط . ولما لم ينل منه شيئاً اطلق سبيله بعد ان جرعه من العذاب الواناً . ثم ذهب بعد ان افرج عنه الى مقـــام النبي يوشع فأقام في الحضرة ستة اشهر متعبداً ، وبنى فيها غرفتين على نفقته .

الحكومة الاقطاعية الثالثة - ثورة حمد البك - انضمام الشيعيين للحملة العثمانية ضد المصريين .

ومما اجمع عليه الباحثون ايضاً وسطرته كتب التاريخ ان احتلال المصريين للاقطار السورية في سنة ١٨٣٢ م قضى على الفوضى والاحكام الجائرة التي كانت سائدة في عهد آل عثمان فانتشر الامن وعم العدل وتألفت المحاكم لتأمين الناس على حقوقهم .

وقد سردنا بعض اخطاء المصريين وما عقبها من الثورات الاهلية التي لعبت بها اصابع الانكليز وغذوها بالمال والسلاح . ومن تتبع سير سياسة الانكليز في الشرق منذ رسخت اقدامهم في الهند وتمتعوا بخيرات ذلك القطر الشاسع ، وما يصرفونه من جهود لبسط نفوذهم وسيطرتهم على السبل المؤدية اليها سواء بالحكم المباشر او الحماية او الانتداب ، لا يحتاج لعناء كثير في معرفة الدواعي التي جعلتهم يقفون لمحمد علي باشا بالمرصاد ،ويضعون في طريقه العقبات . وقد مرَّ بنا ايفادهم (المستر ريتشارد) ترجمان سفارتهم في الاستانة الى لبنان ليتعلم اللغة العربية في الظاهر . وقد اقام سنتين تلميذاً يدرس (الاجرومية) عند احد الكهنة ويدس الدسائس وينصب الاشراك للمصريين في الباطن . ولا يفوتنك ان ساسة انكلترا، وهم ادهى ساسة العالم وادقهم فكراً وابعدهم نظراً واطولهم اناةً ، يضعون الخطط السياسية ويحكمون روابطها ثم يسيرون على منهاجها في

مراحل. ولا فرق عندهم ان يتمّ تنفيذها في عام او عشرة اعوام او مائة عام. ومهما تقلبت الوزارات وتعددت الاحزاب واختلفت النظريات فسياستهم الخارجية ثابتة لا يحيدون عنها بمقدار شعرة الا عند الضرورة القصوى .

ثورة حمد البك

لم يكن لدسائس الانكليز تأثير في ثورة جبل عامل ، ولم تشب نارها إلا بسوء ادارة المصريين الذين اوكلوا ادارة البلاد للامراء من آل شهاب مع العلم بما بين البلدين (عامل ولبنان) من خلاف قديم واحن واحقاد . وكانت سياسة المصريين في جبال بني عاملة ، او مع الشيعيين على الاطلاق ، غيرها في بقية البلدان التي شملها عدلهم وعمّ انحاء سوريا ولم يظهر له اثر في بلاد الشيعة .

لقد صوّرها الشهابيون في عيون المصريين بلاداً ثائرة وشعباً متمرداً يجب ان يحكم بالشدة والبطش . فصبّوا عليها غضبهم ، ونكّلوا بالزعماء والاعيان ، وزجّوا معظمهم في اعماق السجون .

قامت الثورات في جبل عامل (والضغط يولد الانفجار) ، ودافع الشيعيون عن كرامتهم ، وقاتلوا قتال المستميت. فمن ثورة حسين بك الشبيب واخيه محمد علي بك وقد دامت ثلاث سنين كما مرّ ، الى ثورة حمد البك التي شبت في ظروف مناسبة وكانت واسعة النطاق محكمة التدبير فرافقها الفوز والنجاح كما سيجيء .

كان حمد البك المحمود ، وهو اشهر زعيم من آل علي الصغير بعد ناصيف النصار ، يرقب الحوادث بعين يقظى ويتحيّن الفرص للانتقاض على المحتلين . حتى اذا رأى بارقة امل ودبّ الوهن بالحكومة المصرية ، واتفقت الدول في مؤتمر لندرا في تموز سنة ١٨٤٠ م على انتزاع سوريا من محمد علي باشا واعادتها للحكم العثماني ، ووصل الجيش التركي الى حلب براً تظاهره اساطيل انكلترا بحراً ؛ رفع حمد البك علم الثورة ، واصطدم بالأمير مجيد الشهـــابي (عند جسر القاقعية) وكان هذا ينوي الهجوم على جبل عامل الجنوبي

فردّه على أعقابه . ثم سار بفرقته فانضم للجنود العثمانية وكانت وصلت الى حمص واظهر ضروباً من البسالة والتدبير الفتت نظر عزت باشا قائد الجيش التركي العام . فاستدعاه واثنى عليه وعينه حاكماً على جبل عامل بلقب شيخ مشايخ بلاد بشارة . وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب .

عاد حمد البك الى جبل عامل وانقضّ على الجيش المصري فاشتبك معه في عدة معارك : في رميش ووادي الجبس وشفا عمرو فكان النصر حليفه . واستولى على صفد ، وعين الشيخ حمد الغزي وكان من اخصائه حاكماً لها كما انه استولى على طبريا والناصرة واجلى عمّال المصريين منها . وتولى اخراج الاسارى والسجناء الذين حشرهم المصريون في سجون عكا .

وفيما يلي نصّ الخطاب الذي ارسله الى حمد البك (جوقدوش باشا) احد القواد العثمانيين :

« افتخار العشائر الكرام حضرة متسلّم بلاد بشارة بك عالي قدر حفظه الله . قبل تاريخه اصدرنا لجنابكم اوامر كافية بشأن سرعة توجهكم نواحي صفد . ومن حيث وردتنا اخبار الآن عن عزم ابراهيم باشا بالقيام من الشام والمرور من نواحي جسر بنات يعقوب اقتضى ، والحالة هذه ، اسراعنا باصدار امرنا تكراراً لجنابكم لكي بحال وصوله اليكم تقوموا حالاً بجميع خيلكم وزلمكم الى صفد . ومتى بلغكم قدوم ابراهيم باشا سواءً كان من نواحي جسر بنات يعقوب او من جسر المجامع ، يلزم منكم بالحال والساعة تسرعوا بكامل جيوشكم لضربه . وتتبعوا اثاره اينما توجه ، وتبطشوا به وبالاكثر ليلاً . ولا نقبل لكم عذراً كلياً عن عدم قيامكم عاجلاً ، حيث هذه آخر الوقعات . ونحن بحوله تعالى عازمين على القيام بالذات لصفد ولا يلزم زود تأكيد عن ذلك اعتمدوا امرنا هذا والله تعالى يحفظكم . (انتهى)

في ٦ اذار سنة ١٢٥٦ هـ محل الختم

ولشعراء جبل عامل قصائد غراء في مديح حمد البك بعد انتصاره على

المصريين ، وصفوا فيها تلك الحرب الدامية وما اظهره من الشجاعة والتدبير . وقد الم بعضهم بحالة البلاد التعيسة في ذلك العهد وكيف كان حكامها يجرعون الاهالي مرارة الصبر لاخماد جذوة حماسهم واضعاف شأنهم فلم يظفروا ببغيتهم ، ولم ينتج عن هذا السلوك الملتوي الا ازدياد البغضاء وامتلاء القلوب غلا وحقداً .

ومن الغريب ان المصريين لم يدرسوا نفسية الشعوب والعناصر التي دخلت تحت حكمهم درساً وافياً يتيسر لهم معه حكمها على خطط حكيمة ملائمة لحالة العصر : بل كانت سياستهم تدور على السيف والنار ، اعتداداً بقوتهم ونظام جندهم ، واستخفافاً بشؤون البلاد واهلها من زعماء واعيان ويعود السبب على الارجح لانشغال محمد علي باشا بسياسة الفتح والتوسع التي اخذت بلبه ، وطموحه الذي لم يكن له حد ، ورغبته في انشاء دولة عظمى في الشرق الاوسط . وكانت انتصارات نجله ابراهيم باشا واكتساحه الممالك ، وتقدمه السريع نحو عاصمة آل عثمان ، يزيده رغبة وأملا . وقد استغرقت هذه الاحلام وقته ، فلم تبق له سبيلا للتفكير في ادارة سوريا ففوض امرها الى شريف باشا والامير بشير الشهابي .

ومن لوازم الفتح والتوسع اعداد المال والرجال فالتجأ الخديوي لفرض الضرائب ومضاعفتها، واتخاذ السخرة ، وتجنيد السكان لامداد جيوشه المتوغلة في الاناضول وكان شريف باشا حكمدار ايالة الشام ينفذ اوامره بشدة وقساوة ولا قانون عنده الا السياط والرصاص .

لقد سكر الفاتح بخمرة النصر الذي احرزه في جميع المعارك التي نازل فيها الترك . فاستولى على امصارهم مصراً بعد مصر، ودك قلاعهم وحصونهم، وهزم جيوشهم الجرارة ، فدب الرعب في قلوبهم ، فكانوا يفرون امامه فرار الغنم من الذئاب . وساعدته الفوضى التي استحكمت حلقاتها في ممتلكات آل عثمان ، والفساد الذي نخر دوائر الدولة قبل عهد السلطان محمود الثاني ،

فمهدت الطرق لجيشه الباسل الذي كان يسير على اساليب حربية لم تعرف في الشرق وضع خططها قواد فرنسيون من تلامذة نابليون الاول كالكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوي » ودي سيرزي منشيء البحرية .

وقد رووا من ضروب بسالته اموراً لا تكاد تصدق لولا اجماع المؤرخين على صحتها . فمنها : ان جيش الاتراك في معركة (قونيه) كان لا يقل عن مائة وخمسين الف مقاتل ، وقوات ابراهيم باشا لا تزيد عن اثني عشر الفاً ، وقد اصطدم بهذا الجيش القليل ذاك الجيش الكثيف فبدّد شمله ، وهزمه شرّ هزيمة ، واسر قائده العام الصدر الاعظم محمد باشا الذي غشي الضباب على عينيه ، فسار على غير هدى ، فسقط في المعسكر المصري اسيراً وارسل الى مصر وكانت هذه الحادثة وخيانة احمد باشا اميرال الاسطول التركي وابحاره في ٢٤ ايلول سنة ١٨٣٩ م الى الاسكندرية وتسليمه (الدونتمه) العثمانية (اي الاسطول البحري) الى محمد علي باشا سبباً لازدياد الكرب على السلطان محمود الثاني فمات غماً .

الاسباب التي دعت الشيعة للانضمام للاتراك :

ولا بد لنا من كلمة توضح الاسباب والدواعي التي دعت العامليين لتبديل خطتهم القديمة وتقاليدهم التاريخية التي درجوا عليها من مناوأة حكام الترك وعدم الاعتراف بسلطتهم . واشتباكهم بحروب دامية مع ولاة عكا وصيدا ودمشق . وقد تكلمنا عنها آنفاً .

غير ان الباحث المدقق اذا استعرض الحوادث لا تخفى عليه الاسباب التي الجأتهم لهذا الانقلاب الفكري الذي تكاد تنحصر اسبابه بأخطاء الشهابيين وما تركوا من أثر غير محمود في جبل عامل. ولهذا السبب نفسه كان العامليون في جملة من عضدوا الدولة العثمانية واجابوا طلب رجالها . فوقعوا العرائض ورفعوها للباب العالي ضد الشهابيين ، ولهم عذرهم فيما صنعوه لما اصابهم في عهدهم من ضيم وجور .

واليك صورة الكتب التي ارسلت لحمد البك والعريضة التي رفعت بحق الامراء الشهابيين .

قال المؤرخ مشاقة في تاريخه صحيفة ١٣٩ :

«هذا صورة كتاب ارسله علي بك خزينة دار ومصطفى باشا حاكم جبل لبنان الى حمد البك شيخ مشايخ بلاد بشارة وضمنه صورة عرض حال يطلب به ليس ان يختمه فقط بل ان يسعى بتختيمه من كل شيخ وعامي يقدر على حفر ختم طعناً على آل شهاب ليس ضمن الجبل بل بسوريا كلها .

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا حمد البك حفظه الله تعالى

غب ابلاغ التحية والسؤال عن خاطركم بكل خير وعافية ، المبدي لحضرتكم انه بحسب الاعتماد على صداقتكم ، واستقامتكم الاكيدة. والآن نوجه اليكم من عربي كاتبي الخواجه جبرايل العورة فبوصوله لديكم تعتمدوا مآله ، وتظهروا همتكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفه لكم ، وتهتموا بانجازه وارساله الينا مع الجواب لطرفنا ، بحيث مرسالكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحله او في بلاد جبيل . وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم باقرب وقت تتموا المصلحة طبق التعريف ودمتم » .

في ٣ جماد آخر ١٢٥٨	علي بك	الختم
	خزينة دار	مصطفى باشا

وهذه صورة تحرير مرفوع من جبرايل العورة الى الزعيم حمد البك :

« سني الهمم سلطانم

غب تقديم الدعاء بدوام بقاكم ، نعرفكم الآن واصل طيه فرخين ورق كبير على بياض وصورة عرضحضر الى حد الورق البياض فيه الكتابة وعلامة علات الاسماء والاختام . فالقصد بذلك ان بحال وصوله تحرروا العرضحضر ، وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمه من مشايخ المتاولة جميعهم ومن مشايخ القرايا

الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع . غير ان لا تدعوا احدا من مشايخ العشائر وشيوخ القرايا اسلام ونصارى الا وتختموه منه . وبالخصوص تجتهدوا على تكثير اسماء النصارى . والذي ليس له ختم تدعوه بالحال على عمل ختم وتختموه منه .

« واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة لما به البولتيكه والتنازل لكاين من كان . بحيث لا تخلوا احد من وضع اسمه وختمه . وهذه تعد لجنابكم عند دولتها مصطفى باشا وعلي باشا من اعظم الخدمات المقبولة . وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما تأملونه . وهذا وقت اكتساب الفرصة » .

عل الختم

وهذه صورة العرضحال الذي كان الاتراك يرغبون من القوم ختمه على الصورة الموضحة فيما تقدم :

« انه كما مشهور وصار مشاهد بالعيان وتحقق من وجود ادارة الدولة العلية في حكومة لبنان قد حصلت اهالي الجبل المرقوم عموماً على غاية الامنية والراحة والرفاهية والعدل والانصاف . بنوع انهم من حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولاده واقاربه خصوصاً الامير امين بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم الذين ملأوا الجبل شروراً وجوراً رأته نظير بلادنا وغيرنا من البلاد المجاورة لهم من التعديات والمظالم المتنوعة . فقد خرجت الاهالي والسكان من العتم الى النور بوجود ادارة الدولة العلية ومن دهر الظلم والجور الى ساحة العدل والامان . فنظراً الى عدالة الدولة العلية وانصافها الذي عمّ العالم بأسره ، فبمقتضى عدالتها وانصافها المرحمة بعبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام الشهابيين بوجه الاطلاق . بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام ولا عيسويون عملاً بمرضاة الباري تعالى جل جلاله لرحمة عبيدها ودوام استخلاصهم لعتقهم من احكام الشهابيين

ومظالمهم المتنوعة ، واتباعاً للحديث الشريف : كلهم راعٍ وكل مسؤول عن رعيته .

« وحيث انوجدنا نحن المجاورون للجبل ولنا الاطلاع التام على احواله ، وأخذنا وعطانا مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير . فان ذات ادارة احكام الدولة العلية في جبل لبنان يعمنا جميعاً من الامان والراحة ، وان لا سمح الله تغير ذلك بعده فنحصل على الاتعاب والمشقات . لأجل ذلك بسطنا الآن عرض عبوديتنا هذه ، ونسترحم بها من الاحسان الملوكية والمراحم الشاهانية النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين الاشفاق والمراحم وبقاء احكام الدولة العلية في جبل لبنان ، وعدم النظر والالتفات الى الحركات من المفسدين الذين يسعون بسلب الراحة وامنية عموم الاهالي والفقراء ، ويدبرون عرض حالات التزوير بالتماس ارجاع احكام الشهابيين . لان ذلك موافق لغاياتهم الرديئة ومغاير اتصاف عدالة الدولة العلية . وحاشاها ان تهمل دوام راحة رعاياها وتنظر لتزوير هؤلاء . والامر لمن له الامر افندم . »

[انتهى بحرفه عن كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام صحيفة ١٠٣ وعن تاريخ مخايل مشاقة صحيفة ١٣٩] .

حمد البك الحاكم العام بعد المصريين في جبل عامل :

ولما انقضى امر المصريين وعادت البلاد الى حكم الاتراك اغدقت الدولة على حمد البك العطايا : فأهدت اليه سيفاً مرصعة قبضته بالجواهر باسم الحضرة السلطانية ، ووجهت عليه رتبة (اسطبل عامرة مديري) ، وفوضت اليه حكومة جبل عامل كما كان اسلافه من قبله . واهداه شاه ايران : شالاً من الكشمير الثمين ، وطائراً من البزاة . وانتدبته الدولة لتأديب عرب اللجا في حوران ، وقد نبذوا الطاعة ، فجهز حملة من جنده وانصاره وعسكر على الحدود غير ان اشتباك الدولة مع الروس في حرب دامية حملها على العدول عن عزمها وتغيير خطتها . فأوعزت اليه بالكف عن الثوار فعاد الى

تبذين بعد ان نال ثقة رجال الدولة وثناءهم . وفيما يلي نص رسالة ارسلها اليه محمد باشا القبرصي وكان يومئذ مشيراً [لاوردو عربستان] وتولى بعدها منصب الصدارة العظمى :

« غب التحية الوفية والتسليمات البهية . ان بتاريخه ورد تحريركم الجالب السرور وحصل بـه كال الانس والحبور بما افاده من نيلكم رتبة -- مديرية اصطبل عامرة شاهانية – بغاية الاحسانات العميمة الملوكانية . وفي الحقيقة ان ذلك من ثمرات شجرة صداقتكم المعهودة، ومكافأة لما قد ابرزتموه في خدمة الدولة من الغيرة المشهودة . بناء على تكرر تقديم الانهاء من طرفنا بمسارعتكم لخدمة الدين والدولة وقت سوق الاردو الهمايوني لانفاذ الارادة السنية ، وما اجريتموه حينئذ من الهمة الخالصة الوفية ، ومن كان مثلكم من عبيد الدولة العلية المتصفين بالصدق والاستقامة يستحق فوق هذا من الرفعة والكرامة . فبعون عناية ذي القدرة الصمدانية ، وولي نعمة العالم والبرية ، لا تزالون مشمولين بالرضا السامي الملوكاني ، حائزين الترقي وبلوغ الاماني ، الى ان نهنيكم برتبـــة الوزارة العظيمة المقدار في ظل صاحب الشوكة والاقتدار . والآن بناء عليه وخاصة لتهنئتكم بهذه المسرة حررنا لكم شقة المحبة والخلوص فواصلونا بمشعرات صحتكم المرغوبة مع افادة المهام المطلوبة ودمتم » .

عن الشام في ١١ ربيع اول سنة ١٢٦٩ محل الختم

الفصل السابع

الخلاف بين زعماء جبل عامل - سقوط الحكومة الاقطاعية الثالثة طي صحيفة استقلال جبل عامل الداخلي - زوال الحكم الاقطاعي

بعد وفاة حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ - ١٨٥٢ م خلفه علي بك الاسعد بمعاونة محمد بك الاسعد اخيه وساعده الايمن . وقد ذكرنا الشيء الكثير عما بلغا من العز والصولة وكثرة الاتباع في ترجمة حياة علي بك في فصل مشاهير آل علي الصغير. وكيف ساد الامن، وزهى الادب العاملي، وانتعشت اقتصاديات البلاد، ونمت ثروتها الطبيعية . وكذلك ذكرنا ما كان بين علي بك الاسعد وبين ابن عمه تامر الحسين من خلاف قديم وتنافس شديد على الزعامة ورآسة العشائر وما نتج عن هذا الخلاف . « راجع ترجمة حياة تامر الحسين في مشاهير آل علي الصغير » ثم استدعاء علي بك ومحمد بك الى دمشق من قبل واليها (شرواني زاده محمد رشدي باشا) بحجة اعطائهما بعض الاوامر المقتضية فوافياها وقد داهمها الوباء الاصفر فلم يلبث الاول ان قضى نحبه في ربيع الاول ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م وتوفي الثاني بعده بأربعة ايام وقيل ماتا مسمومين .

ولا يفوتنا الذكر ان هذه العشيرة قد استفحل امرها في عهد رجالها المذكورين ، وراق لهم الزمن ، وطاب العيش ، واصبحت قصور تبنين محط

الرحال ومقصد الوفود . فبسطوا نفوذهم على الامصار المجـاورة وانشأوا علاقات ودية مع امراء البادية ومشايخ القبائل كآل المزيد رؤساء عشيرة بني حسن من عنزة ، وآل الدوخي رؤساء قبيلة ولد علي من عنزة ، وآل الخاسي رؤساء الهوارة والهنادي .

وكانت حكومة الايالة في بيروت تستعين بهم لقمع الثورات واخماد الفتن التي تحصل في انحاء البلاد فمنها : ثورة جبال النصيرية التي قامت ضد الدولة في ذاك العهد بدسيسة اجنبية وعلى رأسها اسماعيل خير بك والدرواش بك الزعيم النصيري الكبير (ورئيس عشيرة المتاوره) المعروفة بشدة البأس ووفرة العدد ، فقد اخمد علي بك هذه الثورة بحكمته دون اهراق دماء وجاء بالزعيم العلوي الى مركز الايالة يقدم خضوعه لرجال الدولة .

وصد عشائر الهوارة والهنادي في اشتباكهم مع الاكراد الذين كان يقودهم محمد سعيد باشا شمدين امير الحـاج الشامي في معركة (صفورية) في فلسطين ، وكانت الغلبة للاولين واستنجد محمد سعيد باشا بعلي بك الأسعد فأنجده بفرقة من خيله عسكرت في ارض الخيط . وألجأ الهوارة والهنادي لمصافاته .

واصلح بين آل المزيد وآل الدوخي، المار ذكرهم، وحسم ما بينهم من خلاف . وعقد بيده راية الصلح التي كانت ولم تزل من خصائص آل علي الصغير منذ زمن قديم الى يومنا هذا .

ووقف مع سائر عشائر جبل عامل موقفاً شريفاً في الحرب الأهلية التي شبت بين الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ م . فالتجأ كثيرون من منكوبي المسيحيين اللبنانيين الى جبل عامل فحلوا فيه ضيوفاً على الرحب والسعة ، فحماهم الشيعيون وآووهم، ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً لم يزل يذكره فضلاؤهم الى اليوم .

وحاول محمد بك الاسعد ان ينتصر للمسيحيين ويكبح جماح الدروز لما هاجموا جبيع ، آخر بلاد الشيعة الشمالية ، ونهبوا الاموال والامانات التي كان اودعها المسيحيون النازحون في دار العلامة الاكبر الشيخ عبد الله نعمة . فاهتز الجبل بأمره وأسرع محمد بك على رأس الف فارس الى جبيع لمهاجمة الدروز غير ان سياسة الدولة يومئذ قضت بايقاف الهجوم ، وحال دونه خورشيد باشا والي ايالة صيدا فسوّى القضية وأعاد المنهوب .

زعماء جبل عامل في حضرة فؤاد باشا :

قدم سوريا في سنة ١٢٧٧هـ – ١٨٦٠م فؤاد باشا السياسي التركي المعروف ووزير الخارجية العثمانية يومئذ ، والذي ارتقى بعدها منصب الصدارة العظمى. وقد ارسلته الدولة مندوباً فوق العادة لاصلاح شؤون سوريا اثر الحرب الاهلية التي شبت بين الطوائف في لبنان ودمشق ووادي التيم .

ووفد عليه زعماء جبل عامل برآسة علي بك الاسعد ومعه اكثر من الف فارس من خيرة فرسان جبل عامل الشيعة وابطالهم . فاكرم الوزير وفادتهم ، واثنى على طاعتهم ، واحتفى بعلي بك واعلى مجلسه ، وعينه عضواً مستشاراً في المجلس الاعلى الذي اختاره للنظر في شؤون سوريا والتحقيق في الفتن التي ثارت فيها . واوكل اليه حفظ الامن في ضواحي دمشق وحوران ووادي التيم ، وحماية منكوبي المسيحيين وتأمين نقلهم الى السواحل ، ومطاردة الثوار الفارين . فقبضوا على جماعة منهم حسين بك جنبلاط احد قواد الثورة وعوتبوا على ذلك فأجابوهم يومئذ – حسين بدل من حسين – ويراد بالثاني حسين بك الشبيب الذي قبض عليه بوشاية احد مشايخ الدروز في عهد المصريين (وقد مرت حادثته) .

وفي تلك الايام ابدل زعماء العشائر زيهم القديم ولبسوا الطربوش العزيزي بدلا من الطربوش المغربي الذي كانوا اتخذوه غطاء للرأس ، ونزعوا العمائم



شيخ محمد حسن الادري











في الوسط [illegible]
[illegible]

من عهد المصريين ثم خلعوا السروال العريض المتخذ من الجوخ او الصوف والدامر القصير ، ولبسوا الملابس الافرنجية كما هو زي اليوم اقتداء بفؤاد باشا . عدا تامر بك الحسين فقد بقي بلباسه العربي حتى وافاه الاجل .

ويحدثنا رواة ذاك العصر ان فؤاد باشا لم يرق له نفوذ علي بك الاسعد ووفرة جنوده وصولته . وكانت الدولة قد بدأت باصلاح نظام الادارة والغاء الحكم الاقطاعي . غير ان حراجة الموقف ، واشتعال البلاد بالثورات الاهلية ، وما اتخذه علي بك من الاحتياط والحذر من غدر الترك ، دعاه لتأجيل اغراضه لوقت مناسب . وكان يلاطف علي بك ظاهراً ويطري اخلاصه . وقد استصدر له الارادة السنية السلطانية بتلطيفه برتبة (قبوجي باشي) في حين كان يرسم الخطط سراً لقلب حكومته والقضاء على نفوذه .

استغلال الخلاف بين علي بك الاسعد وتامر بك الحسين :

وقد استغل فؤاد باشا ومن خلفه من رجال الدولة الخلاف المستحكم بين علي بك وتامر بك الحسين . فاخذوا يذكون ناره ، على عادة ساسة الترك ، وسيراً على قاعدتهم المعروفة : فرق تسد . وقد فصلنا اسباب الخلاف ودسائس رجال الدولة في فصل سابق .

وبعد ان اعتقل علي بك ومحمد بك من قبـــل الوالي خورشيد باشا بوشاية من اخصامهما ، والغاء الباب العالي لايالة صيدا وضمها الى ايالة الشام تحت اسم ولاية سوريا ، وجعل بيروت متصرفية تابعة للشام ، ثم استدعائهما لدمشق من قبل واليهـــا يومئذ شرواني زاده محمد رشدي باشا ووفاتهما . ادرك تامر بك الحسين مقاصد رجال الدولة . فعرض على ابناء عمه مساعدته والقيام بثورة ضد السلطة فأبيا عليه حتى لا يزيد الخرق اتساعاً .

وسقطت الحكومة الاقطاعية الثالثة . وانتهت بانتهـــاء حياة علي بك الاسعد حياة جبل عامل السياسية . وزال الحكم الوطني الاقطاعي من البلاد .

وحكمها الترك حكماً مباشراً الى ان انتهت الحرب العظمى .

وكانت وفاة الزعيمين العظيمين ، وتنحية زعمـــاء الاقطاعات عن مناصبهم ، ضربة اليمة على الشيعيين . وفقدت الطائفة تلك العزة والمنعة وذلك الاستقلال الذاتي الذي تمتعت به زمناً . وكثر بعدها ادعياء الزعامة ومدّعو الرئاسة .

الـــدور الثـالث

الفصل الاول : الحالة السياسية في العهـد التركي المباشر – القضية العربية وجبل عامل – الجمعيـــات العربية ومؤسسوها – الثورة العربية – الحركة العربية في جبل عامل – الثورة ضد الاحتلال الفرنسي .

الفصل الثاني : الحياة العلمية في العهد القديم ، المدارس – حادثة الخيام بين الشيعة والدروز – مشاهير العلماء في العهد الاول والثاني والثالث .

الفصل الثالث : الهجرة العاملية الى وراء البحار .

الفصل الأول

في حالة البلاد السياسية والاجتماعية وتطورها في العهد التركي المباشر. وفيه الكلام: عن ضغط الترك، وظهور الحركة العربية، وانشاء الجمعيات الوطنية السياسية والادبية العلمية.

مدة هذا الدور من سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٣م الى سنة ١٣٣٦هـ -١٩١٨م
وفيه حكم الاتراك البلاد حكماً مباشراً حتى السنة التي دالت
فيها دولتهم من الديار العربية وانتهى حكمهم بانتهاء
الحرب العظمى وانفراط عقد الامبراطورية العثمانية

طويت صحيفة استقلال جبل عامل الداخلي في سنة ١٢٨٢هـ بزوال الحكم الاقطاعي. وكانت في اواخر عهده ناصعة البياض، جليلة الاثر، حافلة بالحوادث الجلّى والاعمال النبيلة. وحكم الترك البلاد حكماً قاسياً شديداً مدة تزيد عن الخمسين عاماً، وعبثوا بكيانها، وفرقوا كلمتها. فتأخرت اشواطاً الى الوراء بعد ان كانت في الطليعة.

وكانت في ايامها الاخيرة تثب وثبات الانتقال من عهد الفوضى الى عهد التنظيم، ومن عيش البداوة الى عصر التمدين والاخذ باساليب الرقي العصري. فقطع عليها الحكم التركي الطريق، وزجّ بها في هاوية التقهقر والانحطاط.

عمد الاتراك العثمانيون الى الزعماء وذوي الاقطاعات من رؤساء العشائر فأقصوهم عن الحكم والسيطرة على الشعب. ومنحوا صلاحية واسعة للوجهاء

وزعماء الامر من الدرجة الثانية . وكانوا لا يردّون لهؤلاء طلباً بشأن تنصيب الحكام وعزلهم . واغروا كل فئة بالاخرى ليتسنى لهم حكم البلاد على هواهم وكما يبتغون .

ثم ساروا على سياسة الافقار ، وضربوا اقتصاديات البلاد ضربات أليمة . فوضعوا الرسوم على الاراضي بعد وضع قانون المساحة والتمليك . ونوعوا الضرائب : بين (ويركو) رسم مقطوع على الارض مطلقاً ، (واعشار) رسم على نتاج الارض والشجر بطريق الالتزام ، وضريبة المسقفات (على الدور والبيوت) وبدلات طرق (على كل شخص ذكر بلغ السادسة عشر من عمره الى الستين ان يشتغل اربعة ايام باصلاح الطرق التي تنشئها الدولة ، او دفع ستة عشر غرشاً اميرياً ، وويركو شخصي (او تمتع رسم على التجار) والبــاعة . وكانت الحكومة التركية تسير بهذه القوانين على غير هدى ، وفيما لا يتفق مع نصوصها مع ما منيت به من فساد واختلال وضمائم وملحقات . ثم قضت على زراعة التبغ بالحصر ، ومنحت احتكارها للشركات الاجنبية ، وكانت المورد الوحيد لجبل عامل من زمن مديد ، اذ لم يكن للحبوب اسواق رائجة في خارج البلاد فتعطلت الزراعة ، وبارت الارض ، وكثر البطالون ، وانتشرت مع هذه العوامل الاخلاق الفاسدة ، والاميال الشريرة امتدت ايدي اللصوص وقطّاع الطرق الى مال الشعب البائس . فاختلّ الامن وسادت الفوضى ، ووقعت البلاد في فقر مدقع وضنك شديد ويطول بنا الشرح اذا بسطنا اضرار تلك الضرائب ولا سيما الاعشار وما كان يرافقها من ظلم وفظائع كقطع الاشجار والاقلاع عن زرع الارض تخلصاً من الظلم والجور . يضاف اليه مما كان يبتزه عمال الدولة من مال الشعب بطريق الرشوة لارهاقه واجاعته وافقاره .

التجنيد والنظام العسكري في ذلك العهد :

وكان النظـــام العسكري الذي سنته الدولة في أوائل حكم السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود سنة ١٢٥٥ هـ ، وبدأت بتطبيقه في جبل عامل

بعد زوال الحكم الاقطاعي في سنة ١٢٦٠ هـ سبباً متمماً لخراب البلاد ، وضربة قاضية على ثروتها.

وضعت الحكومة قانون التجنيد الاجباري واسمته القرعة المحمدية (كذا). وفرضته على الطوائف الاسلامية ، وأعفت منه الطوائف غير المسلمة . وكانت تتقاضى من هؤلاء مالاً ضريبة سنوية تسمى (العسكرية) لا قاعدة ولا اصول لها . ومدة التجنيد عشرون سنة : ستة منها تدعى عسكرية او احتياط وثمانية رديف وستة مستحفظ . وقلما كانوا يتقيدون بهذا القانون فربما قضى العسكري الجند في الدرجة الاولى مدة تزيد عما نص عليه القانون تتراوح بين عشر سنين وخمس عشرة سنة بالرغم عنه .

ووضعت ايضاً قانوناً بقبول البدل النقدي ممن لا يرغب الانتظام في السلك العسكري . فجعلته لاول مرة ماية ليرة ، ثم ثمانين ، ثم خمسين ليرة ذهبية عثمانية عن سني العسكرية الستة فحسب . وكانوا يقبلون بدلاً شخصياً عن الرديف والمستحفظ .

ثم ابدل هذا النظام بنظام ثان جعلوا فيه الخدمة على اربع مراحل بدلاً من ثلاث :

١ – الخدمة الفعلية ، ومدتها ثلاث سنوات . وتبتدىء في ايام السلم عند بلوغ المكلف الاحدى والعشرين .

٢ – الخدمة الاحتياطية ، ومدتها ست سنوات . يدعى المكلف في خلالها الى الخدمة عند الحاجة .

٣ – الرديف ، ومدته عشر سنوات . ولا يدعى عادة الا عند الحاجة الشديدة وبعد دعوة الاحتياطي .

٤ – المستحفظ ، ومدته خمس سنوات . ولا يدعى رجاله الا في ابان الحرب وعند الضرورة القصوى . ويستخدمون عادة في الخدمات البسيطة لكبر

سنهم . وما كانت الحكومة التركية تجندهم الا في نهاية الحرب وعند خلو البلاد من الجند . فتعهد اليهم بحفظ الامن ومعظمهم من الشيوخ الضعفاء الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية الشاقة . (انتهى)

وكانت النتيجة ان البلاد خسرت مالها ورجالها. فالاغنياء ضنوا بنفوسهم عن إلقائها في آتون هذه الخدمة الشاقة فافتدوها بالمال مما جمعوه بكد يمينهم . والفقراء كانوا يساقون كالسوام الى شقاء دائم ، وموت محقق . لا سيما اذا كان السفر للبلاد اليانية التي لم تهدأ بها الثورات والفتن منذ احتلها الاتراك. وهكذا ضاعت النفوس والأموال ولم يبق في البلاد الا العاجز الكسول والمشوه الخلق.

وكانت الأنظمة والقوانين التي تصدرها الدولة حبراً على ورق ، يفسرها عمالها كما يشاؤون . وفتحت ابوب السلب والرشوة على مصراعيها. وقلما كنت ترى او تسمع بموظف نزيه عفيف الا ما شذ وندر. وكان كبار الموظفين يضغطون على صغارهم فيدفعونهم دفعاً لنهب الاهلين وسلب اموالهم . وكانوا في الغالب لا يسمعون لمظلوم شكوى في حق احد الموظفين . ولا يفكر حاكم باصلاح . وكاد الشعب في اواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني ان يلفظ انفاسه الاخيرة.

هذا وصف موجز للحالة الادارية في جبل عامل في ذلك العهد . تجارة كاسدة ، وامن مختل ، وزراعة بائرة ، وفقر مدقع ، وعيش انكد .

اما المعارف وحال العلم والتعليم على الاصول الجديدة فلم تكن تعرف قبل عهد مدحت باشا والي سوريا . فهو اول من اسس المدارس الاميرية ، وعنى بنشر العلم واصلاح التعليم . فانشأ المدارس الرشدية (الثانوية) في مراكز الاقضية ، والاعدادية في مراكز الالوية والولايات ، ولم تشمل هذه التنظيمات جبل عامل لاقتصارها على مراكز الحكومة في الساحل . ولم تتأسس المدارس الابتدائية المجانية الا في اوائل عهد الدستور التركي الثاني ١٣٢٧هـ — ١٩٠٨م،

وكان سير العلم والتعليم في جبل عامل مقصوراً على كتاتيب المشايخ لتعليم

القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة والحساب . وكان الناس يعتمدون في تثقيف ناشئتهم على المدارس الاهلية الدينية . وقد تخرج منها فقهاء وادباء وشعراء كثيرون . غير انه في سنة ١٣٠٢ هـ – ١٨٨٤ م انشئت في النبطية اول مدرسة اهلية على الاصول الجديدة يدرس فيها النحو والصرف والتاريخ والجغرافيا واللغة التركية لغة الدولة الرسمية. ومؤسس هذه المدرسة هو المغفور له الزعيم الوطني الكبير رضا بك الصلح الذي تولى حكومة النبطية في ذلك العهد . وقد افادت هذه المدرسة ناشئة النبطية فائدة عظيمة ، وكانت الحجر الاول في اساس النهضة العلمية والقومية العربية في جبل عامل بما كان يبثه ذلك الرجل العظيم من مبادىء عالية ، وتعاليم سامية بين تلامذتها . وقد كان يتولى القاء بعض الدروس بنفسه .

الخلاف بين زعماء جبل عامل :

وازداد جبل عامل شقاء وتعاسة باختلاف زعمائه في تلك الاوقات العصيبة. فلم تحرمه الحكومة التركية البائدة من افضالها بما كانت تبثه من روح العداء بين اهله ووجهائه وزعمائه ، فكما كان الحال من قبل في آل علي الصغير حكام القسم الجنوبي ، بين حمد البيك والشيخ حسين السلمان ، ثم بين علي بك الاسعد وتامر بك الحسين ، ثم بين ابنــاء علي بك الاسعد شبيب باشا ونجيب بك وناصيف باشا ، ثم بين خليــل بك الاسعد وشبيب باشا ، ثم بين كامل بك الاسعد وشبيب باشا ايضاً ؛ كذلك كان في آل صعب حكام القسم الشمالي بين الشيخ حسن حيدر الفارس والشيخ شبيب العلي الفارس ، ثم بين الشيخ فضل الحسن الحيدر وابناء اخيه حسين بك وسعد الدين بك الامين الحسن الحيدر ، ثم بين فرع الشيخ حسن الحيدر وابناء عمهم آل المحمود الصعبيين .

وقد تعدى الخلاف الى طبقات الاهالي فكان في الجنوب بين آل علي الصغير والوجهـاء من آل الزين (شحور) وآل فرحات (ميس وبرعشيت) وآل العبدالله (الخيام) وغيرهم .

وفي الشمال كان بين آل صعب والوجهاء من آل فحص وصفا وجابر وآل القبيسي . وكان على اشده في هذه البقعة فان بعض زعماء الصعبيين اوعز لبعض رجاله باغتيال الشيخ علي القبيسي (زبدين) في وادي الكفور ، وكذا السيد حسن فحص (جبشيت) في وادي العصافير قرب حاروف . واطلق الرصاص على الحاج درويش جابر في غرفة نومه في (ميفدون) . والظاهر ان ذلك كان بقصد الأرهاب والتهويل اذ لم يصب احد ممن ذكرنا بأذى .

ومما لا يختلف فيه اثنان ان هذا الخلاف كان من اعظم الاسباب التي اخرت الطائفة الشيعية وفككت عرى اتحادها . فأضعفت الفريقين المتنازعين، وخلا الجو للحكومة فرسخت قدمها وحكمت البلاد كما تشاء وتريد .

مدحت باشا والي سوريا وعطفه على زعماء جبل عامل

لم تكن سياسة الترك ثابتة في سوريا ولم يكن ولاتهم على نمط واحد . وكان بعض الولاة الذين تعاقبوا على الولاية بعد جلاء محمد علي باشا يحاولون اصلاح البلاد والسير على خطط وضعها المصريون غير ان فساد الحكم الرئيسي ، والدسائس التي كانت تحاك في العاصمة (الاستانة) وهي الرأس ، والرأس اذا اعتل ، اعتل معه سائر الجسد ، كان يصرفهم عن طريق الاصلاح الى الاثرة والاستبداد .

غير ان الحال في سوريا تبدلت تبدلاً محسوساً في عهد ابي الاحرار، وواضع القانون الأساسي العثماني ، وخالع الملوك والسلاطين ، وصديق العرب احمد مدحت باشا . والمقام اضيق من ان نتبسط في تاريخ حياة النابغة العظيم، ونشرح سياسته ومبادءه وتعاليمه وقوة ارادته وبعد نظره ووفور عقله واقدامه ، وما بذله من الجهود في اصلاح شؤون السلطنة العثمانية وكبح جماح السلطان عبد العزيز ، ذلك الملك الجبار، الذي اتسع في زمانه نفوذ الروس . وكان لا يهمه من شؤون الدولة الا تبذير الاموال ، والتمتع بالملاذ . وقد تمكن مدحت باشا بدهائه وحنكته من خلع العاتي وصرم حياته . واتبعه

بأبن اخيه السلطان مراد الرابع بن عبد المجيد لضعفه وعدم كفاءته ، وقيل للوثة في عقله . واجلس بعده على اريكة آل عثمان السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد في سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م وكان مدحت باشا يتوسم فيه النجابة والاخلاص للدستور والرغبة في الاصلاح . وبالفعل نشر في اول عهده القانون الاساسي ، وعقد مجلس المبعوثان بطريق الانتخاب ، وانقلبت الدولة من ملكية مطلقة الى دستورية مقيدة في سنة ١٨٧٦ م .

غير ان الحال لم تطل ، وظهرت نوايا السلطان ، وكرهه للاصلاح ، وميله للاستبداد . وكان سعيد بك رئيس كتاب المابين (مقر السلطان) يومئذ والمعروف بكوجك سعيد باشا اي سعيد باشا الصغير لفرط قصره ، يحرض السلطان على اغلاق البرلمان والتنكيل بمدحت باشا . وقد فض السلطان مجلس الامة ، وشتت احرارهم ، ونحى مدحت باشا عن الصدارة العظمى (رئاسة الوزراة)، ونفاه الى اوربا . ثم استرضاه السلطان مكراً وخداعاً ، واستدعاه من اوربا وعينه والياً على سوريا .

وجاء مدحت باشا الى سوريا واليأس يتنازعه من اصلاح السلطنة . وكانت الدولة قد خرجت من الحرب بعد ظفر الروس واهنة القوى، مبددة الاوصال. وخشي ان يؤول امرها الى الانحلال ، فسلك في سبيل خطته طريقة اخرى ، وحول جهوده الى سوريا ، واجرى ضروباً من الاصلاح وتحسين الادارة ، وضبط الأمن ، وأحياء العدل ، ما يذكر بالأعجاب .

القضية العربية في عصر مدحت باشا

وكان مدحت باشا يميل بطبيعته للتجدد والنظام واطلاق حرية الافكار والاقلام ، محباً للعنصر العربي ، مقدراً لمواهبه اما ارضاء لضميره وعقيدته او لما كان يعلمه من نجابة الامة العربية وتاريخها المجيد . وربما كان يذهب مذهب غيره من كبار فلاسفة الاجتماع : ان نجاح الاسلام بل الشرق كله موقوف على نجاح العرب. فأثار القضية العربية وساعد على انماء فكرة الاستقلال والتخلص

من جور الترك الكامنة في قرارة نفوس زعماء الامة وقادة الافكار منها . وتألفت الجمعية السرية العربية لاستعادة مجد الاسلاف وعزهم البائد ، فنشرت تعاليمها ومبادءها نظماً ونثراً فأحدثت في البلاد ضجة عظيمة وانقلاباً عاماً .

وكان يرى مصر البلد الشقيق تتقدم الى الرقي بخطوات واسعة وسريعة بفضل الاسرة المحمدية العلوية . فحدثته نفسه ان يكون من سوريا خديوية كخديوية مصر . وكان كثير الجرأة والاقدام ، وربما جاهر بفكرته على خطورتها في بعض مجالس الانس والبسط . وبلغ ذلك رستم باشا متصرف جبل لبنان فكتب للباب العالي تقريراً سرياً شرح فيه حركة مدحت باشا . وربما كتب غيره من الجواسيس الذين كانوا يراقبونه عن كثب .

وأمر السلطان بنقل مدحت باشا الى ولاية ازمير اولاً ، ثم اوعز للأمير يوسف عز الدين بن السلطان عبد العزيز باقامة الدعوى على مدحت باشا ثانياً . فاستقدم من ازمير وحوكم امام محكمة مخصوصة وانتهى امره بالنفي الى الطائف ثم الموت شنقاً .

جبل عامل في عهد مدحت باشا :

انتعش جبل عامل في عهد مدحت باشا ، وتوطد الأمن ، وعلق على اعواد المشانق من عبثوا براحة الشعب وسلبوه ماله . وعطف على ابناء العشائر فقربهم اليه ، ومنح الوظائف لزعماء آل علي الصغير ، فشكل قائمقامية مرج العيون ، وكانت ناحية تتبع النبطية ، فضم اليها ناحية جبل هونين ، وكانت ملحقة بصور ، وناحية الحولة وجعل قرية كفركلا التي تبعد بضعة اميال جنوباً عن المركز الحالي مركزاً للقائمقامية ؛ وعين لها المغفور له خليل بك الاسعد . وعين نجيب بك ابن علي بك الاسعد قائمقاماً على صهيون (لواء اللاذقية) . وارتقى خليل بك في مناصب الدولة فبلغ درجة المتصرفية ، وعين للواء البلقاء ، ومركزه يومئذ نابلس . وقلما كان يبلغ هذا المنصب موظف من ابناء العرب وبخاصة ابناء الشيعة .

حمدي باشا بعد مدحت باشا – الدسائس ضد القضية العربية

بعثت الحكومة العثمانية حمدي باشا والياً على سوريا لاخماد الحركة التي اثارها مدحت باشا ، ولاصلاح شؤونها وادارتها بحكمة ودراية. وأناطت مراقبة الحركة السياسية العربية برجال الأمن ، فضاعفوا المراقبة وضيقوا السبل على المشتغلين بالقضية العربية. فانتقل معظمهم الى مصر وأوروبا يجاهدون باقلامهم وبما اوتوا من بلاغة القول ، وقوة البرهان . وكان حمدي باشا من اقطاب السلطنة العثمانية ، ومن الصدور العظام السابقين . ولقبه الرسمي(دولتلو أبهتلو) صاحب الدولة والأبهة وهو لقب كان يطلق على من تولى الصدارة العظمى ونحي عنها . اشتهر باعتداله ونزاهته وتمسكه بروح الشريعة الاسلامية . غير ان نزعته كانت تركية محضة ، وسيره في طريق الاصلاح كان بطيئاً ومرتبطاً بسير العاصمة التي لم تكن تعبأ كثيراً بالطشرة (وهو اسم اطلقه الاتراك على البلاد الواقعة خارج العاصمة) . وكان يرمي بسياسته الى اللين والسلام والمساواة بين العناصر بعيداً عن الاستبداد بالرأي والغطرسة التي كانت لا تفارق معظم حكام الترك. ومما اذكره من حوادث ذلك العهد وكنت وليداً لا اعي السياسة ان هذا الوالي الحميد السيرة كان يشتو في بيروت في عهد المتصرفية حتى اذا انقضى فصل الشتاء عاد الى دمشق مقر الولاية . وقد مرّ بالنبطية في سنة ١٣٠١ هـ – ١٨٨٣ م بطريقه الى الشام فاستقبل استقبالا بسيطاً خالياً من الطنطنة ولم يحشروا له الناس بالأهازيج والطبول كما كان يفعله بعض صغار الاحلام ولم يزالوا الى اليوم .

وفي اليوم التالي لوصوله وكان يوم الاثنين وفيه تقام السوق العامة بالنبطية ، ويجتمع الألوف من اهل المدن والقرى المجاورة للتجارة شاهدنا الوالي يجول في الاسواق على برذون ازرق وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وامامه جندي واحد يفسح الطريق ، وخلفه خادم وضع احدى يديه على كفل البرذون وفي اليد الاخرى كرسي من القماش . واحتشد الناس على جانبي

الطريق يهتفون (الله ينصره) اعجاباً بديمقراطيته التي لم يألفها الناس من الحكام السالفين .

واستقبل وفداً من وجهاء البلدة فاعرب لهم عن اعجابه بموقعها وحركتها التجارية . وقال لهم : سأجعل من بلدتكم قائمقامية صغيرة . وكانت مديرية . وأمر بنقل الحاكم السابق رشيد بك ابظه الى قضاء مرج العيون واختار للنبطية الزعيم المعروف المغفور له رضا بك الصلح وكان في عنفوان شبابه متوقد الذهن ، وافر العقل ، عالي الهمة ، مشبعاً بالافكار العربية ، يتلهب غيرة ورغبة بالاصلاح وانهاض البلاد .

وبعناية هذا المصلح تم بناء دار الحكومة،وتشكيل المجلس البلدي (وكانت البلديات مقصورة على مراكز الاقضية دون النواحي) ، وتعيين موظفين في المالية والعدلية والعقارية والشرطة . واسس بالنبطية اول مدرسة لتعليم الناشئة على النهج العصري . وكان يتعهدها بنفسه فكانت اساس النهضة العلمية في جبل عامل كما نوهنا غير مرة .

وكانت ايام حمدي باشا على قصرها ايام هدوء وسكون تخللها بعض التحسين في الادارة والمعارف . ولما بدأت تتلمس طريق الاصلاح داهمته المنية في بيروت فدفن فيها مأسوفاً عليه .

وكانت خطة الوالي الذي خلفه (كناشد باشا) ومن تلاه من الولاة مخالفة لخطته على خط مستقيم . عاد الفساد للادارة ، واختل النظام ، وكثر السخط والتذمر ، ورجعت البلاد القهقرى وكان سيف الارهاب الحميدي مصلتاً فوق الرؤوس . فلم يحصل في سوريا ادنى حركة حتى زال هذا الدور الذي خلفه دور الدستور الثاني وعهد الاتحاديين .

كان لحركة مدحت باشا اثرها الكبير في جو سوريا السياسي اذ ايقظت الشعور ، ونبهت الأفكار ، واصبحت حديث القوم في السر والنجوى، وهدف الراغبين في الحياة الحرة . وكانت السياسة الأجنبية تبذل جهدها لاثارة القضية

العربية ، لا حباً بسواد عيون العرب بل لتفكيك عرى السلطنة العثمانية ، وتوسيع الخلاف بين الترك والعرب ، وبسط نفوذها على الجميع .

ولا بد من القول ان بعض المشتغلين في القضية العربية لم يكن مخلصاً لها كل الاخلاص . وانما كان يسير على خطة مدبرة كان الغرض منها خدمة فكرة اجنبية . ولذلك رأيناهم عندما تم الانفصال وتقلص ظل الحكم التركي ينقلبون لمهاجمة العرب وتمزيق وحدتهم وشلّ حركاتهم . ولم يكتف اولئك النفر الذين يدعون نقاوة الضمير وحرية الرأي بما وضعوه من العقبات في سبيل تحرير العرب بل حاولوا تجريدهم من كل معاني المدنية والحضارة ومحو ما لهم من الآثار العلمية والثقافية .

وقد انشأوا لهذه الغاية الصحف والمجلات ، وانبرت اقلامهم في هذا السبيل تفتري على التاريخ وتمسخ الحقائق وتشوه سمعة العرب . مما لم يعد خافياً على من انعم النظر في هذه الخطة الهزيلة ، والفكرة العرجاء التي تشبه من بعض الوجوه فكرة الاتراك الطورانيين بمحاولتهم تتريك العرب . فجاءت الحوادث على ما غير ما يرغبون فهوت حكومتهم ، وحبطت اعمالهم ، وفرقتهم عاديات الزمن ايدي سبا .

وفي كتاب ألفه باللغة الانكليزية الاستاذ جورج انطونيوس اسماه (يقظة العرب) فصل خاص يؤيد ما ذهبنا اليه ، ويثبت وجود هذه الفكرة السقيمة في مخيلة اولئك الزائفين منذ زمن ليس بقريب . وقد عثر المؤلف الفاضل في مكتب الوثائق بوزارة الخارجية في لندن على تقارير قناصل الانكليز في بيروت وسواها من المدن السورية . ووقف على المناشير التي كانت تنشرها الجمعيات السرية وتعلق ليلا على جدران المدن منذ سنة ١٨٧٥ م وقال ما نصه :

« ان معاهـــد التعليم الاجنبي التي نبهت القوم الى العلم ، وبذرت بذور القومية العربية ، ما لبثت ان تعددت نزعاتها من روسية وانكليزية وايطالية جنباً الى جنب مع الأميركية والفرنسية . فسرى الضعف الى النهضة القومية

في مهدهـــا عن طريق الانقسام بين المتعلمين في هذه المدارس . فانتقل لواء النهضة العربية في ذلك العهد الى مسلمي البلاد وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتاب ام القرى وطبائع الاستبداد . وما فتىء في ايديهم ، يعاونهم في رفعة واعلاء شأنه فريق من المسيحيين [1] . »

والسيد عبد الرحمن الكواكبي الذي تقدم ذكره حلبي الأصل عربي النزعة وهو من ابرع كتاب العرب ومن كبار رجـــال النهضة في العهد الاخير . وكتاب طبائع الاستبداد الذي الفه يدعو الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . وكتاب ام القرى يدعو الى خلافة عربية مركزها جزيرة العرب لاسباب اتى على ذكرها :

اولاً — لان عرب الجزيرة هم مؤسسوا الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم .

ثانياً — لان عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية ، واشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية .

ثالثاً — لان لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ، ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت . وهي اللغة العامة بين كافة المسلمين .

وكان الكواكبي ، احسن الله جزاه ، عاملاً قوياً من تلك العوامل التي حركت شعور الناطقين بالضاد ووجهت انظارهم الى اصلاح حياتهم القومية ، وتعزيز منزلتهم السياسية . إلا ان المحيط لم يساعده ، والأجل لم يمهله حتى تتم مقاصده السياسية والاجتماعية فتوفي في سنة ١٩٠٢ م عن ثلاثة وخمسين عاماً [2] .

ومن كبار رجال النهضة العربية في عهدها الاول : فريق من آل الصلح

---

(١) راجع المقتطف جزء خامس دسمبر سنة ١٩٣٨ مجلد ٩٣

(٢) راجع ترجمته في مشاهير الشرق لزيدان واعلام النبلاء للطباخ وكلمة عنه في المقتطف جزء ثالث مجلد ٩٣ .

الاسرة المعروفة التي لهـــا الاثر العظيم في القضية العربية ، وآل العظم ، وآل ارسلان وغيرهم منهم الكاتب الجريء الامير امين ارسلان (نزيل الارجنتين) ومنشيء جريدة كشف النقاب واحد محرري جريدة تركيا الفتاة. وكلتا الصحيفتين كانتا تصدران عن باريس وتطبعان على ورق رقيق ، وتردان مع البريد الفرنسي الى بيروت ضمن غلافات لجماعة معروفين فيبثون مضامينها في انحاء البلاد .

ولما صدرت جريدة كشف النقاب كان لهـا في الاستانة صدى عظيم وقام لها المابين (القصر السلطاني) وقعد لانهـــا كشفت عورات الترك وفظائعهم وسوء ادارتهم ، وتناولت سياسة السلطان بالنقد اللاذع والتنديد الفاضح . وقيل يومئذ ان السلطان (عبد الحميد) كان يتولى البحث بنفسه في الدواعي التي احرجت صدر الامير فأخرجته عن اعتداله مما ليس موضوعنـــا ولا مجال لذكره .

دام خمود الحركة العربية في العهد الحميدي ثلاثين عاماً تفاقمت فيهـــا الخطوب والمحن ، واشتدت النوازل ، وسادت الفوضى . ونال جبل عامل من الجور ما لا يتسع له المجـــال في هذا الفصل . ولشعرائه على اختلاف طبقاتهم وازمانهم شعر وفير في وصف تلك الايام المشؤومة ، وما اصاب البلاد من ظلم وجور ، ومن اعتقل واوذي وسجن ونفي من احرار البلاد ، مما سيأتي الكلام عليه .

سوريا في العهد الحميدي

لم تسعد سوريا بوالٍ رشيد مصلح بعد اعتقال مدحت باشا الرجل الحديدي العظيم الخطورة ، ووفاة حمدي باشا الحسن السيرة والسريرة . وكانت تنتقل من سيىء الى اسوأ بفساد العاصمة وانغماس معظم الوزراء بالرشوة ، وتصديرها الولاة والموظفين من حثالة القوم وذوي النفوس المنحطة .

ساد الجور وتفاقم الظلم واصبح ولاة الامر لا عمل لهم الا جمع المال والتمتع

باللاذ ، واحتراف الجاسوسية ، والتنكيل بمن رفع صوته بالشكوى او طالب بالاصلاح او تأوه من العسف . وعادت حليمة الى عادتها القديمة . ورجعوا في العاصمة يبيعون الوظائف بيع السلع وقيل يومئذ ان محمد علي بك ، امين الرسومات ، اشترى منصب والي بيروت بسبعة آلاف وخمسماية ليرة عثمانية ذهباً . وهو آخر والٍ عيّن لبيروت في العصر الحميدي ، وفرّ الى جونية يوم نشر الدستور واعلان الحكم النيابي ، وقبض عليه الاتحاديون وساقوه مخفوراً الى الاستانة فكان آخر العهد به . وكانت الرشوة والمساومة على الوظائف في عهد سلطة الوالي رشيد ممتاز بك على المكشوف وقد جمع هذا الوالي النزيه ثروة لا تقل عن ماية وعشرين الف ليرة ذهباً في مدة لا تتجاوز ثلاث سنين !!

وانحطت معنوية الدولة ، وسقطت هيبة الحكم ، وطمع فيها الاجانب . وكان قناصل الدول يجعلون من الحبة قبة ، واذا حدثت قضية قد تكون تافهة لمن ينتمي اليهم او يتمتع بحمايتهم يجبرون موظفي الدولة على تقديم الترضية لهم فيمشي اكبر مأمور في مراكز الألوية او الأقضية ومعه كبار موظفيه مطأطئي الرأس الى الدار القنصلية لاظهار الاسف وتقديم الاعتذار . فيقابله القنصل بالغطرسة والامتهان . واذا مشى القنصل الى دار الحكومة للاحتجاج مشى امامه القواصة (الحرس) بالالبسة المزركشة شاكي السلاح ، وسار خلفه التراجمة والحاشية . يسير الهوينا شامخ الأنف كأنما عناه ابو الطيب المتنبي في وصف الاسد :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

والسعيد من يحصل على رضا القناصل ، او يدخل تحت حمايتهم ، او يشملوه بعطفهم . ولم تكن هذه المعاملة الخشنة من القناصل إلا بقصد اذلال الحكومة واسقاطها في نظر الشعب .

ومن الغريب ان رجال الحكومة العثمانية ، سواء في العاصمة او في حواضر

الولايات ، كانوا لا يبالون بهذا الاحتقار ولا يفكرون بعواقبه الوخيمة . لا بل كان الولاة اذا ابى موظف عزيز النفس الرضوخ لهذه المذلة والهوان عزلوه ونكلوا به . والعهد غير بعيد في حادثة (الفسيخه) التي وقعت في صيدا بين المغفور له رضا بك الصلح وناثب قنصل انكلترا في سنة ١٣١٦ هـ وفي عهـد الوالي رشيد ممتاز بك .

ولما عمت البلوى سائر انحاء المملكة، وكانت كلها في الهواء سواء ، انفجر مرجل الغيظ وذر قرن الثورة في مكدونيا . ونهض الأحرار ومنهم فريق كبير من ضباط العرب كسليم بك الجزائري وعزيز بك علي المصري ، الذي اعلن الدستور في منطقته (مكدونيا) قبل ان يعلنه الاتحاديون ببضعة عشر ساعة، وغيرهمـا فأسقطوا عبد الحميد وثلوا عرشه . وبرزت القضية العربية بشكل جديد فصدمهـا الترك صدمة عنيفة . وابتدأ عهد النضال بين العرب والاتحاديين وقد ازداد هؤلاء شروراً وطغياناً ، ولم يسلم من اذاهم عربي من ذوي الأفكار الحرة والنزعة القومية . فكانوا بئس الخلف لبئس السلف .

موقف العرب في العهد الاتحادي وقرار الاتحاديين بتتريك العرب

كانت الجمعيات السرية التي تألفت قبل اعلان الحكم النيابي الثاني لمقاومة الطغيان الحميدي تعمل كل واحدة منهـا منفردة عن الأخرى . وأهم هذه الجمعيات واعظمهـا اثراً جمعية (الاتحاد والترقي) وهي في الاصل جمعيتان تأسستا قبل الدستور بخمس عشرة سنة وذلك سنة ١٨٩٤ م وضمتا فريقاً من الأحرار العثمانيين بينهم الكثير من ضباط العرب وافلاذهم الخصهم سليم بك الجزائري بكباشي (رئيس الف) أركان حرب وعزيز بـك علي المصري وامين بك لطفي وكلاهما برتبة بينباشي اركان حرب وغيرهم .

وفي سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٧ م توحدت الجمعيتان باسم جمعية الاتحاد والترقي على اثر عدة مؤتمرات عقدت في باريس وجنيف ، وأخذت باعداد العدة وتهيئة اسباب الثورة ضد السلطان . وفي سنة ١٩٠٨ م طفح الكيل ،

واشتدت وطأة الجواسيس ، وكثرت القلاقل في البلقان. وكانت صحف اوروبا تكتب الفصول الطوال تنتقد سياسة السلطان وتوجه اليه سهاماً حادة. فكانت مقابلة ريفال في ٩ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠٨ بين ادوار السابع ملك انكلترا ونقولا الثاني قيصر روسيا . واتفق العاهلان على التوسع في مسألة المراقبة الدولية في مقدونيا تمهيداً لتقسيم تركة الرجل المريض (وهو لقب اطلقه ساسة اوروبا على الدولة العثمانية) . وخشي حزب تركيا الفتاة عاقبة هذا التدخل فأسرعت جمعية الاتحاد والترقي لرفع علم الثورة في مقدونيا . وبذل السلطان جهوداً عظيمة لاخماد الثورة انتهت كلها بالفشل . وقتل الفدائيون الاحرار جميع من انتدبهم السلطان للتنكيل بالثوار كشمسي باشا وغيره واعلن الدستور في مقدونيا قبل ان يعلن في الاستانة. وابرق نيازي بك زعيم الثوار يهدد السلطان بالزحف على الاستانة بستين ألف مقاتل اذا أبى اعلان الحكم النيابي واعادة البرلمان العثماني المؤجل من سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م . ولم ير السلطان بداً من اجابة مطالب الاحرار فوقع الارادة السنية في ١٩ جمادى الثانية سنة ١٣٢٦هـ و ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨م .

ولم يكن بالطبع خالص النية نحو الحكم النيابي الذي جرده من السلطة المطلقة والاستبداد الذي لم يقف عند حد . وحرمه من انصاره وزبانيته الذين نكل بهم الأحرار ومزقوهم شر ممزق . فلعب تلك اللعبة في حادثة الجمعية المحمدية حيث اغرى بعض الرجعيين والجنود الموالين له فهاجموا البرلمان في ٣١ اذار ١٩٠٩ وتحرجت الحال فجاء الى الاستانة من سلانيك محمود شوكت باشا على رأس الفرقة (حركت اوردوسي) فقطع الماء والنور عن يلدز (قصر السلطان) واعتصم المهاجمون في ثكنة (طاش قشلة) فطوقهم (بآوجي طابوري) فأفناهم عن آخرهم رمياً بالرصاص . وكان في نية الاتحاديين اغتيال السلطان فلم تتفق آراؤهم وانتهت الحادثة بخلع السلطان عبد الحميد واستنزاله عن عرشه ونفيه الى سلانيك . فأقام في قصر علاء الدين .

بويع رشاد افندي ولي العهد بالخلافة والسلطنة باسم السلطان محمد الخامس

بعد خلع اخيه في ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م وهو الخامس والثلاثون من سلاطين آل عثمان ، والخليفة السابع والعشرون ، والنجل الثالث للسلطان عبد المجيد الاول ابن السلطان محمود الثاني . ولد في الاستانة في ١١ شوال ١٢٦٠هـ — ١٨٤٤م وتوفي في ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٦هـ — و٣ حزيران ١٩١٨ .

وقد وصفه اكثر المؤرخين بأنه كان ضعيف الارادة ، فاتر الهمة ، طيب القلب الى حد البلاهة . تبوأ العرش في عهد استفحال جمعية الاتحاد والترقي فكان سلطاناً بالاسم ، ولم يكن له من الامر شيئاً ولا عمل له الا توقيع الأوراق التي تعرض عليه طوعاً او كرهاً . ولما حكم الاتحاديون بالموت على صهره صالح بك نجل خير الدين باشا التونسي احد الصدور العظام ، تضرع اليهم فلم يعفوا عنه فبكى . وبعد الشنق تبين ان الرجل بريء وانه قتل غدراً وقيل انه (اي السلطان) كان يتوقف عن توقيع بعض الاوراق التي يراها مخالفة للشريعة ولمصلحة الدولة فيدخل عليه انور باشا فيضع مسدسه على المنضدة ويقدم له الأوراق فيوقعها وهو يرتجف رعباً .

قبضت جمعية الاتحاد والترقي على مقدرات الدولة واستولت على كنوز عبد الحميد وامواله وذخائره ، فاجتمع في ايديها المال والجيش . وكان القول الفصل لمركزها الرئيسي في سلانيك ، فاذا اقر امراً خضعت له بقية الفروع. ولم يكن المركز الرئيسي إلا عبارة عن ثلاثة انفار هم:طلعت باشا،وانور باشا، وجمال باشا . ويأتي بعدهم في الدرجة الثانية عادل بك الذي تولى اولا وزارة الداخلية ، وخليل بك رئيس النواب ، ومدحت شكري ، والدكتور ناظم بك ، وغيرهم . وتولى طلعت باشا وزارة الداخلية وارتقى بعدها الى الصدارة العظمى بعد ان نحى عنها سعيد حليم باشا المصري . وتولى انور باشا وزارة الحربية . واسندت الى جمال باشا وزارة البحرية، وكان حاكم الاستانة العسكري . وكان الاول طلعت باشا وهو عميد الجمعية موظفاً بسيطاً في بدء امره في ادارة البرق والبريد في ادرنه مسقط رأسه . والثاني والثالث من صغار الضباط لم يتجاوزا رتبة يوزباشي (رئيس مائة) وقول اغاسي. ومدت

الجمعية فروعها في سائر انحاء المملكة يهيمن عليها ضباط الجيش وتراقب اعمال الموظفين والحكام ، فكانت حكومة في قلب حكومة . بدأوا بعملية التنسيق الذي اتخذوه ذريعة لاقصاء من لم يأمنوا جانبه من الموظفين لا سيما العرب . فانشق عنهم بعض اعضاء الجمعية وكثر خصومهم والناقمون عليهم . وتألفت الاحزاب المعارضة لهم كالحزب الحر ، وحزب الاهالي ، واشهرها حزب الائتلاف الذي كان يضم كثيراً من نواب العرب وكان رئيسه الاميرالاي صادق بك ، ونائب الرئيس المغفور له رضا بك الصلح نائب ولاية بيروت . وكان كامل باشا الصدر الاعظم الاسبق ، وصالح باشا ، ورضا نور ، ولطفي فكري وغيرهم من اقطاب الترك من اركان حزب الائتلاف ومؤيديه . فأسقطوا الوزارة الاتحادية وألفها الائتلافيون برئاسة مختار باشا الغازي اولا ، ثم كامل باشا . فهاج الاتحاديون حينئذ وعمدوا الى خطة البطش والانتقام . واغتالوا كثيراً من المعارضين، وشردوا من بقي منهم تحت كل سماء وكوكب . وكان البرنس صباح الدين نجل محمود باشا الداماد من الد اعداء الاتحاديين . وهو من القائلين باعطاء العرب لامركزية واسعة . وقد حاول الاتحاديون اغتياله في اول الحرب ففر الى اوربا . ولم تقف فظائعهم عند حد فقد اطلق انور باشا الرصاص على الامير يوسف عز الدين ولي عهد السلطنة فقتله . وقضوا على حياة محمود شوكت باشا وكان من اركانهم واكبر انصارهم لانه طلب الاقلاع عن سياسة العنف والشدة . وارتكبوا كثيراً من الاخطاء السياسية والادارية اذ لا علم لهم ولا تجربة ولا وقوف على اساليب تنظيم الدول وادارة الممالك . فخسرت الدولة اجزاء مهمة في البلقان والديار العربية . فاستولى الطليان على طرابلس الغرب واربع وعشرين جزيرة من جزائر سعيد عدا غير المأهولة . وذهبت كريت وسيام ، وانفصل الالبان ، واستقلت البلغار ، وانتزعت النمسا البوسنة والهرسك .

ولم يخفف كل ذلك من غلوائهم، ولم يعدلوا شيئاً من برامجهم . بل ازدادوا

غروراً وبغياً . وقد اربت فظائعهم على فظائع السلاطين حتى قال فيهم حافظ ابراهيم شاعر النيل :

كان عبد الحميد بالامس فرداً فغدونا في الف عبد الحميد

موقف العرب بعد الدستور

تبدلت الحال في الولايات العربية بعد اعلان الحكم النيابي ، واخلص المفكرون ورجال النهضة العربية للدولة ، واقبلوا على معاضدة الاتحاديين ومساعدتهم على انقاذ المملكة من وهدة الخمول واصلاح ما منيت به من التخريب في عهد الماضي .

وقد اجمع المؤرخون من ترك وعرب ان رجال العرب استقبلوا الحرية بحماس واخلاص لا يقل عن حماس الترك واخلاصهم . وكانوا غير مرائين في شعورهم ووطنيتهم .

فروع جمعية الاتحاد والترقي في جبل عامل :

تألف للاتحادية لاول عهدها عدة فروع في جبل عامل . وكان في مقدمتها فرع النبطية الذي تولى تشكيله في سنة ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨م وتحليف اليمين على السيف والمصحف ووضع عصبة على العيون مندوب الهيئة المركزية في بيروت نظام الدين بك مفتش الصحة في الولاية ، يرافقه الضابط نظمي افندي والسيد عبد الباسط الفندور من اعضاء جمعية بيروت . وانتظم في سلك الجمعية فريق من اهل العلم والادب والوجاهة من النبطية وجوارها . وقد تألفت الهيئة المركزية من المؤلف والاستاذين الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ، ثم انشأ الفرع نادياً رحباً تلقى فيه المحاضرات الاجتماعية والخطب الداعية للاصلاح ونبذ الشقاق والاخلاص للدولة . وكان له اثر حميد في حل كثير من المشاكل وتخفيف وطأة ذوي السلطة والنفوذ . وكان للفرع مقام محترم في المركز العـــام واشترك في المؤتمرات الاتحادية وأدى للجمعية

خدمات جليلة وجمع اموالاً وفيرة لمشروعي الاسطول والطائرات العثمانية . وكثيراً ما تمثل خطباؤهم بقول القائل :

اذا لم يكن إلا نيازي وانور فقد ملأ الدنيا نيازي وانور

حسنت الحال في اول الأمر في جبل عامل ، واستقامت الامور وعلّق الناس آمالا طيبة ، وظنوا ان امانيهم دخلت في دور التحقيق في العهد الاتحادي . غير انها كانت آمالا خائبة وبرقاً خلباً . اذ لم يمض وقت وجيز حتى ظهر الاتحاديون بثوبهم الحقيقي ، وانكشفت سياستهم ذات الوجهين الظاهر والباطن . فتبدلت الحال في جبل عامل كما تبدلت في سائر الديار العربية . وانسحب العامليون من الجمعية الاتحادية واقفلوا ناديها . وابرق فرع النبطية الى المركز الرئيسي في سلونيك والى الاستانة والى مركز بيروت والصحف العربية بأسم جبل عامل يعلن انسحاب العامليين من الجمعية ، ويحتج على الاعمـــال التي ظهرت بوادرها من الاتحاديين ، ومصادرة حرية الافراد في الانتخابات المزيفة ، والتلاعب في شؤون الدولة والرجوع الى عهد الاثرة والاستبداد . وكانت هذه البرقية الشديدة اللهجة احدى الاسباب التي دعت زعماء الجمعية ان ينقموا على العامليين ويضمروا لهم الغدر ، حيث اعتقلوا فريقاً منهم من المشتغلين في القضية العربية في اوائل الحرب وساقوهم الى المحاكمة في الديوان العرفي العسكري كما سيأتي بيانه .

تحريك العناصر

لما قضى الاتحاديون على خصومهم وفتكوا بزعيم المعارضة الفريق ناظم باشا في ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣ ، وفرّ اميرالاي صادق بك رئيس حزب الائتلاف الى مصر ، وتبعه البرنس صبـــاح الدين ، ومنعوا كامل باشا الصدر الاعظم الأسبق من دخول الاستانة ، وخفتت الاصوات ، وخلا لهم الجو ، اذ لم يبق في الميدان من يناوؤهم ، عمدوا الى تطبيق برامجهم السرية . وكانت جريدة

طنين وهي لسان حال جمعية الاتحاد والترقي ومجال اقلام كتابهـــا ورئيس تحريرها – حسين جاهد بك -- ما تزال تنشر لبعض المتطرفين من الاتحاديين مثل احمد اغايف وعبيدالله ويوسف اقشورا وغيرهم مقالات عنيفة فيها الكثير من التهكم والتنديد بالمعارضين من العرب ، وان الجمعية تركية لا عثمانية ، وان العنـاصر غير التركية يجب ان تذاب وتصهر بالبودقة الطورانية . وكان في سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١م قد قرر مؤتمر الاتحاديين السري تتريك العناصر غير التركية ، وصادق بصورة رسمية على القانون الذي سن لهذه الغـاية . مع ان العنصر التركي اقلية بالنسبة لبقية العناصر العثمانية . وقد دلوا بقانونهم هذا على فكرة سخيفة ، ورأي أفن ، وأعوجاج في المزاج ، وخيـال جامح يندفع فيغير تفكير ولا تقدير .ولئن تسنى لاولئك الأغرار تتريك الاكراد والألبان والاروام والأرمن ، وهو بعيد الوقوع ايضاً ، فكيف يتسنى لهم تتريك الأمة العربية ذات التاريخ الحافل بالامجاد والعظائم والتي لولاها لم يكن للأتراك شأن يذكر ، ولما وصلوا الى ما وصلوا اليه من عظمة وسيادة وملك شاسع واسع .

وقد اقروا ايضاً قتل كل حركة عنصرية، واتخاذ الشدة مع غلاة الوطنيين واغتيال من يخشون جـانبه . ولكن تدابيرهم في هذا المشروع الخطر بقيت تحت طي الخفاء لانها بطبيعتها سلبية وكانوا يسيرون بها على مراحل .

وفتحت جريدة طنين باب المناقشة في القضايا القومية ، واثارت النعرات العنصرية ، وأمعنت بتحقير نواب العرب . وجـــاءت الجمعية بثالثة الأثافي فأقصت من اعضائها من عرفت فيه حرية الرأي والجرأة والاخلاص من ابناء العرب وحالوا دون دخولهم في الهيئة المركزية ، وحصروا ضباطهم بالأستانة ومنعوهم من البقـاء في الديار العربية في حين انهم كانوا ساعدهم الايمن ، ولم يقل جهادهم عن جهاد الترك لمقاومة الطغيان الحميدي . واستعمل الاتحاديون منتهى القسوة والاستبداد في معاملة العرب في اليمن والحجاز والعراق وسوريا وكانت اعمـالهم في جبين عامل تفوق الوصف من جور وعسف واضطهاد . فسجنوا من سجنوا ، ونفوا من نفوا ، فمنهم الاستاذ صاحب العرفـــان فقد

اعتقلوه غير مرة واقاموا عليه الدعوى في المحاكم النظامية فخرج منها بريئاً وحاكموه ثانياً في الديوان العرفي العسكري في بيروت وحكموا عليه بالسجن شهراً ونصف شهر وبعشر ليرات عثمانية جزاء نقدياً .

واعتقلوا كاتب هذه السطور وكادوا ينفونه الى الاناضول ، لولا حزم الوالي بكر سامي بك ، بتهمة معاكسة رواج الليرة العثمانية الورقية التي كانت تساوي عشرة غروش فيستبدلونها بأسم مصلحة الجيش بليرة عثمانية ذهبية من التجار قوة واقتداراً .

وقد صبر العرب على مضض ، وأمل بعضهم ان تتبدل الأحوال ويعود القوم الى رشدهم . فلم تبدر منهم بادرة تنم عن رغبة بالانفصال لان عقيدة الانضواء تحت لواء الخلافة وتأييد الجامعة الاسلامية كانت راسخة في نفوس ابناء الضاد . غير ان فريقاً من اساطين العرب وذوي الرأي الاسمى فيهم الذين خبروا الترك وذاقوا حلوهم ومرهم ، ووقفوا على مناهجهم واسرار سياستهم ، وما انطوت عليه من غل وحقد نحو العرب ، كانوا يرون ان الاثرة والغرور واحتقار الأمة العربية خلال راسخة في نفوس الترك . ولا ينفع معهم نصح ولا ارشاد .

نقول ومع هذا بقيت الأكثرية من العرب والفئة المحافظة على التقاليد مخلصة كل الاخلاص للسلطنة العثمانية لا سيما في أوائل الحرب العظمى كما سيرد بيانه .

الجمعيات العربية ومؤسسوها ـ المؤتمر العربي في باريس

سبق القول ان جمعية الاتحاد والترقي لم تكن حسنة النية نحو العرب ، وانها اتخذت عملية تنسيق الموظفين وسيلة لاقصائهم عن الحكم . فكانوا يضعون حرف (ع) بجانب اسم كل موظف عربي . وحرمت دخول النابهين منهم والمتمسكين بقوميتهم من الدخول في الهيئة المركزية ؛ ومنعت ضباط العرب من الاقامة في البلدان العربية تمهيداً لتطبيق قاعدة (تتريك العرب) .

واوجبوا ان تكون المحاكمات في الولايات العربية باللغة التركية ليقتلوا لغـة البلاد . فكانت المحاكم تسمع المحاكمات بواسطة المترجمين وكان من السهل على هؤلاء ان يحوروا الترجمة الى ما يشاؤون . فكم ضاعت حقوق وغمضت جرائم.
ومن اغرب ما حدث في ذلك العهد ان الجالية العربية في اميركا ، ومعظمها حصل على قسط وافر من العلم والثروة والمقـام الاجتماعي ، كانت شديدة الاعتزاز بقوميتها تقيم الاجتماعات الحافـلة بعظماء الامة الاميركية ، ويعرب خطباؤها عن تمسكهم بالتابعية العثمانية . غير ان الاتحاديين ارادوا ان يقتلوا هذه العواطف النبيلة فأمروا السفارة العثمانية في واشنطون ان لا تقبل عرائض من التبعة العثمانية الا باللغة التركية ، مع ان الجالية العربية في امريكا وعددها لا يقل عن نصف مليون لا يـكاد يوجد بينها من يعرف التركية .

وقـد ناهضوا جمعيات العرب وشددوا النكير عليها ولم يجيزوا اضافة اسم عربي عليها ولو كانت لغرض علمي بحجة ان هـذه الالقاب تثير النعرة القومية ، في حين انهم اجازوا لانفسهم فتح ناد تركي باسم (ترك اوجاغي) وللاكراد باسم (كرد اوجاغي) وللالبان وغيرهم الخ .

ولزاماً علينا ونحن ندوّن شيئاً من تاريخ الحركة العربية ان نأتي على نبذة وجيزة في تاريخ الجمعيات العربية ومؤسسيها ولا سي تلك التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ القضية . واولها :

جمعية الاخاء العربي :

تألفت هذه الجمعية في الاستانة عقيب اعلان الدستور في سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ . ومؤسسوها: الامير محي الدين الجزائري، وصادق باشا المؤيد، وشفيق بك المؤيد ، وشكري باشا الايوبي ، ويوسف بك شتوان ، وشكري بك الحسيني ، وعارف بك الماردينى ، وندره بك المطران . والذين ايدوا هذه الجمعية واحكموا بنيانها وبثوا مبادئهـا هم : رضا بك الصلح ، والسيد

عبد الحميد الزهراوي ، وعبد الكريم قاسم الخليل ، والدكتور حسين حيدر . واصدرت الجمعية جريدة باسم الاخاء العربي يديرها شفيق بك المؤيد . كما افتتحت لها فروعاً في سوريا والعراق . وكانت الحكومة تتحين الفرص لاغلاقها فكان ما ارادت فاقفلت ناديهـا في الاستانة وشعبها في الخارج ، والغت جريدتها بحجة انها نشرت مقالات بعنوان الترك والعرب توسعت فيها الجرائد العربية في الخارج لايجاد التفرقة بين الترك والعرب .

المنتدى الادبي :

تأسس اولا باسم « النادي العربي » على انقاض جمعية الاخاء الآنفة الذكر في سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م فاضطرتهم السلطة الاتحادية طبعاً الى حذف اسم عربي فأسموه المنتدى الادبي . ومؤسسوه : عبد الكريم الخليل، ويوسف مخيبر حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وجميل الحسيني ، ورفيق رزق سلوم . واما الذين سبقت لهم المظاهرة المعنوية والنفوذ في تأسيس النادي هم : رضا بك الصلح، وشفيق بك المؤيد ، والسيد الزهراوي، والشيخ رشيد رضا، وحقي بك العظم ، ورفيق بك العظم ، والدكتور حسين حيدر ، وطالب بك النقيب ، والبكباشي عزيز بك علي المصري ، وعزت الجندي ، ورشدي الشمعة ، ونخلة المطران ، وندره المطران

وانتظم في هذا النادي كبار رجال الجالية العربية والطلبة العرب . وكان مدير حركته عبد الكريم الخليل . واصدر المنتدى مجلة باسم المنتدى الادبي يحررها عزت الاعظمي ، وعاصم بسيسو . وأنشأ جريدة الحضارة وكان السيد الزهراوي رئيس تحريرها . واغلق الاتحاديون النادي في اوائل الحرب والغوا صحفه .

الجمعية القحطانية :

اسسها في الاستانة سنة ١٩٠٩ خليل حماده ، والسيد الزهراوي ، وعزيز علي المصري ، وسليم بك الجزائري ، وعبد الكريم الخليل . وانضم

اليوم عزت الجندي ، وحسن حمادي ، وحقي العظم . وكانت سرية ولها اشارات رمزية ، ومعظم اعضائها من الضباط والشبيبة العربية .

جمعية العهد او الجمعية الثورية :

جمعية سرية اسسها عزيز علي المصري في سنة ١٩١٣ ومعظم اعضائها من ضباط العرب كمحمد اسماعيل الطباخ ، ومصطفى وصفي ، ونوري السعيد ، وعارف التوام ، وعلي النشاشيبي ، وياسين الهاشمي ، وجميل المدفعي ، وتحسين علي ، ومولود مخلص ، وسليم الجزائري ، وامين لطفي ، ويحيى كاظم ابو الشرف وغيرهم .

وانشأوا لها فروعاً في بغداد والموصل . وقد ورد في الايضاحات السياسية : ان وزارة الداخلية عثرت على نشيد ارسلته الى الديوان العرفي قالت ان ناظمه سليم بك الجزائري احد مؤسسي جمعية العهد بلسان امرأة عربية ترقص ابنتها فتقول :

لتدم هذي البنية تنمو وتغدو صبية
ازفها شجاعاً فلا ترى مصيبة

* * *

تلدن كل همام وفارس مقدام
يزق الطغام بهمة عربية

* * *

تلدن كل عزيز يجود بالنفيس
يدق هام خسيس بانفة وحمية

* * *

يشعل نار الحرب لدق عنق الكلب
ونيل عز العرب من امة تركية

الجمعية اللامركزية

تأسست في مصر في سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م الفتها الشيخ رشيد رضا ، ورفيق العظم ، وحقي العظم . وداوود بركات ، واسكندر عمون ، والدكتور شميل ، وسامي الجريديني ، ومحب الدين الخطيب .

جمعية الفتاة العربية

تأسست في باريس سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩م ومؤسسوها : محمد رستم حيدر وتوفيق الناطور . وانضم اليها : عوني عبد الهادي وجميل مردم ، ومحمد المحمصاني واحمد قدري ، ورفيق التميمي ، وعبد الغني العريسي ، وانتقل مركز الجمعية الى سوريا بعد عودة مؤسسيها الى بلادهم سنة ١٩١٢ . واتسع نطاقها واتخذت دمشق مركزاً لها بعد اعلان الحرب . ودخل في سلكها رضا الركابي ، وياسين الهاشمي ، ونسيب البكري ، وفوزي البكري . وبواسطة آل البكري دخلها الامير فيصل « ساكن الجنان صاحب الجلالة فيصل الأول » ونفح الجمعية بألف ليرة ذهبية .

جمعية العلم الاخضر

تأسست في الاستانة سنة ١٩١٢ الفها : احمد عزت الاعظمي ، وعاصم بسيو ، ومسلم العطار ، ومصطفى الحسيني ، وشكري غوش ، وعبد الغفور البدري ، ورضا الغزالي ، والدكتور داود الديواني ، والدكتور فائق شاكر ، والدكتور اسماعيل الصفار . واصدرت مجلة لسان العرب التي حلت محلها مجلة المنتدى الادبي .

جمعية الاصلاح

تأسست في بيروت سنة ١٣٣٠هـ-١٩١٣م ومؤسسوها : كامل بك الصلح ، ورضا بك الصلح ، ومختار بيهم ، وسليم علي سلام ، واسكندر عازار ،

وجورج رزق الله ، ومحمـــد الفاخوري ، وسليم البواب ، وباترو طراد ؛ والدكتور أيوب ثابت ، واحمد حسن طبارة ، وعبد الحميد الغندور .

وقدمت هذه الجمعية الى الوالي (ادهم بك) لائحة في وجوه الاصلاح التي تفتقر اليها البلاد العربية ، فرفعها الى الوزارة وكانت في يد الحزب الائتلافي وتحت رآسة الصدر الأعظم كامل باشا. فعزل ادهم بك وحل مكانه ابو بكر حازم بك. فأمر الوالي بحل الجمعية في ١ مارس ١٩١٣ واغلاق ناديها. فصمد الاصلاحيون وهاجت بيروت واقفلت اسواقها ، وصدرت جرائدها بيضاء مجللة بالسواد لا حرف فيها سوى اسم الجريدة وتاريخها . وابرقوا الى الصدارة العظمى والى وزارة الداخلية وجرائد الاستانة محتجين على حل الجمعية ومخالفة القانون الاساسي ، ومصادرة الحرية الاجتماعية . وكان جواب الصدر الاعظم وعيد وتهديد وقبض على بعض الاصلاحيين لمحاكمتهم امـــام الديوان العرفي ، فبرأ الديوان ساحتهم وانتهى الاضراب . غير ان النار بقيت كامنة تحت الرماد . وانشأ الاصلاحيون بمساعي السيد طالب النقيب في البصرة جمعية اصلاحية . وأسس مزاحم الباجه جي النـــادي الوطني في بغداد . وحاول الاتحاديون اغتيال السيد النقيب وارسلوا اليه فريد بك ، من جماعـة الفدائيين . فاطلق عليه الرصاص احد رجال النقيب في البصرة في رائعة النهار فقتل . وارادوا القبض على الباجه جي ففر الى البصرة ولم يظفروا به .

مؤتمر باريس العربي

لما رأى كبار المفكرين من رجـــال العرب ان الدولة خرجت من حرب البلقـــان مخذولة واهية القوى . وان الاتحاديين بعد ان خسرت صفقتهم . وفشلت خططهم ، استمروا في التدمير وتمادوا بالغرور ولم يعيروا اذنـــاً صاغية لمطاليب العرب وارتفاع أصواتهم بالشكوى وطلب الاصلاح ؛ وكانت مذابح الأرمن التي اسرف فيهـا الترك ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً حتى قيل ان ثلث الأرمن قـــد هلك في تلك الفظائع المريعة ، ايقنوا ، اي العرب ، ان

الخطر اصبح محدقاً بهم وان دورهم سيأتي بعد دور الارمن . وكانت اوروبا تخلق المشاكل للدولة رغبة بالقضاء عليها وتقسيمها .

وخافوا أن تصبح بلادهم لقمة سائغة للاجانب ، فأخذوا يجمعون صفوفهم ويوحدون كلمتهم ويبحثون في مصيرهم . واجتمعت الجالية العربية في باريس فاختارت لجنة مؤلفة من : عوني عبد الهادي ، ومحمد المحمصاني ، وعبد الغني العريسي ، وجميل المعلوف ، وجميل مردم ، وشارل دباس ، وندره المطران ، وشكري غانم . فأصدرت بياناً دعت فيه عقلاء العرب في مختلف البلدان التابعة للدولة العثمانية الى عقد مؤتمر في عاصمة الفرنسيين للبحث في حقوق العرب في المملكة العثمانية ، وطلب الاصلاح على قاعدة اللامركزية .

وعقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية في شارع سان جرمين في باريس يوم الاربعاء في ١٨ رجب ١٣٣١ هـ و ١٨ حزيران ١٩١٣ م وحضره مندوبون عن الجمعية اللامركزية في مصر ، والجمعية الاصلاحية في بيروت ، والجالية العربية في الاستانة ، والجالية العربية في باريس ، وجوالي اميركا الشمالية والجنوبية . وانتخب لرآسة المؤتمر السيد عبد الحميد الزهراوي ، وشكري غـانم لنيابة الرآسة ، وسليم علي سلام واسكندر عمون والشيخ احمد طباره وندره المطران وكلاء ، وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وعوني عبد الهادي وجميل مردم كتّاب العربية ، وشارل دباس كاتب الفرنسية .

وعقد المؤتمر اربع جلسات ختمت يوم الاثنين في ٢٣ رجب ١٣٣١ هـ و ٢٣ حزيران ١٩١٣ ، والقيت فيهـا عدة خطب . وجرت المداولة في الاصلاحات الضرورية للولايات العثمانية العربية فتقررت في عشر مواد ابلغوا نصها الى الحكومة العثمانية بواسطة رفعت باشا سفيرها في باريس ، والى الدول العظمى . وختمت بشكر الحكومة الفرنسية لما لقيه المؤتمرون من الرعاية والترحاب .

أسقط في يد الاتحاديين ورأوا ان المسألة العربية ستتخذ شكلاً دولياً .

وان الدول الاوربية لا سيما انكلترا وفرنسا لا بد ان تلعب اصابعها في القضية فبذلوا جهوداً عظيمة لاخفاق المؤتمر ، وتوسلوا الى الحكومة الفرنسية بمنع انعقاده . وحملت جرائدهم التركية وبعض الجرائد العربية الموالية لهم حملة شعواء على المؤتمرين ورمتهم بالخيانة وخدمة الافكار الاجنبية . وتطوحت بعض جرائدهم (تصوير افكار – طنين) فقالت: يجب ان نفتح البلاد العربية من جديد . واقترح بعضهم ارسال حملة عسكرية لتأديب السوريين والزحف على العراق واليمن ، واغراء رؤساء العشائر العراقية بالمال ، وضرب العرب بالعرب ، واقفال المنتدى الادبي في الاستانة، والمدرسة العباسية في بيروت، ومنع الصحف المصرية وغير المصرية من الدخول الى البلاد العثمانية . واستنفروا انصارهم في الولايات العربية فرفعوا البرقيات والعرائض الضافية ملؤها التنديد بالمؤتمرين وانهم فئة من الشذاذ وزمر الفساد ولا يمثلون احداً . غير ان مساعي الاتحاديين باءت كلها بالفشل ولم تجب الحكومة الفرنسية طلبهم بمنع الاجتماع . فلجأ الترك الى اللين والخداع بعد تلك الشدة والنزق . فأرسلت جمعية الاتحاد والترقي مندوبها (مدحت شكري) الى باريس فوقع اتفاقاً مع المؤتمرين بقبول مطاليبهم وصدقت عليه جمعية الاتحاد والترقي ووقعه باسمها طلعت باشا السكرتير العام للجمعية ، وعبد الكريم الخليل باسم الاحزاب العربية .

وملخص المواد التي اتفق عليها هي: اعتبار اللغة العربية لغة رسمية سواء في المحاكم او في الادارة . واحداث مكاتب سلطانية عربية بجانب المكاتب السلطانية التركية . وتعيين ثلاثة وزراء وعدد من المستشارين والاعضاء في الوزارات والمشيخة الاسلامية ومحكمة التمييز وبقية دوائر الدولة . وعشرين عضواً في مجلس الاعيان. وان يكون للعرب خمس ولاة ، وعشرون متصرفاً. وأن لا تستخدم الجنود العربية خارج بلدانها إلا في زمن الحرب. وان تصرف واردات المعارف في الولاية نفسها ، وتوزع واردات الاوقاف كما نص عليه الواقف .

وجاء الاستانة بعض اعضاء المؤتمر للاشراف على الحالة عن كثب .

وصدرت الارادة السنية في ١ آب ١٩١٣ باقرار بعض هذه المواد . واذاعت وزارة الداخلية بياناً بهذا المعنى توجته بالارادة السلطانية . ووعد اركان جمعية الاتحاد والترقي ، بصورة خاصة ، زعمـــاء العرب في الاستانة بتنفيذ جميع مطاليبهم . واعتذروا عن اعلان قرارها في الصحف حذراً من مطالبة بقية العناصر العثمانية باعطائهم مثل ما اعطي الى العرب . وتبودلت الولائم بين الجمعية الاتحادية والشبيبة العربية . وكثرت الخطب والمجاملات . وتكلم فيهـا طلعت باشا وفتحي بك باسم الاتحاديين ، وعبد الكريم الخليل وسليمان البستاني باسم العرب .

اهتمام العرب بعقد مؤتمر ثان بعد مؤتمر باريس ـ تدابير الاتحاديين ضـــد العرب ـ ابعاد (٤٩٠) ضابطاً من ضباط العرب عن الاستانة ـ نشوب الحرب العظمى ـ موقف العرب خلال الحرب .

لم يمض وقت قصير على الاتفـــاق الذي جرى عقيب مؤتمر باريس حتى قلب الاتحاديون للعرب ظهر المجن . وتبين ان تبجحهم بالحرية والعدل والمســاواة كان خداعاً ومكراً ونفاقاً .

كان النابهون من رجال العرب يتوقعون مثل هـــذه النتيجة من جماعة الاتحاديين بعـد الاتفاق التركي العربي . ويعلمون ان وراء الاكمة ما وراءها . وان ابتسامتهم تخفي وراءها سماً زعافاً . وان اقوال خطبائهم في تلك الولائم ان هي إلا خدع واكاذيب . وان لهم في القضية العربية خطة لا يرجعون عنها بسهولة . واذا حانت الفرصة لا يتورعون عن نكث العهود ، واخلاف الوعود ، واعتبار ذلك الاتفاق قصاصة ورق لا قيمة لها .

عاد الاتراك الى المطل والدس والتسويف والقــاء الشقاق . بين رجال العرب . واستدعوا لتضليل الرأي العام ، بعض انصارهم ممن كانــ يخشى ضررهم ولا يرجى نفعهم ، فاوعزوا لهم بالتنديد بالمعارضين وانهم فئة من الشذاذ النفعيين يخدمون فكرة اجنبية ، وغير ذلك من الاكاذيب التي كان

يتسامح بها صغار الاحلام وصغار النفوس ممن لا يعرف للوطنية معنى .

رجع اقطاب العرب الى ميدان النضال وبحثوا الموقف وعقدوا النية على متابعة العمل في القضية . وعقد مؤتمر ثان في شتاء سنة ١٩١٤ م . وعلم الاتحاديون بهذا القرار فقلقوا له . واتصل بهم نشاط جمعية العهد (وقد مر الكلام عنها) وكانت تضم (٣١٥ ضابطاً) من نخبة الضباط العرب . فعقد الاتحاديون اجتماعاً في وزارة الحربية في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٤ اقروا فيه الغاء الاحزاب العربية ، وابعاد (٤٩٠) ضابطاً من ضباط العرب كانوا في الاستانة الى المناطق التركية ؛ وحصر قيادة العساكر في البلاد العربية بضباط اتراك ؛ وتشديد المراقبة على المشتغلين بالقضية العربية ، والشروع في قضية تتريك العرب وبقية العناصر بالقوة . وكان للعرب عضو واحد في الوزارة يتولى وزارة الأوقاف فعزلوه وعينوا لها وزيراً تركياً .

وكان اميرالاي عزيز علي المصري من رفاق انور في المكتب الحربي في الاستانة والساعد الايمن لجمعية الاتحاد والترقي . وقد جاهد جهاد الابطال عندما نشبت الثورة الاتحادية ، واعلان الدستور في منطقته في مكدونيا قبل ان يعلنه نيازي وانور ببضع عشرة ساعة ، وابلى بلاءً حسناً في حوادث طرابلس الغرب . ولما شعر بسوء نية الاتحاديين نحو العرب انسحب من الجيش وقدم استقالته . غير ان الاتحاديين لم يرعوا عهده فقبضوا عليه وسجنوه واتهموه بمادة اختلاس ، جزاء جهاده ، وكادوا يذيقونه الموت لولا تدخل سفارة انكلترا التي انقذته من مخالب اولئك الظلمة الاشرار .

وبينما كان العرب يعدون العدة ويهيئون مواد المؤتمر ، اذ بالحرب تشتعل ويشب ضرامها في أوربا فتتحول الى اتون من نار يحرق الاخضر واليابس ويقذف الحمم . فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

اعلن الاتحاديون التعبئة العامة (سفر برلك) وخاضوا غمار الحرب ، ولم يكن ذلك في مصلحة الدولة كما يعرف ذلك بالبديهة . ولكن الاقنوم

الثلث ، انور وطلعت وجمال ، لبوا داعية الالمان فانضموا اليهم ورفضوا ما عرضه عليهم الحلفاء من مساعدة وشروط ملائمة اذا بقوا على الحياد . وكانت هذه الغلطة من اكبر غلطات الاتحاديين واعظم نازلة حلت بالدولة منذ تأسيسها .

وهكذا وقفت الحركة العربية وقوفاً تاماً في اوائل الحرب، وحل العرب جمعياتهم واحزابهم السياسية . وتنادوا من مصر الى عدن بتوحيد الصفوف والانضواء تحت لواء الخلافة ومناصرة السلطنة حيث كانوا يخشون انحلال الدولة ووقوع بلادهم تحت نير الاستعمار الاجنبي . فاختاروا اهون الشرين اعتقاداً منهم ان حكم الاتراك اخف وطأة من الاستعمار الاجنبي . وقد صرح بذلك رجال الترك وكتابهم .

جمال باشا في سوريا ، فظائع السفاح وطمعه بالتاج والصولجان :

لم يؤثر موقف العرب في اوائل الحرب في تأييد الدولة بجماعة الاتحاديين ولا قدروا اخلاصهم ، فلم يعدلوا شيئاً من خطتهم نحو العرب . وعقدت الجمعية الاتحادية جلسة للبحث في القضية العربية اختلفت فيها الآراء . فكان المعتدلون يرون التساهل بقبول بعض مطاليب العرب وترك امر التتريك والاجلاء ، وان الشدة في مثل هذه الأيام تزيد في مشاكل الدولة وتؤدي الى ما لا تحمد عقباه . وكان الغلاة وعلى رأسهم انور وطلعت وجمال ، يرون ان الفرصة سانحة لتصفية القضية العربية ، وضرب العرب ضربة قوية لا تقوم لهم بعدها قائمة .

ولما فشلت حملة الحلفاء على المضايق وخسروا المعركة في الدردنيل ايقن الاتراك ان النصر سيكون في جانب حلفائهم الالمان . واقرت الجمعية انهاء القضية العربية .

وعندما حمي الوطيس في الجبهة الغربية اوعز الالمان الى انور باشا وزير الحربية ووكيل القائد العام بتجهيز حملة لمهاجمة مصر ليشغلوا قسماً من جيوش

الحلفاء ويخففوا وطأتهم في أوربا . فكتب انور باشا الى قائد الفيلق في سوريا زكي باشا الحلبي بعزم القيادة العليا على مهاجمة مصر بطريق ترعة السويس . فأجابه بعدم ملائمة الوقت للقيام بهذه الحملة لا سيما وان العرب باتوا على اعتقاد بأن دخول الدولة العثمانيــة في الحرب سيساعدهم على الوصول الى الاستقلال ونوال الغاية التي تصبو نفوسهم اليها .

ولم يرق هذا التقرير ، بالطبع لوكيل القائد العام وزاده اهتمامــاً بالقضية العربية . وكانت عروبــة زكي باشا وآراؤه السليمة كافية لابعاده عن دائرة العمل فاستدعي من سوريا وارسل الى المانيــا كمرافق عسكري في معية الامبراطور .

وكان هذا، اي انور، يعلم في زميله جمال باشا قوة العزيمة والشدة والكره للعرب منذ تولى وظيفة الحــاكم العسكري في الاستانة حيث بث العيون والأرصاد تراقب الشبيبة العربية وتتبع خطواتهم . فاختاره قائداً عاماً لسوريا ووافقت هيئة اركان الحرب على هذه الفكرة ، وعرضوهــا على الالمان فقبلوها .

ولم يقبل جمال باشا هذه المهمة الا بشروط منهــا : اطلاق يده بالعمل ، وان تشمل سلطته سائر الولايات العربية وكليكيا وكردستان . ومنها : فتح اعتماد مالي بسبع ملايين ليرة ذهبية تكون تحت تصرفه . وان يبقى وزيراً للبحرية .

ومع ان انور باشا رأى ان الشروط قاسية وفيها شطط كثير فقد قبلها مرغماً . والمعروف عن جمال باشا انه قاسي الطبع يميل بفطرته للأذى وسفك الدماء ، كثير الاعتداد بنفسه ولا يرعى عهداً ولا ذمة وقد زادته السلطة التي منحه اياها انور باشا ، دكتاتور تركيا الحقيقي، غروراً واعجاباً بقدرته . فقد نقل عنه انه كان اذا امضى امراً بالشنق والنفي يردد كلمة فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الافغاني « لا يحكم الشرق إلا مستبد عادل » ، ثم يقول : انا ذلك

العادل . وانه كان يقارن بين حملته على قناة السويس وحملة السلطان سليم الاول « ياوز » فاتح مصر سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٦م. وكانت حملة جمال باشا مؤلفة من ١٣ الف جمل بينما حملة السلطان سليم كانت مؤلفة من تسعة آلاف جمل . فهو اعلى همة واشد شوكة . . .

وصل السفاح الى سوريا في اوائل كانون الاول سنة ١٩١٤ وقد حمل معه اضبارات القضية العربية . وكانت المهمة السرية التي عهدت الجمعية بها اليه تنحصر في امرين ، الاول: قتل الحركة العربية . والثاني: محو امتياز لبنان . ورأى ان الحركة في سوريا هادئة ، والسكون مخيم في انحاء البلاد ، والناس يجدّون في مناصرة الدولة اعتقاداً منهم ان بتأييدها تأييد الاسلام . فأخذ يتودد الى النابهين من رجال العرب وينصب لهم الحبائل والاشراك ، ويطري الشعوب العربية ويذكر فضلها على الاتراك والاسلام. ويذكر اخطاء الاتحاديين وعدم اهتمامهم بالشؤون العربية ، وانهم اعترفوا بأغلاطهم وعزموا القيام بالاصلاح والاعمال النافعة في ديار العرب . وقد قرب اليه فريقاً من المشتغلين بالقضية العربية ، ونفحهم بالهبات والعطايا . وكان غرضه من هذا التمليق والمكر والمظاهرة الكاذبة ، وغرس الاطمئنان في نفوس العرب واستدراجهم بالوعود الخلابة للوقوف على مكنونات القضية العربية وأسرارها لكي يأخذهم على حين غرة ، وبقتلك بمن يراه صلب العود، ثابت العقيدة لا يؤخذ بالترغيب والاوهام . فيخلو له الجو ويصل الى غايته ، ويحقق فكرة باضت وفرّخت في رأسه وهي تأسيس دولة مستقلة في سوريا وفلسطين تشمل ما جاورها من الولايات العربية يكون ملكاً عليها .

وكان جمال باشا يعلم ان الدولة ستخرج من هذه الحرب خاسرة سواء كان النصر للالمان فانهم سيتخذونها مستعمرة ، او في جانب الحلفاء فانهم سيمزقونها شذر مذر . وكان يعلم ايضاً ان هوى انور باشا مع الالمان وانهم لا يثقون بسواه ؛ وانه على وفاق مع امبراطور المانيا على خلع السلطان والجلوس مكانه على اريكة آل عثمان . فما الذي يمنعه (جمال باشا) ان يعمل ملكاً ايضاً

وهو لا يقل عن انور باشا صولة ودولة . واختمرت في دماغه هذه الفكرة فأخذ يرسم الخطط ويتذرع بالوسائل التي تمكنه من تحقيق رغائبه .

اتخذ جمال باشا ، عدة طرق للوصول الى رغائبه . فجرت عدة مخابرات بينه وبين الحلفاء . أحداها مع الروس بواسطة بعض الجواسيس الارمن الذين كانوا يظهرون له الاخلاص ، مع انه سبب نكبتهم في كليكيا ، ويعملون لحساب الانكليز . فاتصل هؤلاء بوزير الخارجية الروسية في العهد القيصري وعرضوا عليه رغبة جمال باشا بإعلان الثورة ، وقلب حكومة آل عثمان ، وتسليم الروس الاستانة والمضايق . وهي المنية الكبرى التي يسعون للوصول اليها ، ويسيل لعابهم عند ذكرها منذ عهد بطرس الأكبر ، على ان يساعده الحلفاء مساعدة عسكرية ،وان يعترفوا به ملكاً على سوريا وفلسطين وعربستان وكليكيا وارمينيا وكردستان .

وهناك ١٣ وثيقة وجدت بين اضبارات وزارة الخارجية الروسية ، ومخابرات برقية جرت بين سازانوف وزير الخارجية والسفراء في بخارست وروما وباريس ولندن بين ٢٦ تشرين الاول ١٩١٥ و١٣ آذار ١٩١٦ اشار اليها صاحب خطط الشام ومؤلف كتاب الثورة السورية ، وذكرتها بتفصيل وايضاح وبأرقامها المتسلسلة مجلة الحرب العظمى جزء ٢٩ رقم ١٠ . وكلها تدل على ما انطوت عليه روح جمال السفاح ، وخيانته الدولة ، وتسليم البلاد للأجانب ليصبح سلطاناً وهمياً على البلاد التي فتك بأهلها واعدم زهرة شبابها وامات الناس فيها جوعاً وفقراً .

وكذلك كانت مخابراته مع الفرنسيين بواسطة مندوب فرنسي يدعى الملازم شوفيل . ومع اليهود الصهيونيين بواسطة فتاة يهودية حسناء .

هاجم جمال باشا قناة السويس فصدته القوى الانكليزية فعاد القهقري الى القدس متظاهراً بالسعي لاعداد حملة ثانية . ولكنه في الحقيقة وقع في وهدة اليأس وحبطت خطته بالانتقاض على حكومة السلطنة وجعل نفسه سلطاناً

على بلاد العرب والارمن والاكراد . ومنيت مساعيه بالفشل لان الفرنسيين ، وان وافقوا على ايجاد ثورة في تركيا تضعف من شأن الترك وتفت في عضد الألمان ، لم يروا من مصلحتهم تحقيق مطامع جمال باشا والموافقة على شروطه. لانها وضعت على أساس حصر منافعها بالروس باستيلائهم على الأستانة والمضايق ولانها تحول دون تحقيق امانيهم في سوريا وكليكيا .

وكذلك الانكليز لم ترق لهم هذه الشروط لأنهم يريدون الاستئثار بفلسطين والعراق والحجاز . ولم يكن في مصلحتهم استيلاء الروس على الاستانة والمضايق .

وعاد السفاح الى فطرته من البغي والعدوان فصبّ العاتي جام غضبه على العرب بعد الفشل المريع الذي اصاب مشاريعه الوهمية من الاستيلاء على مصر، وحلمه بالتاج والصولجان . فبدأ بالانتقام وفتح الاضبارات التي حملها معه من الاستانة ، وكان يتظاهر انه لا يرغب البحث فيها . وامر بتشكيل الديوان العرفي في عاليه تحت رآسة القائمقام العسكري ادهم بك . وكانت أول قافلة وقعت في الشرك قافلة صيدا وجبل عامل ، وكنا في جملة المعتقلين ولم أر من الباحثين في هذه المسائل من اتى على ذكر الهيئة الاولى للديوان العرفي العسكري الذي تشكل برآسة أدهم بك ، او تكلم عن قافلة صيدا وجبل عامل . وقد اشرنا الى هذا الاعتقال في مقال لنا في نقد كتاب الثورة العربية نشر في مجلة العرفان وسنتكلم عنها باسهاب في فصل خاص .

عزم جمال باشا على ارهاب العرب وقتل اقطابهم وذوي الحركة الفكرية منهم ، بغياً وانتقاماً ، بعد ان اخلصت الامة وارسلت ابناءها للدفاع عن السلطنة فاماتهم الاتراك جوعاً ؛ وبعد ان شهد جمال باشا باخلاص العرب وبسالتهم وصدق طويتهم ودفاعهم عن السلطنة في عدة مواضع من مذكراته.

وراجت سوق الوشايات في تلك الايام السوداء وتتابعت تقارير الجواسيس، واتسع نطاق التحقيق ، ولعبت النكايات والحزبيات المضرة دوراً هاماً .

وامر العاتي بايداع الديوان العرفي جميع الاوراق والتحقيقات الاولى التي قام بها موظفو العدلية في بيروت، والتي امر الوالي الحازم بكر سامي بك باهمالها لانها اسفرت عن تحاسد وبغضاء ووشايات كاذبة .

ولما صدرت احكام الديوان العرفي باعدام ٢١ زعيماً من زعماء العرب ، وعلقت المشانق، وذعر الناس ، واشتد القلق ، واضطربت الافكار ؛ ادرك اقطاب الاتحاديين ، بعد فوات الوقت، عظم خطأهم بتحمم العاتي تلك السلطة التي لا حد لها حتى اسرف بالقتل والبطش وغرق في دم العرب الى الركب . وان خطة الارهاب التي سرى عليها ادت الى اندلاع لسان الثورة العربية ، وقطعت كل صلة بين الترك والعرب . ولا ريب انهم وقفوا من جواسيسهم على خيانته ، ولمسوا سوء نيته وعزمه على الانتقاض على الدولة ؛ وانه يعمل لنفسه . فاستدعوه الى الاستانة وجردوه من كل نفوذ وتنصلوا من اعماله .

ومما لم نزل نذكره ان جمال باشا قبل ان يبارح سوريا ، وبعد استياء الاستانة منه لم تفارقه غطرسته . وقد اتخذ خطة التهويل وعدم الاكتراث . فخطب في النادي العسكري في بيروت بعد سقوط القدس وغزة واللد والرملة منددًا بزميله انور باشا ، والقى التبعة عليه في اضعاف القوى العسكرية في سوريا مما ادى الى الهزيمة وضياع تلك المدن . فنشرت الصحف يومئذ مقاطع من ذلك الخطاب . واخبرنا بعض من سمع الخطاب في النـادي ، ان ما نشر كان جزءاً يسيراً مما صرح به بلهجة شديدة ونبرات حادة. وصرح جمال باشا بعد ان استدعي من سوريا للامير شكيب ارسلان مبرراً عمله ان مـا اجراه في سوريا لم يكن برأيه وحـده بل كانت خطة اركان الاتحاديين او الاقانيم الذين مر ذكرهم .

لم يمر على الديار العربية الخاضعة للسلطنة العثمانية دور هو اشد ايلاماً واوفر نكاية من دور الاتحاديين . ولا ريب ان هؤلاء الطغاة الذين انتزعت الرحمة من قلوبهم كانوا يسيرون على نحو فيه فناء العرب لانهم عرب . وقد تقدم معنا

شيء كثير من الادلة التي تثبت صحة هذا القول . ونزيد عليه ان بعض الاجانب من التبعة الاميركية لفت نظر احد الضباط الترك الى بعض البائسين من العرب بقوله : ان ترك هؤلاء التعساء على هذه الصورة ييتهم جوعاً .فأجابه الضابط : وهذا ما نبغيه . وان احد اعضاء الديوان العرفي قال لزعيم عربي : ان كل نوابغكم خونة ايها العرب ، وان آخر من يشنق على باب المحكمة الامير شكيب ارسلان ، والشيخ اسعد الشقيري ، ومحمد كردعلي .

ولم يكتف المثلث الاتحادي انور وطلعت وجمال بما فعلوه بنوابغ العرب من القتل والشنق والتشريد حتى ابتدعوا قانون احتكار حاصلات البلاد وخزنها ليشغلوا النـــاس بأمر الجوع والفاقة . وكان الجند والاهلون يموتون جوعاً . فقد احلوها للأجنبي والدخيل وجعلوها لقمة سائغة للالمان والمحاسيب والغانيات وحرموها على من زرعوها وجنوها بعرق الجبين .

لم ترتو نفس العاتي (جمال) من اسالة الدماء التي سالت معها النفوس ، والاعمال الشائنة التي تأباها الانسانية ولا تصدر الا من غلاظ الاكباد ، قساة القلوب ، من تجويع الى افقـار ، ومن قتل الى تعذيب ، حتى أراد ان يطبق قرار جمعيته بضرب العرب بالعرب فيثير المسـلم على المسيحي . وكان شأن الاتراك في سائر أدوار حكمهم اثارة النعرات الدينية واغراء الطوائف بعضها ببعض لتوطيد سلطتهم .

ومن الوقائع التي يعلمها القليلون : انه أراد أحداث فتنة بـين اللبنانيين واهل جبل عامل او بين الشيعيين والمسيحيين . فاستحضر لديه في ذلك العهد بعض زعماء جبل عامل وابلغهم بواسطة محمد جمال باشا قائد القوى العسكرية في لبنان ان يكونوا على استعداد لمهاجمة الشوف ودير القمر ومـا يتبعها . وأوهمهم ان لبنان يتمخض بثورة ضد المسلمين يغذيهـــا الاجانب . واختص عبد اللطيف بك الاسعد بقيادة الحملة على لبنان الجنوبي وجبل الشوف .

وأدرك عبد اللطيف بك ، ولم تبرح من باله حوادث القرن الماضي ، الغاية

من هذه الحركة التي يراد بها هلاك الفئتين ثم القاء التبعة على الاهلين انفسهم والاجهاز على من يبقى منهم .

قال عبد اللطيف بك : فتظاهرت بالطاعة ، وطلبت بكل بساطة امراً خطياً يجيز لي الدفاع والهجوم . فتبسم رضا باشا وعلم ان الحيلة لم تجز عليّ فطوى الحديث .

الثورة العربية في العهد الاتحادي - اخفاق الاتراك في تتريك العرب :

لقد مرّ معنـــا ان الاتحاديين وجدوا ان الفرصة سانحة لما استعرت نار الحرب العظمى فأقروا انهـــاء القضية العربية والارمنية بالسيف والنار . وانتدبوا جمال باشا لتنفيذ قرارهم بالعنصر العربي ، وتولى انور باشا العمل بنفسه بالعنصر الارمني .

وتقدم القول ايضاً ان جمال باشا وافى سوريا وقلبه يغلي بالحقد على العرب . وكان شديد الكره لهم منذ تولى منصب حاكم الاستانة العسكري . اذ احاط رجالهم من طلبة وضباط بشبكة من الجواسيس تحصي انفاسهم . واسرف الطاغية قتلاً وشنقاً وتجويعاً وتغريباً بالسوريين وانا نعزو بالاكثر هذه الشدة والبطش الى فطرته الاساسية ومـا طبعت عليه نفسه من شرور وميل لسفك الدماء ، اكثر مما تتطلب وظيفته التي بعث لاجلها .

وتعود المسؤولية عن فظائع جمال باشا بالدرجة الاولى الى انور باشا الدكتاتور الحقيقي للسلطنة العثمانية . وقد اخفقت السياسة التركية الاتحادية في سوريا وبلاد العرب وباءت مساعيهم بالفشل . وكان ذاك الضغط الذي تجاوز الحد سبباً باشتعال الثورة العربية وانضمام ابناء العرب من الجنود ضباطاً وافراداً اليها بعد ان كانوا يحاربون مستبسلين في صفوف الترك . وقد مرّ بك شهادة المؤرخين من الترك والالمان وجمال باشا نفسه بحقهم .

ولا بد لنا من كلمة عامة في الاسباب والدواعي التي ادت الى ثورة العرب ،

واستيائهم من الاتراك ، ويأسهم من الوفاق معهم ، بعد ان عاشوا معهم زهاء اربعماية عام عيشة العبيد مع السادة صابرين ساكنين وذلك حرصاً على الجامعة الاسلامية واحتفاظاً بالخلافة .

وللثورة العربية على الترك سببان رئيسيان : بعيد وقريب .

فالبعيد يمتد امده الى عهد وقوع سوريا ومصر وسائر الديار العربية في حوزة الترك في سنة ٩٢٣ هـ – ١٥١٦ م . فان السلطان سليم الاول المعروف بياوز وان تظاهر هو وبعض السلاطين من آل عثمان بخدمة الجامعة الاسلامية فقد كان مع من خلفه نكبة على العرب فأزال استقلالهم ، وسلبهم ملكهم ، وهدم مدنيتهم . وعملوا على القضاء على ثقافتهم وافقار بلدانهم من اهل العلم والصناعات فأكرهوهم على هجر بلدانهم وموطن آبائهم واجدادهم . وساقهم سليم الاول الى عاصمته (القسطنطينية) وعدهم غنائم حربية يجوز له التصرف بهم كيفما شاء وانى اراد . « كما ذكره المؤرخ ابن اياس واثبتنــــاه فيما مر من الفصول » .

وكانت الدولة القابضة على زمام الاحكام في سوريا ومصر قبل الفتح التركي الى سنة ٩٢٢ هـ – ١٥١٥ م دولة جركسية بالاسم ، عربية بالفعل ، اذ كانت اللغة الرسمية لغة الضاد ، والخليفة واكابر رجال الدولة ومديرو شؤونها من العرب . ولم تكن بيد المماليك سوى القوى العسكرية .

والمماليك ، وان كانوا فئة من شذاذ الآفـــاق تغلبوا على بعض الامصار العربية التي فقدت موازنتها لما افل نجم الخلافة العربية بعد هجوم التتار ، فهم على كل حال حفنة صغيرة في جانب الامة لا يتجاوز عددهم الاثني عشر الف جندي تعربت وذابت في القومية العربية . ولم يكن يخشى على مصير الامة ومحو قوميتها من هذه الفئة القليلة الفقيرة بمعارفها ومقومات كيانهــا . وكان لعلماء الدين عليها سلطة تامة ، وللجامعة الدينية شأن في ذاك العصر . وادرك ملوك آل عثمان ان الضرب على وتر الدين يقرب القلوب ، ويبعد الشبهــات . فتظاهروا بخدمــــة الاسلام ، واعتنقوا مذهب اللاقومية ، واتخذوا لانفسهم

ألقاباً جذابـــة تستهوي النفوس ، وما اسرع الشرقيين بالوقوع في شباك الاستهواء : كخادم الحرمين الشريفين ، وامير المؤمنين . ولم تكن مقاصدهم خافية على جهابذة العرب من ذوي النظر البعيد والنضج الفكري . ولم يمنعهم من خلع نير الترك وانقاذ بلادهم من مظالمهم الا تشتت كلمتهم واختلاف آرائهم وافتقارهم الى وسائل التخلص والقيام بالثورة المسلحة .

والسبب القريب يبتدأ من سنة ١٩٠٨ م اذ ظهر الاتحاديون بمبـــادئهم وتعاليمهم ذات الوجهين ظاهر وباطن . فالظاهر : اصلاح الدولة وانقاذهـــا من جور السلاطين ، واعلان الحرية والمساواة بين القوميات والعناصر وغير ذلـــك من الالفاظ المعسولة والجمل الخلابـــة . والباطن : تتريك العناصر وتذويبهـــا في القومية الطورانية ، وخنق كل حركة فكرية في البلاد . وقد رسموا لذلك الخطط الجهنمية وبدأوا بتطبيقها تدريجياً وعند سنوح الفرص .

ثم اقدام السفاح على شنق احرار العرب وتقتيلهم وتشريدهم ممـــا دعى الملك الحسين ان يرفع علم الثورة ويطرد الاتراك عن الاراضي الحجازيه .

اوقفت ثورة الحجاز طغاة الاتحاديين عن التمادي بخطتهم التي كانوا يبيتونها للعرب باجلائهم عن ديارهم للاناضول. واستدعى الاتحاديون ، انور وطلعت، جمال باشا من سوريا واخذوا يلقون التبعة عليه وحده . مع ان الثابت ان التبعة واقعة على الجمعية الاتحادية كلها . لان من برامجها السرية صهر سائر العناصر غير التركية في البوتقة الطورانية . كما قدمنا .

وقد ذكر الامير شكيب ارسلان في كتابه (سيرة الشيخ رشيد رضا) انه قرّع جمال باشا في سياسته . وان جمالا حاول البطش به وبأخيه عادل، وانه سلم شكري بك رئيس الديوان العرفي اسماء اربعين زعيماً في سوريا لاجل ان يحكم عليهم بالاعدام كيفما اتفق الحال . وان جمال باشا اعترف للامير شكيب بخطأه في المسألتين العربية والاسلامية بعد انتهاء الحرب وقال

له : اتظن انني كنت منفرداً في اعمـــال سوريا ؟ لا ، لقد كان كله برأي الحزب .

وانت اذا رجعت الى الحقيقة تجد ان ثورة العرب كبحت جماح الاتحاديين وليّنت أخلاقهم ، وجعلتهم يضربون اخماساً بأسداس . فوقفت مشاريعهم الجهنمية ، ورجعت اوراق المعتقلين في خـان الباشا في دمشق من الاستانة منقوضة ، وارصوا خلف جمال باشا وهو مرسلي جمال المعروف بجمال باشا الصغير بالتؤدة والحكمة ، ولكن بعد فوات الاوان .

الحركة العربية في جبل عامل

بعد ايراد هذا التمهيد يجدر بنا الدخول في موضوع الحركة العربية في جبل عامل وادوارها .

ان الحركة العربية على الاطلاق ، ومحاولة انقـاذ بلاد العرب من جور الحكم التركي كانت فكرة تجول في ذهن كل عربي مفكر ووطني غيور حريص على استعادة امجاد قومه . ومن انعم النظر في كلام المؤرخين الذين عاصروا الفتح التركي وشاهدوا ظلم الترك ولمسوا سوء نياتهم وما يضمرونه من الغدر ، والعمل على هدم الكيان العربي ، كالمؤرخ ابن اياس وغيره ، وقد مرّ بنا بعض كلامه ، يرى ان الاستياء من احكامهم الغاشمة والشعور بثقل وطأتهم بدأ من ذلك العهد . وبهذا الاعتبار يمكننا القول ان الحركة العربية في جبل عامل والتخلص من نيرهم الثقيل فكرة قديمة بدأت من عهد سليم الاول (ياوز) . لا سيا بعد ان فتك فتكا ذريعـــاً بالابرياء من اهل الشيعة ، وذبح منهم عشرات الالوف في الاناضول وايران وبلاد العرب لانهم وخصمه الالد الشاه اسماعيل الصفوي على مذهب الشيعة الامامية . وان هذا القطر (جبل عامل) على ضيق رقعته وقلة سكانه قاوم الاتراك مقاومة عنيفة ، ودافع دفاعاً شديداً عن كيانه ، ولم يخضع للحكم التركي المباشر الا مدة يسيرة لا تزيد عن نصف

قرن من سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م الى سنة ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م كما شرحناه غير مرة .

كانت الثورات الاهلية والحروب التي اضرم نارها العامليون في وجه الترك مع ولاة صيدا وعكا ودمشق (وقد استوفينا الكلام عليها في الفصول السابقة) لا تنطفي جذوتها . وفوق ذلك كانوا اذا غضبوا على وال او زحف عليهم بعسكره صدوه بقوة السلاح والجأوه الى الفرار تاركاً خيمه واثقاله ومهمات عسكره . كما جرى لهم مع عثمان باشا والي الشام ، ودرويش باشا والي صيدا وقد مر الكلام عنهما في فصولنا السابقة .

وكان الشيخ ظاهر العمر الزيداني والامير يوسف الشهابي يستعينان بهم ، ويستنجدان ابطالهم في مقاومة الترك ودفع اذاهم .

وقد قاوموا الطاغية احمد باشا الجزار ، وجرت بينه وبينهم معارك تشيب لها الاطفال . وهم وان خسروا المعركة الاخيرة في وقعة (مارون) واستشهد فيها زعيمهم ناصيف النصار اذ زلت به قدم جواده . غير انهم لم يخسروا النجدة والحمية وظلت قواتهم التي تألفت على شكل (عصابات) تهاجم الجزار وتثخن في جنده وتذبح عماله في تبنين وهونين وشحور حتى اضطر سليمان باشا خليفة الجزار ان يطلب من الامير بشير الشهابي الثاني وساطته لتسكين الثائرة وتهدئة الحال ، فعقد معهم محالفة عكا . وزاد عليها عبد الله باشا الخزندار الذي خلفه في ايالة صيدا بأن اعاد اليهم حكم بلادهم واضاف اليها بلاداً اخرى من مرجعيون ووادي التيم ، ورد عليهم ارزاقاً وفيرة .

ولم تنضم قوى الشيعة لقوى الاتراك إلا مرة واحدة في عهد الاحتلال المصري وحملة محمد علي باشا على سوريا . ولم يكن ذلك إلا لسوء سياسة العمال المصريين الذين اقصوا الزعماء وضموا بلاد الشيعة كلها لجبل لبنان تحت حكم الامير بشير الشهابي (كما مر في الفصول الماضية) ؛ وسوء الاثر الذي

تركه الامير مجيد ابن الامير بشير واحتقاره للعلماء واهل الوجاهة وزجهم بالسجون . مما ادى الى نشوب الثوره بقيادة حسين بك الشبيب ، وقيام حمد البيك بجنده ورجاله وصده الامير مجيد عند جسر القاقعية الكائن على نهر الليطاني جنوبي النبطية .

أما الحركة العربية في جبل عامل والعمل للتخلص من الحكم التركي والاشتراك بالمؤتمرات الوطنية والانتظام في سلك الجمعيات السرية الثورية فقد ساهم فيهـــا اعيان جبل عامل واشتركوا فيها اشتراكاً فعلياً في ثلاثة أدوار .

الدور الأول :

أول مؤتمر اشترك فيه الشيعيون للنظر في استقلال سوريا وفصلهـا عن جسم المملكة العثمانية . عقد سراً في دمشق في نهاية الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ .

فلما دارت الدائرة على الدولة العثمانية وانتصر الروس عليها في تلك الحرب الدامية وكادت القسطنطينية (العاصمة) تقع في ايديهم ، فكر بعض الاعيان العرب في مصير سوريا فعقدوا مؤتمر دمشق السري للبحث في هذه الشؤون . وكان يمثل جبل عامل في ذلك المؤتمر العالم الجليل السيد محمد الامين من الاشراف الحسينيين سكان شقراء – جبل عامل – ، والنبيل الحاج علي عسيران رأس الاسرة العسيرانية المعروفة في صيدا ، والشيخ علي الحر الجبعي، وشبيب باشا الاسعد الوائلي . وقـــد اقر المؤتمرون اختيار الامير عبد القادر الجزائري (نزيل دمشق) اميراً على سوريا . ونقل القرار للامير ، المغفور له احمد باشا الصلح الذي كان يمثـل مسلمي الساحل . ثم تطورت سياسة الدول فصدت الروس عن الاستانـــة ، وعضدت الدولة العثمانية وحالت دون سقوطها . فتأخر حل المسألة الشرقية ومن ثم طويت صحيفة ذلك المؤتمر .

وكان المفتي العاملي السيد محمد الأمين السار ذكره متطرفاً في عروبته ،

مجاهداً بفكرتـــه السياسية ، يحرض العاملين على الثورة ، ويراسل الأمير الجزائري في دمشق بصراحة تامة ، ويكتب عـلى غلاف رسائله دمشق دار الامارة «بالقلم العريض». واتصل الخبر بالوالي التركي فنفى السيد الى طرابلس الشام .

الدور الثاني

وفي خلال ولاية مدحت باشا على سوريا في حدود سنة ١٨٧٩م - ١٨٨٠م كانت حوادث البلقـــان وانتقاض تلك الامارات على الترك ، ونزوعها الى الاستقلال بتحريض الدول الاجنبية .

ورأى مدحت باشـــا وهو السياسي البعيد النظر ان الدولة تنتقض من اطرافها . فحدثته نفسه الطاموحة ان يستأثر بسوريا ويكوّن منهـــا امارة عربية يكون على رأسها حاذياً حذو محمد علي باشا في مصر . فأخذ يبث بين مفكري العرب وذوي الرأي فيهم فكرة الاستقلال والانفصال عن السلطنة العثمانية . وقرّب اليه من زعماء جبل عامل خليل بك الاسعد ، ونجيب بك الاسعد وغيرهما من الاعيان ، فأولاهم الوظائف والرتب. وعمل هؤلاء على بث فكرة الانفصال بين العامليين ، واعداد معدات الانقلاب . وقد اصبح الناس ذات يوم وقد الصق على جدران المعابد والساحات الكبرى في امهـات المدن السورية القصيدة السينية التي اولها .

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

والقصيدة كلها تحريض العرب على الترك والتخلص من حكمهم الجائر. قيل انها من نظم الشاعر اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي وقيل انها لشاعر آخر مسلم وعندي انها لاكثر من شاعر تعاونوا على نظمها بايعاز من مدحت باشا .

وقد شاء القدر ان لا تنجح هـــذه الفكرة ايضاً ، وأحس أعوان السلطان بمقاصد مدحت باشا فنقل بأمر السلطان من ولاية سوريا الى ولاية

ازمير . ثم اعتقل وسيق للاستانة حيث حوكم في محكمة خاصة وحكم عليه بالنفي ، فابعد الى الطائف ودس اليه السلطان من قتله خنقاً .

الدور الثالث :

سكنت الحركة العربية في مدة حكم السلطان عبد الحميد سكون النار تحت الرماد ، وكثر الظلم والارهاق ، ونال الاذى كثيرين من متنوري العرب وشبابهم في اقطارهم المختلفة ، ونفي بعضهم للديار القاصية ، والقي البعض الآخر في ظلمات السجون .

ولما اعلن الدستور التركي المرة الثانية ، وقبض الاتحاديون على زمام الدولة وتمّ خلع السلطان عبد الحميد ، وتبوأ العرش السلطان محمد رشاد ، تنفس العرب الصعداء ، واستيقظت الافكار الخامدة ، وتألفت الجمعيات العربية لمتابعة السير في طريق القضية العربية . وعندما ثارت العناصر الغير تركية الخاضعة للسلطنة العثمانية على جمعية الاتحاد والترقي لما تحققوه من سوء نيات رجالها ، واقرارهم تتريك تلك العناصر ، وتطبيق بيانهم السري ؛ كان العامليون اول من انسحب من جمعياتهم ، وشجب اعمالهم ، وابرقوا بذلك للصحف وللهيئات الاتحادية المركزية .

وعندما اجتمع المؤتمر العربي في باريس اثر تأليف جمعية الاصلاح في بيروت كان للعامليين لائحة في جملة ما وضع من لوائح الاصلاح .

وكنا في النبطية ثلاثة نفر وهم الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومؤلف هذا التاريخ محمد جابر نكوّن شبه جمعية سياسية وننظم القصائد والمقطوعات في مظالم الترك ، ونبثّ بين الشعب العاملي فكرة الانتقاض على الحكومة ومناوأتها ، والمطالبة باصلاح جبل عامل واعطائه الحكم الذاتي على طريقة اللامركزية .

والى القارىء بضعة ابيات من قصيدة نظمها مؤلف هذا التاريخ في وصف

حالة البلاد وما وصلت اليه من الضيق وتحريض العاملين على الثورة :

اذا جئت القرى الفيت فيها — وطيس الجور يتقد اتقادا
ترى فيها نساءً حاسرات — جياع الجوف لا يلقين زادا
تبيت على الطوى غرثى وتمسي — بلا رمقٍ فتكتحل السهادا
اناديكم وهـــل منكم مجيب — (ولكن لا حياة لمن يُنادى)
بكيت دماً على الاوطان لما — رأيت الجور فيها قد تمادى
فحتى مَ السكوت وقد غدونا — على الغـــبراء نفترش القتادا
وهذي نار عسف الترك حاقت — بنـــا طراً فأصبحنا رمادا
فمن للخيل يعلوها صهيلاً — ومن للحرب يعركها جلادا

ولما اشتعلت نيران الحرب العامة وسيق الناس للجندية افواجاً ، واشتد البلاء وعمت الفوضى البلاد، اشتد نفور الشعب من الدولة وتربصوا بها الغوائل. وكان المشتغلون في القضية العربية في المدن الكبرى يرون ان الدولة سيؤول امرها للخسران في مدةٍ وجيزة من دخولها في غمار الحرب الكبرى . لان قوتها ضعيفة ، وجندها جائع؛ ولان القابضين على زمام الاحكام ودفة السياسة لا وطنية ولا ضمير لهم ، دأبهم الدس والكيد لبعضهم ، والاستئثار بالاموال والنفوذ ؛ وان دولة تسير على هذه الخطط الوعرة الهوجاء مصيرها الاضمحلال والتدهور المريع .

اغتنم الأحرار من العرب فرصة النفور من الحكومة وانشغالهـا في الحرب فنشطوا للعمل وايقاظ الحركة العربية في سوريا فأوفدوا في ١٨ تشرين الاول ١٩١٤ لصيدا وصور وجبل عـــامل الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى الادبي العربي في الاستانة مندوباً لجمعية الثورة العربية التي اتحدت مع جمعية اللامركزية . وكان من انبغ شبـان العرب علماً وفضلاً ، ومن اوفرهم وطنية وحجىً ، وله في جبل عـــامل منزلة رفيعة لاتصاله بفريق كبير من الأدباء والأعيان . الا انه ، رحمه الله ، كان قليل الاختبار كثير الجرأة ، ولم

يكن واقفاً تمام الوقوف على سياسة البلاد التقليدية وأحوال الزعماء في جبل عامل . فتعجل ، ورائده المصلحة والاخلاص ، بتأليف فرع للجمعية في صيدا ، من فئة اكثرها ممن لا فكرة ولا امانة لهم ولم يندمجوا في سلكها الا لغرض خاص ، غير حاسب لعاديات الزمن حساباً . فأذاع بعضهم سرّهـا وانقلبوا عليها بين ليلة وضحاها .

فمنهم من أذاع السر عن جهل وحماقة ، ومنهم عن خبث ولؤم طبع ، ومنهم عن خيانة وتزلف للترك .وكان بعضهم منتظماً في سلك الجمعية الثورية العربية وعميلاً لطغمة الجواسيس التركية في آن واحد .

وتألف فرع جمعية الثورة العربية في النبطية من الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومنشىءهذا التاريخ محمد جابر في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٤.

وبعبارة وجيزة نقول ان معظم الذين انتظموا في فرع جمعية صيدا لم يكن عن فكرة عربية بالمعنى الصحيح ، وانما اندمجوا بها لاهواء شخصية محضة ، ولمناوأة الحزب القابض على الوظائف المحلية في صيدا المنتمي للحكومة .. وعلى امل ان يتمكن عبد الكريم الخليل من زحزحة ذلك الحزب الحكومي عن مراكزه بمساعدة زميله الشهيد عبد الوهاب الانكليزي الذي كان يشغل وظيفة مفتش ملكية في بيروت .

اتصل امر الجمعية أولا بمصباح البزري رئيس بلدية صيدا نقله اليه المدعو عبد المنعم عاصي من قرية انصار وهذا سمعه من السيد محمد ابراهيم عضو الجمعية . فابلغه البزري للقائمقام التركي ضيا بك ، فكتب هذا للوالي التركي بكر سامي بك برقية بالشيفره بما بلغه . فاحال الوالي تلك البرقية الى عثمان بك مدير القسم الاداري في دائرة الشرطة . فحضر هذا لصيدا يصحبه قومندان الدرك وبحثوا اوراق الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان ومطبعتها ولما لم يجدوا وثائق خطية قفلوا الى بيروت واخذوا بالتحقيق مع السيد محمد ابراهيم وعبد المنعم عاصي .

وفي خلال ذلك وردت برقية من جمال باشا قائد الجيش الرابع ، وكان مقيماً في القدس ، بالقبض على رضا بك الصلح ونجله رياض بك وعبد الكريم الخليل وجماعة من صيدا وصور والنبطية ومرجعيون ومنهم صاحب هذا التاريخ محمد جابر والشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ عارف الزين وراشد بك عسيران والحاج عبدالله يحيى خليل والحاج اسماعيل الخليل وغيرهم .

ونقل التحقيق في القضية للديوان العرفي العسكري المنعقد في مدينة عالية من لبنان . وأما اسباب ورود برقية جمل باشا والقبض على من ذكرنا ونقل التحقيق من الدوائر الملكية للمحاكم العسكرية فقد تضاربت فيها الاقوال . منها : ان جمال باشا كان يشعر بتحفز احرار العرب للثورة بسبب كرههم التقليدي للترك ، وللضيق العظيم الذي عم البلاد لسوء الادارة الملكيـــة والعسكرية خلال الحرب وقبلها .

ومنها : ان جمال السفاح ميّال بطبعه للفتك والتنكيل ، وكان يبحث عن وسيلة يرهب بها الجمعات السرية العربية . وقـد نوّه بذلك في مذكراته المطبوعة في مصر صحيفة ٣٥٧ و٣٦٨ . واخبرنا صالح بك عبد العال المدعي العام لدى المحاكم العسكرية يومئذ ان اوامر جمال باشا البرقيـة كانت متتابعة بسرعة الحكم علينا .

ومنها : ما ذكره جمال نفسه في مذكراته التي سلف ذكرها وفي صحيفة ٣٥٥ من ان كامل بك الاسعد كتب يومئذ للشيخ اسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع عن حركة صيداً وانها بتدبير رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل .

ونرى نحن ان كامل بك الاسعد، وقد لقي ربه ، لم يقصد بما نقله لجمال باشا منـــاوأة الفكرة العربية والتزلف للترك ، وهو العربي الصميم الشديد التمسك بقوميته العربية وقد خدم القضية بماله رجاهه خدمات جليلة معروفة حتى اضطهده المحتلون بعد الحرب وحاولوا القبض عليه والانتقـام منه فلم يظفروا به فنهبت داره بالطيبة وهدم قسم منها كما هو معلوم . وانما كان منه

ذلك ، عفى الله عنه ، عن ثورة عواطف مقرونـــه بعدم التبصر بالعواقب وبتحريض فئة من المتنفذين حوله رغبة منـه بالانتقام من الزعيم المعروف رضا بك الصلح ومن الشهيد عبد الكريم الخليل . ورضا بك من اعلام العرب ، ومن اعظم قادة الافكار ، ومن مؤسسي النهضة العربية . وكان في البرلمان التركي من ألمع نواب الامة العربية ، ورئيساً ثانياً لحزب الائتلاف واول من وقف في وجه الاتحاديين وكشف دسائسهم ، فأوغر صدورهم حقداً . وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع به . وللصلح عطف خاص على جبل عامل ورثـه عن ابيه احمد باشا الصلح المعروف بسعة المدارك وجلائل الاعمال . وقـــد تنقل رضا بك في حكومات جبل عامل وتسنم مراكزها وله فيها آثار خـالدة واعمال مبرورة قدرها أعيان العامليين على اختلاف منازعهم فأحلوه محلا رفيعاً والتفوا حوله يسترشدون برأيه الصائب ومنهجه الوضاح .

ولما كان كامل بك الاسعد قد نشأ في وسط غير عصري ، وربي تربية ارستقراطية محضة ، وهو سليل اسرة آل علي الصغير المنحدرة من محمد بن هزاع الوائلي الذي يقال انه ورث امارة جبل عامل من سلالة الامير حسام الدين بشاره من امراء الدولة الايوبية ؛ لا ينظر بعين الرضى لمنزلة رضا بك الصلح الممتازة في جبل عامل ، ويحسب ان تدخله في شؤون البلاد اعتداء على سلطته التقليدية . لذلك كانت سياسته في الجبل تصطدم دائماً بسياسة رضا بك ويكون الفوز فيها غالباً للاخير .

واشتد العداء بينهما في خلال الانتخابات النيابية قبل الحرب الكبرى وبعدها . وحمل كامل بك العبث بالواجب على ارسال ما ارسله للشقيري . ولم يكن يحسب ان الامر يصل للمحاكمات العسكرية والمشانق على ما يظهر . ولذلك شاهدناه ممتقع اللون شارد الفكر لما مرَّ في النبطية قاصداً القدس بطلب من جمال السفاح . وقد دعي مراراً للمحكمة العسكرية في عاليه للادلاء بمعلوماته عن المعتقلين فأبى أن يلبي الطلب . وبعد الحاح من رئيس الديوان العرفي ذهب الى عاليه وقابل الرئيس في دائرة رضا باشا قائد لبنان العسكري

ونفى كل ما نسب اليه . وبذلك اجاب عبد الله بك عسيران لما دعي للديوان العسكري للشهادة ايضاً .

وأما كرهه لعبد الكريم الخليل فلأن هذا رشح نفسه للنيابة عن جبل عامل في البرلمان العثماني معتمداً على مساعدة بعض موظفي الدولة . ولأن كثيرين من اعيان الشيعيين يمت اليه بصلة الصداقة والنسب ، ولأنه يدين بمذهب الشيعة الامامية . وكان كامل بك يحسب ان النيابة عن الشيعيين في جبل عامل حق من حقوقه لا تجوز لسواه مهما كانت هويته وكفاءته .

اما محاكمة الذين سيقوا للتوقيف في سجون عاليه السياسية في حركة صيدا وكنـــا في جملتهم فقد دامت ثمانية واربعين يوماً في عشر جلسات . ومدة الاعتقال ثلاثة وخمسون يوماً . وكان واضع هذا التاريخ يدوّن مـا يحدث في كل جلسة من جلسات المحاكمة بالحرف الواحد يوماً فيوماً .

وخلاصة ما لا مندوحة عن ذكره ، ان تلك المحاكمات الهائلة بدأت في الساعة الثانية زوالية من يوم الخميس الواقع في ٢٨ رجب١٣٣٣ هـ و١٠حزيران سنة ١٩١٥ م وانتهت في ٢٨ تموز سنة ١٩١٥ . وان هيئة التحقيق كانت مؤلفة من الرئيس كامل بك هاشم البكباشي المتقاعد ، وهو دمشقي الاصل ، عربي اللغة ، قـــاس غليظ القلب ، متعصب للترك ؛ ومن المستنطق داود افندي الموصلي ؛ ومن عضوين برتبة يوزباشي هما: الحاج عارف الحمصي وحسني الدمشقي ، وكاتب المستنطق محي الدين علم الدين .

وان هيئة المحكمة العسكرية كانت مؤلفة من الرئيس ادهم بـــك قائمقام عسكري ، والبكباشي فتحي بك ، ومن اعضاء ثلاثة منهم اثنان برتبة يوزباشي هما : كمال بك ، وكامل بـك البغدادي ، والملازم عبدالله الموصلي ، والمدعي العام صالح بك عبد العال ، وهو من اهالي عكا ، وكاتب المدعي العام محمد النبهاني .

والمتهمون كانوا : رضا بك الصلح ، عبد الكريم الخليل ، ومحي الدين

الجوهري ، حسين الجوهري ، بهيج وتوفيق الجوهري ، بهاء الدين الزين مفتي صيدا يومئذ ، واخواه بديع ومحمود الزين ، حسن زنتوت ، حسين الجذوب، تحسين الخياط ، من اهالي صيدا .

وتوفيق شاتيلا من بيروت . وحسن رشيد علامة من برج البراجنة . والحاج نجيب بكار ، وحسين اليوسف ، ومحمد سعيد بزة ، ومراد غلمية ، واسكندر شديد ، ونصر عودة ، من اهالي مرجعيون .

ومن النبطية : الشيخ عبد الكريم الزين ، الشيخ احمد رضا ، الشيخ سليمان ظاهر ، وواضع هذا التاريخ محمد جابر ، ومحمد الحاج علي ، ويوسف الحاج علي .

ومن صور : الحاج عبد الله يحيى خليل ، والحاج اسماعيل خليل .

والشهود الذين ذكروا في قرار الاتهام هم : عبد المنعم عاصي ، والسيد محمد ابراهيم من انصار ، ومصباح وسعيد البزري ، ورشيد القطب البكباشي المتقاعد ، والشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان، ويوسف بك الجوهري، ويوسف الحناوي ، والشيخ منير عسيران ، والشيخ محي الدين عسيران ، وراشد بك عسيران ، وتوفيق عسيران ، ويوسف بك الزين ، وكلهم من اهالي صيدا ؛ ومعهم الشهود الآخرون :

بهاء الدين افندي مفوض شرطة من بيروت ، وطلعت بك الكردي قائد درك صيدا ، وعادل بك رئيس ميناء صيدا وهو تركي ، وطالب البزري من صيدا .

وخلاصة الجرم الذي اسندوه للمتهمين : انهم الفوا جمعية في صيدا ضد الوزارة الاتحادية الحاضرة، وللانتقاض على الدولة ولو ادت الحال لوقوع البلاد في ايدي الاجانب . وأن هيئة الاتهام قررت ان الجريمة من نوع الجناية وتنطبق على المادة (٥٨) من قانون الجزاء والتي تنص على : اعدام او نفي أو مؤبد .

ولما بدأت المحاكمات العلنية وتليت علينا افادات الشهود المثبتة في جريدة

التحقيق كنا نسمع لبعض الشهود شهادتين متناقضتين ، الاولى : نفي ما بات لما نسب الينا . والثانية : اثبات واقرار صريح قاض بادانتنا . وذلك لأن الحكومة كانت تكره وتجبر الشهود على الشهادة علينا زوراً وبهتاناً رغبة منها بتجريمنا كيفما اتفق الحال . فأطاعها منحطو الاخلاق فاسدو السريرة ، وترفع عن ارتكاب هذه الدناءة عزيزو النفس شريفو المبادىء . وللباطل جولة ثم يضمحل فقد جاءنا تناقض الشهادات دليلا على تلفيق الاتهام ، وقوي جانب الدفاع عنا .

ولما كان من واجب مدون الوقائع التاريخية ان يكون مجرداً عن الغاية الذاتية تنزيهاً في النقل ، ولا يجوز له كتمان الحقائق ولا اثبات غير الواقع . ولا جرم فان التاريخ لا يعرف الزلفى ولا يحفظ في طياته سوى الحقائق التي تكون عبراً للاجيال القادمة . فنقول :

ان اشد الشهادات علينا وقعاً شهادة شاهدين من اعضاء الجمعية شهدا على رضا بك الصلح شهادة وجاهية بغياً وزوراً نصها : « انه مثير الفتن والشقاق ، وعلى اتصال مع اعداء الدولة ، ومخابرات مع الدوارع الاجنبية التي كانت تتجول على شواطىء البحر المتوسط » . وكانت هاتان الشهادتان سبباً للحكم على رضا بك بالنفي المؤبد . وقد ذكر ذلك جمال السفاح في كتاب الايضاحات السياسية الذي طبع سنة ١٣٣٤ هـ في مطبعة طنين بالاستانة صحيفة ١١٨ م ونشر باللغتين العربية والتركية .

ولما ادلى الشاهدان بشهادتيهما سمعنا بكاء مراً من الشهيد عبد الكريم الخليل ، فسأله رئيس الديوان عن سبب بكائه فقال : « انا ابكي على وطن تعيس فسدت فيه الاخلاق وهوت النفوس فأنتج مثل هؤلاء الانذال الذين غررتم بهم واكرهتموهم للشهادة علينا . فأين القانون والانصاف » .

ولما انتهى استماع شهادة الشهود المارة اسماؤهم ، وكانت متناقضة كما اسلفنا أرادت هيئة الديوان العسكري التوسع في التحقيق فذهبت الى صيدا وصور

لتحضير شهود آخرين يشهدون علينا . وقد اعتقلت الحكومة فريقاً من وجهاء صيدا وصور ومرجعيون وزجتهم في سجون عاليه لانهم ابوا ان يرضخوا لحكمها . وكانت هذه الحركة في جانبنا ففضحت دسائس الحكومة واظهرت للعيان مقاصدها السيئة . ولما قدم جمال باشا السفاح الى صوفر عزل رئيس الديوان العرفي ادهم بك لانه لم يمثل فصله بلباقة ، وعيّن رئيساً جديداً يدعى فخر الدين بك ، ومدعياً عاماً اسمه مرتضى بك ، وكان مدعياً عامـاً في عكا وذا سمعة طيبة . ثم بدأ التضييق علينا والشدة في معاملتنا . وكان معظمنـا بيبيت في دار واحدة واقعة جنوبي عاليه ويخدمنا بضعة جنود من ابناء العرب. فأبدلوا حرسنا العربي بزمرة اجلاف من متطوعي رومانيـا فاقفلوا النوافذ وسدوا الأبواب ومنعونا من الخروج لحديقة المنزل واستنشاق الهواء النقي .

وفي خلال هذه المعاملة القاسية وشى بعض المفسدين المارقين من الدين والوطنية بالشهيدين محمود ومحمد المحمصاني مندوبي الجمعية المركزية التي اسسها في مصر بعض الزعماء السياسيين السوريين وصادروا من بيوتها وثائق خطية تثبت اداناتها وادانة من ذكر اسمه في تلك الاوراق . فقبض عليهم جميعاً . ثم بعثروا اوراق القنصلية الفرنسية التي كانوا عثروا عليها واعتقلوا اولئك الشهداء الابرار . وعندها قرّت عين السفاح جمال ووجد ضالته المنشودة . ورأى الفرصة سانحة لفتك برجالات العرب وزهرة شبابهم ارهاباً لمن تحدثه نفسه بحركة ما ضد السلطة التركية الغاشمة ، وشفاء لغليل انتقامه .

وفترت همتهم في التضييق على موقوفي حركة صيدا ولم تتوفر الأدلة للحكم عليهم فأطلقوا سبيلهـا في ٢٨ تموز ١٩١٥ ما عدا رضا بك الصلح والمفتي بهاء الدين الزين فقد نفوهما الى أزمير ، وعلقوا الشهيد عبد الكريم الخليل مع من علقوا على اعواد المشانق في اواخر اغسطوس سنة ١٩١٥ .

ولا بد من القول ان الحركة التي قامت في صيدا وتلك الوشاية السافلة كانت شؤماً على اولئك الوشاة الخونة وقد باءوا بالفشل والخسران ، وحقت عليهم اللعنة في الدنيا والآخرة .وقد حملت الرقاحة بعضهم فلام نفسه واعوانه

لانه تعجل الوشاية . وقال : لو انتظرنا اياماً قليلة حتى تلتئم جمعية صيدا وتعقد جلساتها لكنا اخذنا اعضاءها بالجرم المشهود . وقد شاءت الارادة الصمدانية ان لا تحقق مساعيهم فعادوا بالخزي والعار .

ومما يجب التنويه به ولا يجوز اغفاله ان ثلاثة نفر من الشهود امتنعوا من الشهادة علينا برغم التهديد والوعيد وهم راشد بك عسيران والشيخ عارف الزين والشيخ محي الدين عسيران . والأولان عرضا بنفسيهما للخطر وتحملا الارهاق والاذى . ولما دعي راشد بك عسيران للشهادة قال : « ان رضا بك الصلح خصمي وبيننا بعد المشرقين ، ولكن الحق اولى ان يقال ، فان كل ما نسب اليه لا اصل ولا اساس له » . وقال الشيخ عارف الزين : « انا لا ابرأ الصلح فقط وانا اقول : انه لا يوجد اليوم مسلم في هذه الديار يريد بالدولة الا الخير . فما نسب اليه انما هو لخصومات حزبية » .

اما الذين عطفوا على معتقلي حركة صيدا وسعوا لخلاصنا سعياً مشكوراً فهم من الموظفين في المحاكم العسكرية صالح بك عبد العال المدعي العام يومئذ واليوزباشي الحاج عارف الحمصي فقد كنا نرى ونسمع عن تألمها لامرنا وتعرضهما لخطر الانتقام من الترك ، ثم المستنطق داوود الموصلي واليوزباشي كامل بك البغدادي والكاتب محمــد النبهاني الذين كنا نقرأ في اعينهم العطف والتوجع لاجلنا .

وكان بعض الاصدقاء يخبرنا عن مساعي الامير شكيب ارسلان والامير امين مصطفى ارسلان لخلاصنا والافراج عنا .

وكان الشهيد عبد الكريم الخليل والزعيم رضا بك الصلح يتحفانا بالهدايا من سجاير وفواكه في اناء يضعا في اسفله ورقة صغيرة يكتبان فيها ما بلغهما من الحوادث والانباء السارة . وكان اليوزباشي كال بك التركي احد اعضاء الديوان العرفي العسكري شديد التعصب علينا يراقب ترجمة المدعي العام صالح بك عبد العال لاقوالنا الذي كان يلطفها ببراعة فيعارضه كال معارضة شديدة ولا سيا عند ابداء الشهادات .

لما شفي السفاح غليل حقده وفتك ذلك الفتك المريع باحرار العرب ، وعلق على اعواد المشانق افراد القافلتين الاولى والثانية من اولئك الشهداء الابطال . وكان عازماً على شنق القافلة الثالثة ، ومبادلة السكان بين بيوتات العرب والأرمن لبلاد الترك ، لولا نهوض جلالة المنقذ الاعظم ساكن الجنان الحسين بن علي ملك العرب واولاده واستفحال الثورة العربية في الحجاز .

وقد ذكر جمال السفاح في مذكراته صحيفة ٣٧٣ هـ و ٣٧٨ برقية الحسين الى انور باشا وزير الحربية العثمانية ومداخلة جلالة الملك فيصل ملك العراق بشأن الموقوفين .

وذكر الاستاذ محمد كرد علي في كتابه خطط الشام مجلد ثالث صحيفة ١٤٢ نص الانذار الذي ارسله المغفور له الحسين بن علي بشأن المنفيين والمسجونين من العرب بواسطة جمهورية اميركا المتحدة التي لم تكن يومئذ دخلت في غمار الحرب قال ما نصه :

« كان من مقاصد الاتحاديين الاساسية خنق النهضة العربية وقتل كل ساع بها ، ونفي كل متنور عربي . واجراء مبادلة السكان بين بيوتات العرب والأرمن لبلاد الترك . ولكن جمال باشا توقف بعد ان شنق القافلتين المهمتين من شبيبة العرب . وتعود الاسباب الى استفحال الثورة العربية في الحجاز وظهور الملك الحسين بن علي واولاده الى ميدان القتال .

« فقد اعلن الحسين امير مكة المكرمة استقلاله في ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ حزيران ١٩١٦ . وثار العرب على الترك في مكة وقتلوا الحامية التركية وأسروا اكثرها ، وحاصروا المدينة المنورة فشغل الترك بهذه النكبة التي ما كانوا يتوقعونها . وأخذوا يستميلون اليهم رجالات الشام . واستبدلوا الشدة باللين . واذ كانوا على عزم انفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة

بعث ملك الحجاز الجديد الحسين بن علي بواسطة جمهورية اميركا المتحدة ، لانها كانت على الحياد ، انذاراً هذا نصه :

«إن كل منفي عربي او مسجون اذا اصيب بأدنى اهانة فهو مستعد ان يعمل اضعافه مع الاتراك الذين في اسره فكف الاتحاديون عن القتل واطلقوا سبيل السجناء بعد ان عذبوهم شر عذاب » . وهذه من حسنات المنقذ .

اصبح الناس ينتظرون الفرج ويعلقون الآمال الواسعة على مساعي جلالة المنقذ وانجاله . ولما سقطت القدس ودخل القسم الجنوبي من سوريا في حوزة الحلفاء ، وفر الاتراك وحلفاؤهم لا يلوون على شيء ، ووردت الانباء باخلاء دمشق من جنود الاتراك ، ووردت برقية على محمود بـك الفضل بالنبطية بتوقيع الامير سعيد الجزائري وبها يعلن تشكيل الحكومة العربية في دمشق في اول تشرين الاول ١٩١٨ ويفوض اليه ادارة الاحكام في النبطيه وما يتبعها باسم الحكومة العربية ، ونصها :

« بناء على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف ، طمنوا العموم . وعليكم ان تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية » في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ هـ .

الامير محمد سعيد رئيس الحكومة العربية

وقد أذاع اسماعيل حقي بك والي بيروت على اثر انسحابه بياناً على المأمورين هذا نصه :

الى عموم المأمورين :

بناء على اعلان الحكومة العربية اصبحت المدينة تجاه امر واقع ، فلقد عهد بادارة امور الحكومة لرئيس البلدية عمر بك الداعوق . فتجاه هذه الوضعية اصبحت وظيفتكم منتهية لذلك اطلعكم على هذه التبديلات وأودعكم اياها » . في ١ تشرين الاول ١٣٣٤ .

جمع محمود بـك وجهاء البلدة وتلى عليهم برقية الامير سعيد واستلم

ادارة الحكومة . وكان سمو الامير فيصل (جلالة فيصـل ملك العراق) قد اوفد السيد ايليـا الخوري في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٤ برسالة لكامل بك الاسعد يستحثه فيها على مهاجمة السواحل وطرد الاتراك منها ، ورفع الراية العربية في انحاء جبل عامل. فتريّث كامل بك حذراً من الفشل. ولما رأى الفرصة سانحة ارسل في ٣ تشرين الاول ١٩١٨ رسالة سمو الامير الى محمود بك وفضل بك الفضل فاجتمع الاعيـان في دارهم بالنبطية وتليت عليهم الرسالة فصفقوا لها ابتهاجاً وسروراً .

ولما اعلن الامير سعيد الجزائري الاستقلال العربي في دمشق ورفع الراية الهاشمية . اعلنه ايضاً على الملحقات كما سبق . وتألفت الحكومة العربية في بيروت بعد انسحاب الوالي اسماعيل حقي بك ورجال حاشيته من : عمر بك الداعوق يعاونه سليم بك علي سلام ، واحمـد مختار بيهم ، وجان فريج ، والفرد سرسق وغيرهم من وجهاء بيروت ولبنان . ثم وصل الى بيروت من قبل الحكومة العربية شكري باشا الايوبي ماراً بالنبطية ، قصيدا ، وكان محالاً على التقاعد ورتبته (ميرلوا) في الجيش التركي ، واستلم زمام الادارة مع الوجهاء المار ذكرهم .

وقد اذاع عمر بك الداعوق بياناً على الاهلين هذا نصه :

١ – على الاهلين والمأمورين ورجـال الجندرمة والبوليس متابعة اشغالهم ووظائفهم بتمام السكينة والهدوء وبكل نشاط واستقامة . ويتحتم على الاهلين ان لا يتداخلوا بما لا يعنيهم ولا يتعدى بعضهم على بعض .

٢ – ممنوع قطعياً حمـل السلاح والخروج الى الطرق ليلاً بعد الساعة الثامنة مساءً .

٣ – اذا حدث تعدٍ على احد فعليه حالاً ان يخبر اقرب مخفر للبوليس .

٤ – اذا وقعت اقل مغدورية او مخالفة او تهامل بالوظيفة على الاهالي من قبل اي كان فعليه ان يعلمنا حالاً .

٥ - كل من يتجرأ على مخالفة هذه الأوامر يجازى اشد الجزاء . ومن يتجاسر على الاخلال بالأمن العام يحاكم ويعدم حالاً .

٦ - المظاهرات والتجمع والقاء الخطب ممنوعة بتاتاً من طرف الاهلين .

٧ - بما ان الاتراك وعيالهم وسائر الغرباء هم ودائع عندنا فيجب على العموم العناية براحتهم ورفاهيتهم كما تقتضيه الشهامة العربية » .

بيروت الثلاثاء في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٦ و ٢ تشرين الاول ١٩١٨

رئيس الحكومة العربية في بيروت

عمر الداعوق

وفي ٥ تشرين الاول ١٩١٨ قدم النبطية كامل بك الاسعد يصحبه السيد ايليا الخوري مندوب الأمير فيصل تخفق امامه الراية العربية المربعة الالوان التي رفعت لأول مرة في ربوع جبل عامل وركزت في أعلى دار آل الفضل . وكانت حكومة صيدا بعد جلاء الترك يديرها رئيس البلدية فتنحى عنها وانتخب الأعيان لرياسة الحكومة في صيدا رياض بك الصلح . وتشكلت حكومة صور برياسة الحاج عبدالله يحيى خليل . وكان العداء مستحكماً بين كامل بك الاسعد وآل الصلح ، وقد اشرنا اليه فيما تقدم ، فلم يرق له وجود رياض بك على رأس حكومة صيدا . فانصرفت همته لمناوأة رياض بك وحكومته ، ورفع سلطته عن جبل عامل ، باعتبار انه حاكم المقاطعة كلها والمندوب لادارة شؤونها بأمر الامير فيصل .

وعقد في النبطية بدعوة من كامل بك اجتماع حافل بالعلماء والاعيان كان الغرض منه اسقاط حكومة رياض بك والحملة على مناصريه من العامليين الشيعيين ومنهم واضع هذه الرسالة محمد جابر والشيخ سليمان ظاهر والشيخ احمد رضا والشيخ عارف الزين لانهم اشاروا بالاناة وتوحيد العمل . ولم تنجح

خطئه عفى الله عنه .

ولما وصلت الحملة العسكرية بقيادة المارشال هنري اللنبي الى صور وصيدا في طريقهـــا الى بيروت فحلب عين ضابط فرنسي يدعى (فيجل) لادارة حكومة صيدا وملحقاتها . وعلم هذا بالاجتماع الحاصل في النبطية فأرسل قوة عسكرية للنبطية فنشرت اعلاناً في الساحة العمومية ونصه :

« باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والشرقاء يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من اي نوع كانت ومن خالف ذلك عد مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء » .

١١ تشرين الاول ١٩١٨ باسم الحلفاء الثلاثة

حاكم صيدا العسكري — فيجل

ولما نشر هذا الاعلان في النبطية ونشر مثله في صيدا وصور ومرجعيون وصفد انفرط عقد الاجتماع وتفرق المؤتمرون .

وفي خلال ذلك مرّ بالنبطية شكري باشا الايوبي كما مرّ آنفاً يصحبه جميل بك الالشي ورستم بك حيدر فقوبـــل بحفاوة وتظاهرة حماسية وقصد بيروت بطريق الساحل وضرب الراية العربية في ساحة الشهداء في بيروت .

وفي ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٨ نشر اعلان آخر في النبطية والطيبة ونصه :

« يمنع الاجتماع والمداولة في صيرورة البلاد العائد حل قضيتهـــا للحلفاء الثلاثة » .

حاكم صيدا العسكري — فيجل

وفي ٢٩ منه استقال حاكم صيدا رياض بك الصلح بايعاز من حاكم صيدا العسكري الفرنسي الذي انفرد وحده بحكومتها .

وفي ٣٠ منه وصل النبطية مائتا فارس فرنسي يقودهم ضباط منهم . وقد دخلوا البلدة شاهري السيوف ووقف قائدهم في الساحة العامة فخطب قائلاً : « ان الفرنسيين أمة محسنة لا فاتحة » . ثم ذهبوا الى مرجعيون وعادوا الى صيدا .

وفي العاشر من تشرين الثاني ١٩١٨ نشر في صيدا من قبل السلطة المحتلة اعلان رسمي ونصه :

« ان الحلفاء قاتلوا لتخليص الشعوب الضعيفة ومنحها الاستقلال وان تحكم نفسها بنفسها . »

ثم ابدل الحاكم الافرنسي فيجل بحاكم آخر يسمى (شربنتييه) وعين للنبطية حاكم فرنسي برتبة مرشح ضابط يدعى روزفلدر فحضر ومعه شرذمة من الجند الفرنسي فاقامت بالنبطية .

وقد استاء الناس واشتد سخطهم لانفراد الحكام الفرنسيين بادارة البلاد . وراجت سوق الجواسيس وكثرت تقاريرهم بحق احرار الوطنيين الذين نالهم الارهاق في العهدين عهد الترك وعهد الفرنسيين . واصبح الناس ذات يوم في النبطية واذا بعشرات الاعلانات والمناشير الثورية الصقت على جدران الاسواق والمعابد وسرايا الحكومة ومقر الجند وعلى باب غرفة الحاكم . ومآلها حض الناس على مقاومة الفرنسيين المحتلين وطردهم من ربوع جبل عامل ورفع الراية العربية .

فاهتم الحاكم الفرنسي بالأمر . وعلى اثر وشاية بعض ذوي النفوس المنحطة دعي محمد جابر واضع هذه الرسالة لمقر الحكومة . واوقف بتهمة وضع تلك المناشير الثورية . وبسبب هذا التوقيف حصل اضطراب في البلدة وكاد ان يقع ما لا يسر الفرنسيين لولا ان الحاكم اطلق سبيلنا بعد توقيف ساعتين او ثلاث على ان نثبت وجودنا في كل صباح في سرايا الحكومة وأن لا نبارح البلدة .

واشتد تذمر العامليين من الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعاملون الناس بالشدة والازدراء مقربين اليهم كل من وهت وطنيته وانحطت مبادؤه ، على غير

ما كان يؤمل منهم فخاب فيهم الرجاء ، وعظم اليأس . فتألفت عصابات ثورية في داخلية جبل عامل لمقاومة موظفي الحكومة ومنع الأهالي من دفع الضرائب . فسادت الفوضى ، واختل الأمن ، وتعطلت المصالح .

ولما استفحل امر الثوار واشتد استياء عقلاء البلاد من هذه الحال ، ارسل كامل بك الاسعد بطاقات الدعوة للعلماء والاعيان والمفكرين لعقد مؤتمر عاملي من ابناء الشيعة على رأس نهر الحجير وهو مكان يتوسط البلاد العاملية واقع على بعد خمسة عشر ميلا من النبطية لجهة الجنوب . وعين له يوم السبت الواقع في ٥ شعبان ١٣٣٨ هـ و٢٤ نيسان ١٩٢٠ م . وفي الوقت المعين تمّ الاجتماع وعقد المؤتمر برآسة كامل بك الاسعد . وبعد المداولة في المواد التي طرحت للبحث والمناقشة وأقرار ما نوسب منها دعي السادة الآتية اسماؤهم لوضع مقررات المؤتمر وهم : الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر والحاج اسماعيل الخليل والشيخ عز الدين علي عز الدين . فكتبوا القرار ووقعه المؤتمرون بالاجماع . وملخصه :

« ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية ، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سوريا ، ورفض الدخول تحت حمايـــة او انتداب الفرنسيين » .

وانتخب السيد عبد الحسين نور الدين والسيد عبـــد الحسين شرف الدين للسفر الى دمشق العاصمة لرفع القرار للحكومة السورية . وقد سافرا اليها يحملان آمال البلاد وأمانيها وانفض الاجتماع بعد ان نادى الرئيس وكبـــار العلماء بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور ، والمحافظة على أموال واملاك المواطنين المسيحيين وارواحهم ودفـــع الاذى عنهم . وانذار المعتدين والمخالفين بشر الجزاء . ولكن بعض الموظفين ، الذين التفوا حول الحاكم الفرنسي من بيت العازوري وبيت نور وغـــيرهم من شذاذ الآفاق لم يرق لهم ذلك الاجتماع ورأوا فيه خسراناً لمراكزهم وسداً لباب منافعهم ، اشاعوا ان ذلك المؤتمر عقد للتنكيل بالمسيحيين . ثم شرعوا بتحريض اهل القرى المسيحية في جنوبي

جبل عامل لمناوأة الشيعيين وهم يعلمون ان المسيحيين في تلك الجهة أقلية ضئيلة جداً عاشت بسلام مع الشيعيين قروناً عديدة متآخية متصافية وعلى اتم وفاق .

وقد شاءت الدسائس ان لا تبقي على هذا الوفاق ، وتلقي باولئك الآمنين في اتون النار طعاماً للثورة ، وتحقيقاً لامنيتهم ، ووسيلة لرسوخ قدم الاجانب بحجة حماية المسيحيين والاقليات شأنهم في كل بلاد يريدون استعمارها وسلبها استقلالها . فسلحوا اولئك المسيحيين الوادعين بالبنادق ، واغروهم بالتحرش بجيرانهم ومواطنيهم ، واستفزازهم لقتلك بهم . وسلكت هذه الخدع على عقول السذج والبسطاء من الشبان المتحمسين المسيحيين ، فأذكوا نار التعصب ، واخذوا بالاعتداء على ابناء السبيل والفقراء من الشيعيين . ووقعت فاجعة قرية عين ابل ، البلدة المسيحية المجاورة لبنت جبيل في جنوبي جبل عامل ، بين شبان البلدين المتآخيين منـــذ زمن ، مما عكر صفو الولاء بين الطائفتين واسف لها العقلاء . كل هـــذا والحكومة لم تحرك ساكناً واكتفت بحفظ مركزها في المدن الاربع : صيدا وصور والنبطيه ومرجعيون وقد دامت الفوضى شهوراً زهقت فيها نفوس ، ونهبت اموال ، ووقفت مصالح واعمـــال . وكثر الثوار واشتد ساعدهم بسبب هذا الاهمال فقطعوا السابلة ، وسدوا الطرق .

ولما تفاقم الامر ، وعظم التذمر ، واصاب اذى الثوار عساكر المحتلين الذين كانوا ينقلون الذخائر والمؤن من صيدا وبيروت الى القوى العسكريـة المرابطة في النبطية ومرجعيون وحاصبيـا حيث هاجموهم بالقرب من مزرعة (مصيلح) بين صيدا والنبطية ، واثخنوا بشرذمة كانت تحرس جسر الخردلة بين النبطية ومرجعيون ، وحـــاولوا نسف الجسر بالديناميت ، وتغلبوا على العساكر في جبل رياق في جهة المطلة جنوبي مرجعيون ، ثم هـــاجموا في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ هـ عساكر المحتلين في جديدة مرجعيون . ففر سكانها المسيحيون للنبطية فلاقاهم اهلها بالترحاب وأقاموا اشهراً على الرحب والسعة

حتى هدأت الاحوال فعادوا شاكرين ونشروا بلاغاً في صحف بيروت يعرب عن ارتياحهم من عطف الاهلين مدة اقامتهم في النبطيه .

اقول: لما تفاقم الامر في ٥ مايس ١٩٢٠ بعد حادثة عين ابل وتلك المعارك الدامية التي سلف ذكرها ، والتي كان الفوز فيها كلها للثوار . رأى المحتلون ان الفرصة اصبحت سانحـــة للتظاهر بحمايـة النصارى بعد ان امهلوا ذلـــك عمداً . وكانوا في السر يغرون الطوائف احداها بالاخرى . فجردوا حملة مؤلفة من اربعة آلاف مقاتـــل بقيادة الكولونيل نيجر . سارت الحمــــلة في طريق الساحل واستقرت اولا في صور ، ثم تغلغلت في داخلية البلاد فناوشها الثوار في وادي الحريق على غير انتظام ثم انسحبوا الى الجبـــال . ولم تتمكن القوى الفرنسية من التغلب عليهم والقبض على احد منهم فتابعت سيرها سالكة وادي عاشور حتى وصلت تبنين وبنت جبيل فأحرقتها ؛ واطلقت المدافع على دار محمد بك التامر في تولين فهدمتها ، وعلى دار الامير محمود الفاعور بالخصاص - الحولة فدمرتها ايضاً ؛ وفتكت بكثير من الابرياء والآمنين . وكثر السلب والنهب الى ان استقرت الحملة في قرية (هونين) واليهـا استدعى قائد الحملة الكولونيل نيجر كامل بك الأسعد بقصد القاء القبض عليه وارساله لبيروت اجابة لطلب الجنرال غورو الحاكم العام والقائد الاكبر لجيوش الاحتلال. وكان بعض المسيحيين يظن، خطأ ، ان لكامل بك يداً في حادثة عين ابل فقدموا بحقه وشايات غير صحيحة للحاكم العام . فاراد الحاكم توقيفه تسكيناً لهيجان المسيحيين فلم يظفر به . وفارق كامل بك البلاد قاصداً دمشق بطريق فلسطين والجولان . فزحفت الحملة الى الطيبة مقر كامل بك واحتل الجند داره ونهبوا ما بهـا من اثاث ورياش ، وهدموا بعضها ، وارغموا وكلاءه على تقديم نفقات الحملة مدة اقامتها بها.

وفي ٥ حزيران ١٩٢٠ جمع الكولونيل نيجر علماء جبل عامل واعيانه فحشرهم في دار الاسقفية الكاثوليكية في صيدا والقى عليهم ، على مسمع من اكليروس المسيحيين ووجهائهم ، خطاباً نارياً يتضمن التهديد والوعيد .

ثم اجبرهم على امضاء وثيقة وتعهد بالمواد التالية :

اولاً ـ دفع ماية الف ليرة عثمانية ذهباً غرامة حربية وتعويضات .

ثانياً ـ التعهد باعادة الامن وتسليم المحكومين للحكومة .

ثالثاً ـ اعادة المسيحيين الفارين الى قراهم والمحافظة والتعويض عليهم . وقد جمع حاكم صيدا الفرنسي (شربنتييه) واعوانه تلك الغرامة اضعافاً مضاعفة . وامعنوا في البلاد سلباً ونهباً . فنضبت ثروة الجبل من هذه المظالم الفادحة ، ووقع في مهاوي الفقر والخراب .

وفي خلال ذلك تعين حكام وطنيون فكان لمتصرفية صيدا رشيد بك جنبلاط ، ولقائمقامية صور فوآد العازوري ، وللمديرية النبطية نخله الخوري . وقصد فريق من اعيان الشيعيين بيروت لعرض ما حاق بالبلاد من الظلم والجور للجنرال غورو فرفض مقابلتهم بتاتاً فعادوا في حالة يأس وقنوط .

انفرد جبل عامل بهذه المصائب ولم يشاركه بها احد ولم يلق في محنته من اخوانه ومجاوريه من بقية الطوائف عوناً ولا نصيراً . حتى ان معظم الصحف البيروتية ابت ان تنشر على صفحاتها كلمة دفاع او مناصرة ، خلا جريدة الحقيقة التي كان ينشئها الفاضل كمال عباس الازهري . فقد انفردت بالدفاع ورد التهم عن الشيعيين فحفظ لها العامليون هذه المأثرة ؛ وان قل الى اليوم من حفظ لجبل عامل هذه التضحية في سبيل القضية العربية .

جبل عامل واللجنة الاميركية

لم يحد قط جبل عامل عن خطة درج عليها وسرت في عروق ابنائه من الاحتفاظ بمبدئه العربي ، والاستقلال الذاتي . وقد برهنت الوثائق الرسمية على صحة هذا القول والتمسك بتلك النزعة .

لقد قدمت في سنة ١٩١٨م اللجنة الاميركية التي انتدبها الرئيس ولسن ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميركية ، لاستفتاء السوريين في بيان

رغباتهم ومصيرهم الحكومي . وهي المعروفة بلجنة كراين . ولما انتهت من مهمتها في فلسطين قدمت الى صيدا واتخذت دار البلدية مقراً لها . وفيها سمعت بيان وفود الطوائف الاسلامية والمسيحية .

وكان وفد العامليين الشيعيين مؤلفاً من نحو مائة ذات بين عالم ووجيه . وقد صرحوا كلهم بلسان واحد برفض الانتداب الفرنسي ، والانضمام للوحدة السورية ، وطلب الاستقلال التام الناجز تحت لواء جلالة الملك فيصل الاول ملك سوريا . وسلموا اللجنة وثائق خطية ووكالات عامة من جميع الشيعيين تشعر برغباتهم ، وتؤيد ذلك وفودهم في بياناتها .

وما برح العامليون حتى ساعة تدوين هذه الوقائع والحقائق الواضحة متمسكين اشد التمسك بهذه الخطط المثلى . وما زالوا يقدمون الدليل تلو الدليل على ثبوت هذا المبدأ القويم في نفوسهم . يجاهر شبانهم وكهولهم في كل محفل وناد وعلى صفحات الصحف بنزعتهم العربية ومتابعة السير في طريق الوحدة العربية الكبرى .

ولم يعقد مؤتمر سوري ، ولا نظم اجتماع قومي عربي ، إلا وكان ممثلوهم في الطليعة يجاهرون بالاحتجاج على وضعية بلادهم الحاضرة ، ويطالبون بالانضمام الى الوحدة السورية . ولولا ظروف قاهرة اقضت مضاجعهم ، واضعفت اقتصادياتهم ، وطوحت بأبنائهم وزهرة شبابهم للهجرة في طلب الرزق الى ما وراء البحار ، لما سكتوا على حالة لم تألفها طباعهم ووضعية شاذة نفرت منها نفوسهم .

الفصل الثاني

الحياة العلمية والادبية في جبل عامل في العهدين القديم والحديث

لا بد لنا قبل الكلام في تاريخ جبل عامل العلمي في دوره الثالث من ان نمهد السبيل للبحث في حالة العلم والتعليم في دوريه السابقين الأول والثاني ، وكيف ومتى انشئت فيه المدارس ، وانتظم التدريس ، ودرجة رقيها العلمي.

قد يعجب القارىء وتعتريه الدهشة اذا علم ان هذه البقعة المعروفة بجبل عامل قد اخرجت عدداً وافراً من اهل العلم والفضل وذوي الثقافة العالية لا يتناسب مع ضيق رقعتها وقلة ساكنيهـا . وقد ناف عدد العلماء من الشيعة الأمامية في جبل عامل عن خُمس مجموعهم في انحاء المعمور ، مع ان بلادهم بالنسبة الى باقي بلدان الشيعة اقل من عشر العشر ، كما ورد في امل الآمـل ، وقـد سمعت من بعض مشائخنا انه اجتمع في جنازة في قريـة من قرى جبل عامل سبعون مجتهداً في عصر الشهيد الثاني [1] . والواقع ان القطر العاملي كان في طليعة الاقطار السورية من حيث الشهرة العلمية . وقد أحرز في هذا الشأن شأواً بعيداً لا يدانيه قطر آخر لا سيما في القرون الاخيرة حيث كان مثابة للرحلة العلمية من الآفاق ، ومركزاً هاماً من مراكز التدريس الكبرى . يؤمـه الطلاب من كل فوج وصوب ، ولم ينقطع فيه مدد العلم ، ولا خبا نوره الا في فترات قصيرة كانت تعقب الحروب والفتن التي يرافقهـا

---

(١) اعيان الشيعة مجلد خامس صحيفة ٩٣

التدمير والخراب واقفال المدارس وتعطيل معاهد التدريس .

وكانت هذه المدارس اشبه بالكليات منها بالمدارس العادية ويُدرّس فيها الفقه والاصول ، والحكمة الاشراقية ، والكلام والتوحيد ، والمنطق والفلسفة القديمة ، عدا العلوم العربية كالنحو والصرف والبيان واللغة . وكان بعضهم يُدرّس علم الهيئة والحساب والجبر والطب والهندسة وبعضهم يدرّس الفقه والاصول على المذاهب الخمسة . وكانت حلقات التدريس محبوكة بطلاب الشيعة والسنة دائبين على الاشتغال وارتشاف مناهل العلم والهداية بروح التساهل والاخاء ، بينما كانت عوامل البغضاء والتفرقة تلعب دورها في خارج تلك المجالس المباركة .

وفيما نقله ابو المعالي الطالوي في سيرة الفيلسوف العلامة الحكيم الشيخ داود الانطاكي [1] وما قاله عن رحلته الى جبل عامل : « دعتني همة علية

---

(١) هو الشيخ داود بن عمر الأنطاكي ، طبيب ماهر ضرير ، لم يكن في زمانه اعلم منه بالطب . ولد في انطاكية وحفظ القرآن وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات واحكم اليونانية ، وهاجر الى القاهرة ونال بها شهرة . ودخل الى مكة فمات فيها سنة ١٠٠٨ - وتصانيفه كثيرة منها : التذكرة ، وتزيين الاسواق في الادب ، وكفاية المحتاج في علم العلاج ، وشرح عينية ابن سينا . وله شعر وكان يُملي ذلك إملاءً . هذا موجز ترجمته كما وردت في مجلة الرسالة المصرية عدد ١١٣ صحيفة ١٤٠ . ويروي بعض الفضلاء قصة وقعت في النبطية بين العلامة الشهيد الثاني والشيخ الحكيم داود الانطاكي ولم ارها في كتاب ولا اعلم مقدارها من الصحة ، قال : دخل العلامة الانطاكي جبل عامل ووافى النبطية وفيها العلامة الشهيد الثاني وصلى الاول مؤتماً بالثاني ولما انتهت الصلاة نهض الشيخ الانطاكي الى ناحية من نواحي المسجد فأعاد صلاته . ولما سئل عن ذلك قال : ان الإمام لم يدرس التجويد وقد درسته فأعدت صلاتي . وبلغت المسألة العلامة الشهيد فلم يغضب وقال ربما كان مصيباً . ورحل من بعدها الى مصر ودرس علم التجويد فاتقنه ثم درس على اربعة عشر عالماً من الازهريين فنوناً مختلفة من العلوم العقلية والنقلية .

او علوية ان اصعد منه ، بعض ثغور الشام ، جبل عاملة فصعدته منصوباً على المدح ، وسكنت عاملة ، واخذت عن مشايخها مـــا اخذت ، وبحثت مع فضلائها فيا بحثت » . دليل على ما كان لجبل عامل من منزلة عالية ومقام محمود في المقامات العلمية الاسلامية في مختلف الاقطار .

بدء التدريس واول مدرسة علمية ، نشأت في جبل عامل:

لا يمكن الجزم وتحديد الزمن الذي بدأت فيه الحياة العلمية في جبل عامل لفقد المستندات والوثائق التاريخية غير ان الذي يـدور على الالسن ويتناقله الناس خلفاً عن سلف وقد اصبح في حكم الحقائق المقررة . ان انتشار مذهب الشيعة والعمل بفقه اهل البيت النبوي الكريم في جبل عامـل بدأ في القرن الاول للهجرة وفي عصر الخلفاء الراشدين . في الوقت الذي نفي فيه الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري رضى الله عنه من الحجاز الى الشام في عهد الخليفة الثالث. فوقع في هذه البلاد واتخذ لنفسه فيهـــا مقامين في قريتي الصرفند على ساحل البحر الابيض ، وفي ميس الجبل في الجهة الجنوبية الشرقية من جبل عامل على رابية تطل على الاردن . وله في هاتين القريتين مسجدان او مزاران عرفـــا باسمه الى يومنا هــذا . ومن هذين المقامين انبعثت روح التشيع في بني عاملة فعمّ الجبل باسره .

ولا ريب ان علماء هذه البلاد وفقهاءها كانوا على اتصال في القرون الاولى بالائمة الابرار من اهل البيت النبوي (ع) وعنهم أخذوا اصول مذهبهم وفروعه وانواع الفرائض والعبادات لا سيا في عصر الامـــام السادس جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام حيث دونت الاحكام الشرعية في فقـــه اهل البيت . فانتشرت الكتب وانتظمت حلقـــات التدريس على المذهب الجعفري .

وجاء في كتاب – امل الآمل في تراجم علماء جبل عامل للعلامة الشيخ محمد بن حسين الحر العاملي – في رواية يسندها الى الأمام الصادق ومحصلها انه

يصف قوماً من شيعة أهل البيت (ع) . ولما سئل عن مكان وجودهم قال : بلدة بالشام باعمال شقيف ارنون ، وبيوت تعرف بسواحل البحر واوطئة الجبال . (٥١)

ومما لا شبهة فيه ان الضغط والاضطهاد الذي وقع على العلويين في العصرين الاموي والعباسي الجأ من كان منهم في جبل عامل ، وهم حفنة صغيرة أحاط بهم مخالفوهم مذهباً وسياسة ، الى التكتم والتقية درءاً للاضرار ، وخوفاً من الموت المحتم . ولذلك غمضت الاخبار وخفيت الحقائق ولم يصلنا من حوادث تلك الأيام الا النزر اليسير . ولما دالت تلك الدول وانقضى عهد الجور والارهاق وظهرت دولة بني بويه في العراق وفارس ، ودولة بني حمدان في حلب والموصل ، ودولة العلويين في مصر والشام والحجاز وافريقيا استطاع الشيعيون ان يجاهروا بمذهبهم في مختلف الاقطار . ونشأت مدارس حلب في سوريا للسادة بني زهرة المعروفين بفقهاء حلب ، وكان لها اثر نافع دام حتى أواخر القرن السادس للهجرة حيث تقوضت اركانها في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م .

واشتهر بعدهم في جبل عامل جماعة من اهل العلم والفضل منهم الشيخ طمان بن صالح العاملي المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، والشيخ صالح بن مشرف العاملي ، والشيخ مكي بن محمد حامد الجزيني وغيرهم . ولم يذكر المؤرخون انهم اسسوا مدرسة او درّسوا في معهد . والغالب ان عوامل السياسة التي اشرنا اليها كانت تمنع هؤلاء ايضاً من الدراسة بالصورة الظاهرة فكان الابناء يتلقون عن الآباء تحت طي الخفاء وهلم جراً الى ان تأسست .

المدرسة الاولى في جزين :

حيث انتظم فيها التدريس بالمعنى المعروف . انشأها الامام العلامة الشيخ السعيد شمس الدين محمد بن مكي الجزيني العاملي المعروف بالشهيد الأول وهو من اشهر علماء الامامية على الاطلاق ، واوفرهم علماً واحاطة بالمعقول والمنقول .

ولد في جزين ونشأ في حجر ابيه وعنه اخذ دروسه الاولى واتمّ تحصيله في الحلة ، وكانت دار العلم والدرس في العراق بعد غارة التتر ونكبة بغداد ، على العلامـــة فخر الدين محمد بن الحسن بن المطهر الحلي المتوفى سنة ٧٧١ هـ. ولـــا عاد الى وطنه اسس مدرسة جزين التي حفلت بالطلاب والمشتغلين . وتخرج منها عدد وافر من العلمـــاء والفقهاء نشروا العلم وانشأوا المدارس في انحاء جبل عامل . وصاهروا الامراء مقدمي جزين الذي ينتمي نسبهم لقبيلة الخزرج من الانصار .

ولم يسلم هذا الامام من شرور التعصب وكيد الحساد والوشاة كالقــاضي بن جماعــة الدمشقي وتقي الدين الخيامي وغيرهمـــا . فقبض عليــه بأمر نائب دمشق الخوارزمي في عصر السلطان برقوق من ملوك دولة المماليك البرجية المصرية . وسجن في قلعة دمشق ، ودام اعتقاله احد عشر شهراً ، ثم قتل وصلب واحرقت جثته ضحى الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ٧٨٦ هـ ١٣٨٤ م . فاطلق عليه اسم الشهيد الأول لانه اول عالم قتل في سبيل الدين والعلم في جبل عامل .

وفي خلال سجنه كتب اليه السلطان علي بن المؤيد صاحب خراسان وما والاها يستدعيه الى حضرته في رسالة يقول فيها :

« وانّا لا يوجد فينا من يوثق بعلمه في فتياه ، او يهتدي الناس برشده وهداه ، والمأمول من اكرامه وانعامه ان يتفضل علينا ، ويتوجه الينا » . الى آخر ما كتب .

وفي سجن القلعة صنف كتاب اللمعة الدمشقية في الفقه الجعفري في سبعة ايام . وهي الى اليوم من امهات كتب التدريس في المذهب الجعفري . وقد شرحها الامام العلامة الشهيد الثاني . وأما بقية مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون فقد اربت على المائة كما ورد في سيرته. واما شيوخ اجازته في الرواية والحديث فلا يحصون كثرة . وحسبك ما ذكر في بعض اجازاته من انه

يروي مصنفات اهل السنة عن اربعين عالماً مع ما يرويه من مصنفات الشيعة عن شيوخه .

قتل الشهيد الاول في دمشق كما تقدم فاقفلت مدرسة جزين وتفرق تلامذتهـــا . وقد ترك ذرية مباركة كلهم اهل علم وفضل منهم : الشيخ رضي الدين ابو طالب محمد ، والشيخ ضياء الدين ابو القاسم علي ، والمنصور الشيخ حسن وكريمته ام الحسن فاطمة المعروفة بست المشايخ .

وكانت أم الحسن على جانب من العلم والفضل وكمال الاخلاق . اجازها والدها وشيخه ابن معية في رواية الحديث رواية وافية . وبعد مقتل ابيهـا قنعت من تركته ببعض الكتب النفسية ونزلت لاخوتها عن البـــاقي . وعند المشايخ آل شمس الدين المتصل نسبهم بالشهيد الاول عين الصك الذي كتب بالقسمة وهو مكتوب بماء الذهب وفيه : « اما بعد ، فقد وهبت الست فاطمة ام الحسن اخويها الشيخ ابا طالب محمداً وابا القاسم علياً سلالة العبد الاكرم والفقيه الاعظم الخ ... جميع ما يخصها من تركة ابيها في جزين ، هبة شرعية ابتغاء لوجه الله تعالى ، ورجاء لثوابه . وقد عوضا عليها كتاب التهذيب للشيخ وكتاب المصباح ومن يحضره الفقيه (وهو من تأليف العلامة ابن بابويـــه) وكتاب الذكرى لابيهم والقرآن المعروف بهديـة علي ابن المؤيد ، وطاحونة الجامع الخ. »

وتعددت المدارس بعد وفاة الشهيد الاول فكانت مدرسة ميس ، ومدرسة الكرك والمدرسة النورية في البقاع ، ومدارس اخرى في بعلبك وجبـــع وعيناثا والنبطية وجويا على ان اشهرها .

المدرسة الثانية في ميس

أسسها العلامة الفقيه المحدث الشيخ علي بن عبد العالي الميسي المتوفى سنة ٩٣٣ هـ - ١٥٢٦ م وهو المشهور عنـــد علماء الشيعة بالمحقق الاول الميسي وصاحب الرسالة الميسية في الفقه .

وكانت مدرسته مثابة طلاب العلوم من عامة انحاء الجبل (جبل عامل) ورحلة فضلاء الشيعة من العراق وايران وشيعة سوريا . وقد بلغ عدد طلابها في ذلك العصر اربعمابة طالب. وينتسب اليها كثير من العلماء كا ورد في أمل الآمل منهم العلامة العظيم الشهيد الثاني الآتي ذكره وغيره .

وتوفي المحقق الميسي في قرية (صديقين) بالقرب من تبنين ودفن فيها .

المدرسة الثالثة في الكرك :

اسس هذه المدرسة في كرك نوح في البقاع العلامة الشيخ علي بن عبدالعالي الكركي المعروف بالمحقق الثاني المتوفى سنة ٩٣٧هـ – ١٥٣٠ م وصاحب كتاب جامع المقاصد في الفقه . وله الرسالة الجعفرية الكثيرة الشروح . وفيه يقول التفرشي في كتاب الرجال عن شيخ الطائفة وعلامة وقته :« صاحب التحقيق والتدقيق ، كثير العلم ، جيد التصنيف ، سافر الى ايران فأسندت اليه رياسة العلماء في الدولة الصفوية ، وتخرج من مدرسته نفر غــير يسير من العلماء واهل الفضل » .

المدرسة الرابعة المدرسة النورية في بعلبك :

هي مدرسة قديمة العهد ذات شهرة طائرة تولى التدريس فيها بأمر سلطاني الامام زين الدين بن علي بن احمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي‌الدين بن صالح العاملي الجبعي المعروف بالشهيد الثـــاني . وفي بعض كتبه زاد على نسبته التحاريري نسبة الى التحارير وهي من قرى جبل عامل الجنوبية الدارسة ، وموقعها على ما يظن في الارض المسماة وادي التحارير على بعـــد ميلين من ميس . وزاد في نسبته ايضاً صاحب روضة الجنات الطاووسي والراجح انه محرف عن الطلوسي نسبة الى طلوسة وهي من قرى الجنوب على مقربة من ميس ايضاً .

ولد في سنة ٩١١ هـ وقرأ على والده اوليات العلوم ثم ارتحل الى مدرسة ميس سنة ٩٢٦هـ بعد وفاة والده ، ثم الى مدرسة الكرك ، ثم الى دمشق فدرس

على علمائها ، ثم الى مصر سنة ٩٤٢ هـ وحضر حلقات اربعة عشر عالماً من علماء الازهر ، ثم الى الحجاز في سنة ٩٤٣ هـ لتأدية فريضة الحج بصحبة الشيخ ابي الحسن البكري احد شيوخه المصريين. وفي سنة ٩٥١ شخص الى القسطنطينية يصحبه تلميذه الشيخ حسين عبد الصمد الهمداني الجبعي ، والشيخ محمد ابن العودي الجزيني . وحصل على براءتين من السلطان سليمان القانوني احداهما له بالتدريس في المدرسة النورية في بعلبك ، والثانية لتلميذه الشيخ حسين بن عبد الصمد بالتدريس في احدى مدارس حلب . وعاد الى بلاده في سنة ٩٥٣ هـ وباشر التدريس في المدرسة النورية على المذاهب الخمسة . وكان يعلم كثيراً من الفنون ويفتي أهل كل مذهب بما يوافق مذهبهم . وقال في حقه العلامة بن عودي : « انه كان شيخ الطائفة وفتاها ، ومبدأ الفضائل ومنتهاها . لم يصرف زمناً من عمره إلا في اكتساب فضيلة . »

وقد بلغ الغاية في الفقه والاصول والحديث والكلام والحكمة والمعقول والهندسة والحساب والفلسفة وغيرهـا . وقد ألّف ستين كتاباً بين مختصر ومطوّل اكبرها المسالك في الفقه . وكتب بخط يده مائة كتاب ، وشرح جل كتب الشهيد الاول وأكبرها شرح اللمعة الدمشقية .

ولم يسلم ، على جلالة قدره وسعة صدره وبعد صيته واختلاطه مع كبار العلماء المعاصرين من سائر الطوائف ، من كيد الحاسدين وبغي المارقين . فوشوا به الى الحكام فطلبوه طلباً حثيثاً فاستتر زمناً عن العيون في ظلال جنائن جبع يدوّن ويصنّف ثم جد به الطلب ففر الى الحجاز فلحق به رجال السلطة اليها فقبضوا عليه في مكة المكرمة بين الركن والمقام وجاءوا به الى القسطنطينية عاصمة السلطنة . حتى اذا اقتربوا من قونيه قتلوه في سنة ٩٦٦ هـ — ١٥٥٨ م وحملوا رأسه الى السلطان . فانكر فعلتهم وعاقبهم بالقتل بسعي مفتي القسطنطينية الشريف عبد الرحيم العباسي صاحب كتاب معاهد التنصيص وكان صديقاً مخلصاً للشهيد . وقد اطلق عليه اسم الشهيد الثاني .

اسسها العلامة السيد ابو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي المتوفى سنة ١١٩٥ هـ فكانت مدرسة حافلة بالطلاب والمشتغلين. وقد ضمت اربعماية طالب.

وفي هذا العهد بلغ العلم والأدب في جبل عامل حده الاقصى فسطع نوره وراجت سوقه وفاح اريجه . وزهت البلاد بالعلماء والادباء واهل الفن والتأليف . غير ان الاقدار شاءت ان يقف سيرها ويخبو نورهـــا وتتعطل حركتها وتذوي نضارتها .

فثارت الحروب والفتن بين زعماء جبل عامل وولاة الدولة يظاهر هؤلاء حكام جبـــل لبنان من آل معن وآل شهاب واشتدت الكوارث وعظمت النكبات وزادت الحروب استمراراً الى ان انتهت بيوم مارون ، قرية في جنوبي جبل عامل ، حيث قتل زعيم جبل عامل ودرعه الحصين ناصيف بن نصار الاحمد الوائــــلي في سنة ١١٩٥ هـ - ١٧٨٠ م . فتقوض استقلال جبل عامل وفتك الجزار بمن قبض عليه من العلماء . وهاجر من لم يقتل او يسجن الى خارج البلاد . وشخص بعضهم الى ايران والهند والافغان . وخلت البلاد من العلماء الا من اقعده العجز فقبع في كسر بيته وانقطع للزهد والعبادة . ووقف التدريس واغلقت المدارس ونهبت المكاتب واحرق اكثرها في افران عكا . ثم نشبت حرب العصابات وكانت هائلة فازداد البلاء والشقاء . وكل ذلك تقدم الكلام عليه في فصول سابقة .

ودامت الحال على ما ذكر اكثر من ربع قرن الى ان جاء الفرج ومنّ الله سبحانه بالخلاص . ففي سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م انشبت المنيـة اظفارها بالطاغية احمد باشا الجزار فتباشر الناس بموته وتلاعب الشعراء بهجائه وتاريخ وفاته . وقد اشرنا الى ذلك فيما تقدم . وتولى بعده سليم باشا ثم سليمان باشا ثم عبدالله باشا الخزندار . وفي عهد الثاني وقفت حرب العصابات وعقد اتفاق بين زعماء الثورة والوالي . وتعدّل الاتفاق في عهد الثالث فأعاد للشيعيين حكم بلادهم وحباهم بالمنح الجزيلة . ثم دخلت الحياة العلمية في عهد آخر .

الحياة العلمية في عهدها الثاني

تقدم القول ان الحياة العلمية في جبل عامل وفي عهدها الاول صدتها عوامل السياسة بعد حروب الجزار في سنة ١١٩٥ هـ — ١٧٨٠ م عن سيرها فانهار بنيانها وتداعت اركانها. وكانت ضربة اليمة وكارثة جسيمة هزت البلاد هزاً عنيفاً واحتل جيش الجزار المؤلف من اكراد وألبان ومغاربة وسقمان حواضر البلاد احتلالا عسكرياً ترافقه الشدة والبطش والاذى . وكانوا لا يسمعون بوسر الا هاجموه وابتزوا امواله وسلبوه ما يملكه.وقد كثر اعتداؤهم على الاهلين الضعفاء والمزارعين العزّل من السلاح فنهبوا مواشيهم وامتعتهم والبستهم حتى طعامهم وشرابهم . فانتشرت الفوضى ونشبت الثورة ، والضغط يولد الانفجار ، فاختل الامن وانقطعت السابلة . فاغلقت المدارس واقفلت معاهد العلم وانقطعت سلسلة التدريس بعد أن تبوأت منزلة رفيعة واحرزت شهرة واسعة يقرن معها اسم جبل عامل بالاجلال والاعظام في سائر اقطار الشيعة من الهند الى ايران الى روسيا الى غيرها من بلدان الشيعة .

ولما انتهت حياة الطاغية (الجزار) وقضى غير مأسوف عليه في سنة ١٢١٩ هـ — ١٨٠٤ م وجهت ايالة صيدا ، بعد سليم باشا الذي كانت ولايته قصيرة العمر ، الى سليمان باشا . وكانت بلاد عاملة قد اصبحت شعلة من نار تتقد بحرب العصابات وقد لفحت نارها واشتد سعيرها فعمت جبل عاملة وشملت اطراف فلسطين . وامتد امدها الى ربع قرن فاحرقت الأخضر واليابس ولم تبق ولم تذر .

ورأى سليمان باشا [1] ان البلاد سائرة الى الخراب التام ، وكان ذكياً بعيد النظر يميل بطبعه الى العدل ، فأوفد معتمده باكير آغا الى زعماء الثورة يدعوهم الى الطاعة وطرح السلاح وايقاف الغارات . وكلفه ان ينقل اليه مطاليبهم للنظر فيها . فردوا رسوله ورفضوا دعوته وابوا الدخول معه في مفاوضة لعدم وثوقهم بوعود الترك ولما اشتهر عنهم من الغدر ونقض العهود . فاستنجد الباشا بالأمير بشير الشهابي الثاني حاكم جبل لبنان وطلب تدخله بالقضية واقناع الثوار بالخلود الى السكون والمهادنة حتى انجلاء المفاوضة. وبعد مراسلات بين الامير وزعماء الثورة تولى القيام بهـا جرجس باز معتمد الامير ، والحاج حسن شيث معتمد الثوار . انتهى الأمر وتم الاتفاق في عكا في أحد شهور سنة ١٢٢٠ هـ — ١٨٠٥ م بين سليمان باشا وزعماء الثوار ، بحضور راغب افندي الذي اوفده الباب العالي مندوباً فوق العادة للنظر في شؤون ايالة صيدا ، على شروط بسطناها في فصل سبق .

استراحت البلاد بعد اتفاق عكا وعاد الامن الى نصابه ونهضت من كبوتها توصل ما انقطع وتبني ما انهدم . وعادت الحركة العلمية التي سنتكلم عنهـا بايجـاز تاركين التفصيل الى المطولات . وكانت اول مدرسة تأسست في ذلك العهد هي :

مدرسة الكوثرية

والكوثرية قرية في شمالي جبل عامل تبعد عن النبطية بضعة اميال غرباً. اسس فيها العلامة الشيخ حسن قبيسي بايعاز من علمـاء الشيعة وأساطينها في النجف الاشرف اول مدرسة علمية في العهد الثاني من حياة جبل عامل العلمية تدرّس فيهـا العلوم العربية والدينية وآداب اللغة . وكان الناس في ظمأ

(١) سليمان باشا كورجي الأصل مسيحي ارثوذكسي خطف صغيراً وبيع نوقع في ملك الجزار وارتفعت منزلته عنده فخلفه في الولاية وكان متمسكاً بالشريعة الاسلامية يعامل ابناء الطوائف بالمساواة محبوباً من الجميع .

لارتشاف مناهل العلم بعد تلك الصدمة التي دهمت البلاد . فتهافت عليهـا الطلاب من كل حدب وصوب وحفلت بالمشتغلين والمدرسين . وكان في عداد تلامذته فريق صالح اصبحوا بعدها من كبار المجتهدين ومرجع الفتيا في جبل بني عاملة وما جاورها من بلدان اهل الشيعة منهم :

العلامة الاكبر الشيخ عبدالله بن علي نعمة الجبعي الآتي ذكره . والعلامة الشريف السيد علي بن السيد ابرهيم الحسيني الذي اسند اليه منصب الافتاء على المذهب الجعفري في القسم الشمالي من جبل عامل في عهد ولاية سليمان باشا وعبدالله باشا وكان ممن تولى التدريس في تلك المدرسة وتوفي في سنة ١٢٦٠هـ ١٨٤٤ م . والعلامة الشيخ محمد علي عز الدين مؤسس مدرسة حنويه الآتي ذكره . والعلامة اللغوي الاديب الشاعر الشيخ علي بن محمد السبيتي مؤلف كتاب اليواقيت في البيان والجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بـك الاسعد وغيرها ، وكان تولى التدريس في مدرسة كفره كما سيأتي وتوفي في سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٥ م . والشاعر البليغ الشيخ عـلي بن ناصر بن زيدان المتوفى في سنة ١٢٨٩ هـ -- ١٨٧٢ م . ومحمد البك بن محمد بن محمود النصار الوائـلي وقد خرج من مدرسة الكوثرية عالماً شاعراً اديباً واصبح بعدها زعيم جبل عامل وشيخ مشايخ بلاد بشاره كما كانت تنعته المراسلات الحكومية .

وقد اعاد هؤلاء الافاضل للعلم رواءه ، وللأدب العاملي بهجته ، وللبلاد ذكرها الطيب . ودامت مدرسة الكوثرية الى سنة ١٢٥٨ هـ — ١٨٤٢ م وفي هذه السنة توفي مؤسسها العلامة القبيسي فانتهت حياة المدرسة بانتهاء حياة رئيسها . وانتقلت حركة التدريس الى :

مدرسة جبع

كان علامة وقته وشيخ الطائفة في عصره الشيخ عبدالله نعمه تلميذ مدرسة الكوثرية قد امّ العراق فأتم تحصيله في جامعة النجف الاشرف . حتى اذا بلغ درجة الاجتهاد الكبرى رحل الى ايران فاتخـذ مدينة رشت دار اقامة له

ولبث فيها بضع سنين ثم عاد الى وطنه . وافتتح مدرسة جبع [1] فدلف اليها الطلاب من فلول مدرسة الكوثرية وغيرهم. واصبح الشيخ مرجع الفتيا في جبل عامل وما جاوره من بلدان الشيعة على الاطلاق . وتخرج على يديه عدد غير يسير من كبار العلماء واهل الفضل منهم : العلامتـان المجتهدان السيد حسن يوسف مكي الحسيني والشيخ موسى شرارة الآتي ذكرهما؛ والعلامتان الاخوان الشيخ محمد سليمان الزين مؤلف كتاب شرح النظام في الصرف والشيخ حسين المعروف بابي خليل الزين ، وولده الشيخ حسن نعمه وكان معروفاً بطول الباع وسعة الاطلاع بالفقه وعـلوم الدين . والشيخ علي الحر [2] وغيره من الفقهاء والادباء . وقد انضم الى مدرسة جبع عدد من اهل النبطية وجوارها منهم الشيخ قاسم محمد قدوح والشيخ قاسم محمد صفا (زبدين) والسيد قاسم والسيد جواد احمد فحص (جبشيت) وغيرهم . وعمّرت هذه المدرسة اربعين عاماً ، واوجدت في البلاد نهضة علمية واسعة النطاق ثم افـل نجمها وتضاءل عدد طلابها لاسباب لا مجال لايرادها .

وفي الحنين اليها والى عهدها الزاهر واياما الغرّ يقول الشيخ الرئيس :

اذا ذكرت نفسي زماناً تصرمت ... لياليه بالدهنا وعيشاً تقطعـا
هتفت بها تيك الصحاب كأنني ... وليد تمنّى بالعشيات مرضعا

(١) كانت جبع وما برحت بلد العلم والفضل بعد جزين ومشغرة ومنها انتقل اليها معظم الاسر الكريمة وهي موطن القطب الرباني الشهيد الثاني كما اشرنا من قبل ، وفيها وتحت ظلال حدائقها الغناء الف معظم كتبه . ولم ينقطع منها حبل التدريس منذ اجيال ولم تخل من علماء اعلام وفقهاء وادباء .

(٢) العلامة الزعيم المفكر الشيخ علي الحر من اشهر علماء وزعماء جبل عامل في العهد الاخير . اشتهر باصالة الرأي وبعد النظر والكرم الحاتمي والغيرة على مصالح الطائفة ونزاهة القصد . وكان في المعاملات الرسمية الحكومية (التشريفات) يتقدم جميع زعماء جبل عامل . وله المواقف المشهورة لدى الوزراء والولاة يضيق المقام عن استيعابها لا سيما موقفه المعروف في حضرة فؤاد باشا في حوادث سنة ١٨٦٠ . وابوه الشيخ احمد وجده الشيخ محمد الحر واسلافهم من قبل كانوا يتولون القضاء في جبل عامل تحت اسم نائب البشارتين . والشيخ علي كان من رجال الحركة العربية وعضو مؤتمر دمشق في عهد مدحت باشا .

وتوفي العلامة الشيخ عبد الله في سنة ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥م وانتقلت حركة التدريس الى :

مدرسة حنوية :

ومدرسة حنوية (قرية بالقرب من صور) شيدها وتولى رياستها العلامة محمد علي عز الدين بعد رجوعه من النجف الاشرف حيث اكمل تحصيله واحرز درجة الاجتهاد . وكان من اكابر علماء عصره ومن ابعدهم نظراً ، واوسعهم اطلاعاً ، واوفرهم احاطة بالعلوم والفنون ، بعيداً عن الجمود يميل بطبعه الى التوسع واقتباس النافع من العلوم العصرية والفلسفة الحديثة . وقد الّف كتباً كثيرة منهــا : روح الايمان في علم الكلام ، وتحفة القارىء في الحديث ، وسوق المعادن في فنون شتى وغيرها . وله ديوان شعر مخطوط .

ومن تلامذته العلامة السيد نجيب فضل الله المتوفى في سنة ١٣٣٦ هـ - ١٩١٧ م ، والعلامة الشيخ مهدي شمس الدين المعروف بسعة الاطلاع والادب الرفيع . رأيته لأول مرة وانا شاب حدث وقد قدم النبطية في احدى السنين فرأيت شيخاً جليلاً ملء برديه المهابة والوقار ، بهي الطلعة حاضر الجواب . وكان يصحب في اسفاره كيساً صغيراً من نسيج ابيض يضم كتبه واوراقه وما يحتــاج الى مراجعته وتدوينه في حله وترحاله . وقد كتب على ظهر الكيس الابيات الآتية :

خمس وستون من عمري مضت حججاً   افنيت ايامهــا بحثاً وتدريسا
ما ان اقمت نهــاراً نضو بلقعة   ولا رأيت بدار الجهـل تعريسا
اطوف بالكيس ابواب الألى ملكوا   روض العلى فلعلي املأ الكيسا

وتوفي في سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٥ م عن خمسة وثمانين عاماً . وله مؤلفات عديدة في الفقه والأدب والاجتماع كلها مخطوطة لم يطبع منها كتاب .

ومن تلامذة مدرسة (حنوية) : العالم البحاثة السيد محمد بن علي بن ابراهيم الحسيني المتوفى سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م وهو احد مؤسسي النهضة العلمية في النبطية ورئيس مدرستها الاهلية التي مشت على النهج الجديد وكانت نواة للنهضة العامة في جبل عامل . وهو استاذنا الأول وصاحب الفضل علينا. درس اولا على اخيه العلامة المجتهد السيد حسن علي ابراهيم واتم تحصيله في مدرسة حنوية وصاهر رئيسها العلامة المحقق فتزوج كريمته .

ومنهم حفيد الشيخ الرئيس الشيخ ابراهيم بن الشيخ حسن عز الدين وكان عالماً فاضلاً عالي الهمة. اتم تحصيله في النجف الاشرف وعاد الى حنوية فافتتح مدرسة جده وسار على نهجه . غير ان الاقدار لم تمهله فعاجله ريب المنون في سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٤م ومن تلامذته الشيخ حبيب المهاجر مفتي بعلبك حالياً.

اما وفاة الجد الرئيس فكانت في ٣ ربيع الثاني من سنة ١٣٠١هـ-١٨٨٥م.
وكان العلامة الاشهر الشيخ موسى بن الشيخ امين شراره قدم من العراق وقد سبقته شهرته والتحدث بغزارة علمه وطلاقة لسانه ومقدرته الخطابية بالوعظ والارشاد فأسس :

مدرسة بنت جبيل

فقصدهـــا طلاب المدارس من قديم وحديث وانضم اليهم عدد وافر من المشتغلين في طلب العلم . واصبحت بنت جبيل في عصره دار العلم في جبل عامل ، ومحط رحال الادباء ، ومنتجع اهل الفضل. وقد ابت الاقدار الغاشمة ان تتم هذه النعم الجزيلة في هذه البقعة فعاجل المرض رئيسها وكان نحيف البنية عليل الجسم فتوفي في سنة ١٣٠٤ هـ- ١٨٨٦ م . فكان الاسف على فقده عاماً ، والحزن شديداً . واقفلت بعده تلك المدرسة وتفرق طلابها .

وقد ترجم العلامة الشيخ موسى تلميذه السيد محمد رضا فضل الله العيناثي في رسالة خاصة جاء فيها : انه ولد في سنة ١٢٦٧ هـ وسافر الى النجف الاشرف

في سنة ١٢٨٤ فأكمل تحصيله وآب منها في سنة ١٢٩٨هـ وتوفي في سنة ١٣٠٤م كما مر معنا . وذكر له جملة مؤلفات منها : منظومة في الاصول تسمى الدرة، واخرى بالمواريث ، وكتاب بالفقه لم يتم تأليفه ، ورسالة في تهذيب النفوس .

ثم عدد تلامذته فذكر منهم العلماء الاجلاء الآتية اسمائهم وهم من خيرة علماء جبل عامل فضلاً وعلماً وهم :

الشيخ حسين مغنية ، والسيد محسن الامين ، والشيخ عبد الحسين صادق ، والسيد نجيب فضل الله ، والسيد يوسف شرف الدين ، والسيد حيدر والسيد جواد مرتضى ، والشيخ موسى مغنية ، والشيخ عبد الكريم الزين ، والشيخ محمد دبوق .

مدارس جدل سلم وشقراء وحوبا وكفره وعيناثا

ثم مدارس انصار والنميرية والنبطية

ونشأت مدارس صغيرة في هذا العهد في مجدل سلم برآسة العلامة الشيخ مهدي شمس الدين (المار ذكره)، وفي شقراء [1] برياسة العلامة السيد عبدالله الأمين، وحوبا برآسة العلامة الشيخ محمد علي خاتون، وكفره برآسة العلامة الشيخ علي بن محمد السبيتي ، وعيناثا برآسة العلامة السيد محي الدين من آل فضل الله. ومدرستا انصار والنميريـــة انشأهما وتولى رآسة التدريس فيهما العلامة السيد حسن علي ابرهيم المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م . وكان عالماً جليل القدر وافر الفضل . وقد مرد لنا ولده العلامة السيد محمد ابرهيم قاضي الشرع في محكمة مرجعيون الجعفرية اسماء العلماء الذين تتلمذوا على ابيه او اتموا تحصيلهم عليه فمنهم : السيد محمد ابرهيم (وقد مر ذكره) والشيخ احمد عبد المطلب

---

(١) والحق ان قرية شقراء قد سعدت بالاسرة الكريمة آل الامين الحسيني فنبغ منهم علماء اعلام وفقهاء أجلاء وشعراء وادباء . وقد اشادوا فيها المدارس التي رفعت المستوى العلمي وافادت المجتمع. والفوا الكتب النافعة واشهرهم في العهد الاخير : العلامة المغفور له السيد علي محمود الامين المتوفى في سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م وكان عالماً جليل القدر بعيد الهمة يميل الى التجدد ونبذ الجمود والاخذ بالمناهج الجديدة . وقد سعى غير مرة لانشاء مدرسة عالية على الاساليب العصرية تضم ابناء جبل عامل وتصرفهم عن مدارس الاغيار . وكان يوزع النشرة تلو النشرة يحث الناس على الاخذ بناصره غير ان المنية عاجلته قبل ان تتحق بغيته .

ومنهم : العلامة الاشهر السيد محسن الامين كبير المجتهدين ونزيل دمشق ومؤسس المدارس العلوية فيها المعروف بسعة اطلاعه وسمو قصده وبتآليفه الوفيرة النافعة واحاطته بعلمي المعقول والمنقول وسيره على خطة السلف الصالح ورحلته الى الاقطار الشاسعة للبحث والتنقيب عن مؤلفات اهل الشيعة ونشرها للانتفاع بها اجزل الله ثوابه ونفعنا بعلمه وفضله .

مروة ، والشيخ باقر بن الشيخ الحافظ محمد حسين مروة ، والشيخ طالب سليمان البياضي ، والشيخ حسن بن الشيخ محمد علي قبيسي ، والشيخ خليل كوثراني ، ثم أولاده العلامتان السيد محمد ابرهيم المعروف بسعة الاطلاع والضليع بعلم الاصول والفقه ، والسيد مهدي .

مدرسة النبطية الصغرى المعروفة بالفوقا

ومدرسة النبطية الصغرى تعرف بالمدرسة النورية نسبة لآل نور الدين وهي مدرسة قديمة العهد أسست في السنة التي قدم فيها رؤساء هذه الاسرة الكريمة من قرية سكيك في الجولان وكانوا رحلوا اليها رحلتهم الاولى من كفرحونا في جبل الريحان من اقليم جزين على اثر خلاف نشأ بينهم وبين بعض امراء جبل لبنان ، اذ خطب اليهم احدى بناتهم لنفسه فأبوا تزويجها له . وهجروا وطنهم خوفاً من الأذى الى سكيك ، ومنها الى النبطية .

وآخر من عرفناه منهم ومن تولى التدريس فيها المغفور له استاذنا المحترم السيد محمد علي نور الدين ، وكنا من تلامذته ودرسنا عليه المنطق والبيان . وكان عالماً ورعاً فاضلاً ذا جلال وهيبة ووقار . وعاشت المدرسة النورية زمناً ليس بيسير وانجبت فريقاً كبيراً من العلماء والادباء منهم : العلامة الفاضل السيد عبد الحسين بن السيد ابراهيم نور الدين مؤلف كتاب الكلمات وغيره من الكتب القيمة ، والعلامتان الشيخ عبد الله والشيخ محمد الحر ، والعلامة الورع التقي الشيخ رشيد قمون الزبديني المتوفى سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م في النجف الاشرف ، والعلامتان الفاضلان الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر من اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، فقد كان بدء تحصيلهما في هذه المدرسة . والشيخ علي مروة ، والشيخ جواد سبيتي وكان احد المدرسين فيها ، والشيخ حسين محمد صفا ، والسيد علي جواد فحص .

وتوفي المرحوم السيد محمد نور الدين في سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .

وقبل وفاته انتقل التدريس الى النبطية الكبرى حيث نشأت المدرسة الحميدية .

المدرسة الحميدية

اسسها العلامة المغفور له السيد حسن يوسف الحسيني بعد رجوعه من العراق في سنة ١٣٠٩ هـ – ١٨٩١ م ونعتها بالحميدية نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني كما جرت العادة وأوحته السياسة في ذاك العصر . اذ كانوا ينسبون كل بناية علمية او مؤسسة عامة او مسجد جديد او مدرسة او سوق او حديقة عمومية الى السلطان (١) تيمناً باسمه .

وقد انتظمنا في سلك تلامذة هذه المدرسة مع من انضم اليها من تلامذة المدرسة النورية وفيها درسنا الأدب والمنطق والبيان . ورأينا بأم العين رقيها الرائع وتقدمها المطرد . وشاهدنا تطوراتها وما كان يحصل فيها من الوقائع والنوادر ، ومـا جرى في سبيلها من الحوادث الهامة .

ولا بد قبل الشروع في ذكر تطورات المدرسة الحميدية واثرهـــا الأعم الانفع في البلاد وذكر لمحة من سيرة حيـــاة مؤسسها السيد الرئيس واعماله الخالدة ، ان نقدم كلمة وجيزة في تاريخ النهضة العلمية الحديثة التي بدأت في أول القرن الرابع عشر للهجرة . وكانت نواة صالحة لنهضة فكرية نشأت في النبطية فعمت جبل عامل بأسره .

بدأت هذه النهضة في سنة ١٣٠٠ هـ – ١٨٨٢ م ففيهـا فتحت في النبطية

---

(١) وكذا كان اعوان عبد الحميد في عهده المخيف يلزمون الناس بمثل هذه السفاسف تزلفاً اليه . وكانوا لا يجيزون لاحد ان يسمى بأسم عبد الحميد او عبد المجيد او عبد العزيز او مراد . وفي المعاملات الحكومية كانوا يقلبون اسم عبد الحميد الى حامد وعبد المجيد الى ماجد وعبد العزيز الى عزت . و الامير الى مير او بك واما اسم مراد ، وسلطان التي هي من القاب بعض الاسر فلا يجيزونها مطلقاً . واذكر ان احمد افندي سلطان وهو فقيه ومحام طرابلسي ذائع الصيت في ذاك العصر قدم لرئيس محكمة الاستئناف الحقوقية في بيروت لائحة قانونية وقعها بتوقيعه احمد سلطان فلما وقف الرئيس عليهـا وقرأ توقيعها ارتاع وكشط النون فصار اسم الرجل احمد سلطا . ذكر لي هذه القصة احمد افندي نفسه وهو يضحك استخفافاً بتلك العقول السخيفة . والنوادر في هذا الموضوع كثيرة لا مجال لذكرها .

اول مدرسه اهلية على المناهج العصرية . وقد وضع اساسها وسهل اسبابهـا الزعيم الوطني الخالد المغفور له رضا بك الصلح عندمـا تولى حكومة النبطية وملحقاتها . وقد ضمت ستين تلميذاً من ناشئة النبطية وغيرهـا من قرى جبل عامل . وكان يعنى بهـا اشد العناية . وجاء لها باساتذة افاضل من بيروت وطرابلس . وكان يزورها في كل يوم ، ويتولى القاء بعض الدروس بنفسه ، ويبث بين الطلاب الروح القومية ، ويجعلهم يتمرنون على الخطابة بين يديه في مواضيع اجتماعية وشؤون وطنية .

وكانت الدروس اولا قاصرة على النحو والصرف والادب العربي والحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة التركية ، لغة الدولة الرسمية . ولما ارتقت وظيفة الصلح الى قائمقام في المرقب من اعمال اللاذقية واستقال رئيس المدرسة السيد مصطفى العكاري وتولى التدريس فيها العلامة السيد محمد علي ابراهيم ، المار ذكره في فصل سابق . فوسع دائرة التدريس وعنى بتثقيف كبـار الطلبة وتلقينهم الادب الرفيع وتدريبهم على انشاء الرسائـل وقرض الشعر . وكان يلقي عليهم درساً في المنطق والبيان والفلسفة على طريقة ابن سينا ، وبعض الطبيعيات ، ثم كتاب النقش في الحجر تأليف الدكتور كرنيلوس فنديك .

ولم تقتصر عنايته على المدرسة فحسب ، بل عمت البلدة كلها . فكان في الليل يعقد مجلساً عاماً في منزل آل رضا يحتشد فيه القوم على اختلاف طبقاتهم فيلقي دروساً دينيـة في العقائد والعبادات ، ويعظ ويرشد على منبر المسجد الجامع ويحض الناس على النهضة ونبذ الجمود وعلى تعليم ابنائهم ومساعدة الطلبة والمشتغلين في طلب العلوم . مما كان له في النفوس احسن الاثر واعظم النفـع .

ودامت الحال في تقدم رغمـاً عن عوامل التعصب ومعاكسة الحكام وفساد اخلاق بعض الرجعيين الى سنة ١٣٠٩ هـ - ١٨٩١ م حيث قدم من

العراق العلامـــة المغفور له السيد حسن يوسف الحسيني [1] وافتتح المدرسة الحميدية في سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م كما سبقت الاشارة .

وكان العلامة السيد حسن من اعظم علماء جبل عامل مقامـــاً واوسعهم شهرة واشدهم حرصاً على شؤون الطائفة والذود عن حياضهـا . دائب السعي لجمع الكلمة ، وتقويم الاعوجاج ، والصلح بين المتخاصمين ، والانتصار للحق. شديداً على زمرة البطل والمستخفين باوامر الشريعة وتعاليم الاسلام . عـاملاً على قطع الخلاف ومحو التعصب الذميم وتقريب القلوب بين طوائف المسلمين ثم بين المسلمين والنصارى وكان يصون هؤلاء من كل اذى في ذلك الوقت العصيب. وقد قدّر له هذه الخلة الصالحة الطيب الذكر المطران باسيليوس حجار مطران طائفة الروم الكاثوليك في صيدا ودير القمر ومـا يليها وكانت بينهما صداقة متينة العرى .

وكان منزله في الليل يضم خلقاً كثيراً من الاهلين فيسمعون وعظه وارشاده وحضه على عمل المعروف والاحسان الى المحتـاجين وعضد المشاريع الخيرية ومساعدة بيوت العلم. وكان حريصاً اشد الحرص على جمع كلمة الطائفة وحفظ كرامتها . ومن اقدر الناس على حلّ المشاكل وفصل الخلاف. فلا يسمع بنزاع بين متخاصمين الا وسار بنفسه وعمل على حله بنية حسنة ورغبة صادقة .

---

(١) هو السيد حسن بن السيد يوسف بن السيد ابرهيم بن السيد علي المعروف بالمكي ينتهي نسبه الى الامام الثالث الحسين بن علي عليهما السلام . ولد في حبوش ، قرية تبعد عن النبطية ثلاثة اميال شمالا ، في سنة ١٢٦٠ هـ ـ ١٨٤٤ م ودخل مدرسة جبع حيث درس العلوم العربية وشيئاً من الفقه وعلوم الدين . ثم هاجر الى العراق في طلب العلم فدخل جامعة النجف الاشرف فلبث فيها ثلاثـاً وعشرين سنة . واتم دروسه في الفقه واصول الفقه وتمكن من علوم الشريعة حتى احرز درجـة الاجتهاد . وكان تحصيله في النجف على اجلة علمائها الاعلام كالشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد حسين الكاظمي والميراز حبيب الله وغيرهم من العلماء .

وعاد الى جبل عامل بعد ان اجازه كثير من العلماء في سنة ١٣٠٩ هـ ـ ١٨٩١ م كما مر آنفاً . فأقام في النبطية وأسس المدرسة الحميدية فزهرت بعلومها وطلابها طيلة اربعة عشر عاماً الى ان توفي في سنة ١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م فأغلقت المدرسة ابوابها وتفرق طلابها .

وقد اثرت اعماله تأثيراً عظيماً في النفوس ، واتجهت نحوه الانظار . ولم يمض قليل من الزمن حتى نشأت في البلاد حالة روحية ويقظة عامة واتجـــاه في التفكير لتكوين كتلة متماسكة تنهض بالبلاد وتسترد ما ضاع من حقوقها .

وذاع صيت السيد في المدن السورية والبلدان المجاورة. وكان محترم الجانب موفور الكرامة لدى زعماء الطوائف ورجال الحل والعقد . فازدادت هيبته في النفوس وعقدت الخناصر على محبته والاسترشاد برأيه لا سيا وقد كان ، احسن الله جزاءه ، عطوفاً على جميع من عرفهم ، جواداً كريماً مضيافاً انيق الملبس والمطعم لا قيمة عنده للمال ولا يعبأ بحطام الدنيا .

السيد الرئيس في المدرسة

كانت الارض التي اسست فيهـــا المدرسة الحميدية ساحة فسيحة بجوار منزل السيد يملكها الحاج حيدر جابر . وكان هذا الحاج تقياً صالحاً ثرياً سخي الكف على المشاريع الخيرية [1] فأثر فيه ارشاد السيد فنزل عن تلك الارض وأوقفها على بناء مدرسة لنشر العلم ودرس الشريعة الاسلامية وبنى فيها عدة غرف على نفقته .

---

(١) هو الحاج حيدر بن علي بن الحاج حيدر بن الحاج جابر بن الشيخ حسين آل صفا ولد وعاش في النبطية وتوفي في سنة ١٣١١ هـ وهو الذي جدد بناء الجامع الكبير في النبطية في سنة ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م وقد اشرف على الخراب فشيده على نفقته وبذل في ذلك اموالاً طائلة وحفر بئراً يستقي منه الناس في الجهة الغربية من البلدة يعرف ببئر الحاج حيدر .

وفي انشاء المسجد وتاريخ بنائه نظم المغفور له السيد محمد علي ابراهيم الذي تكلمنا عنه آنفاً الابيات الآتية نقشت على بلاطة كبيرة ورفعت فوق الخراب ولم تزل الى اليوم .

لئن كان اقوام الى المال اخلدوا ... ولم يرغبوا في اجر ما ليس ينفد
لقد قـام بالمعروف والخير ماجد ... جدير بفعل المكرمات مسدد
ابو الفضل والاحسان من آل جابر ... على سالف الازمان ما زال يحمد
بنى مسجداً مذ تم ارخوا ... فذا حيدر فيه زها اليوم مسجد
١٣٠٥ هـ

ولمعت المدرسة الحميدية وذاعت شهرتها في البلاد فقصدها طالبوا العلم والثقافة من سائر بلدان الشيعة فضمت منهم عدداً وافراً ناف عن ثلاثمائة تلميذ . وبلغت عناية السيد الرئيس بالمدرسة وطلابها حداً بعيداً لم يكن له مثيل في المدارس العلمية التي قامت في جبل عامل . فكان لا تمر سنة ولا ينقضي عام إلا ويجدد فيها بناء ويصلح آخراً . وكان كثير الاهتمام باحوال الطلبة يراقبهم ويتعهدهم بنفسه ليلا ونهاراً في دروسهم ومحاضراتهم ومباحثاتهم وآدابهم وسلوكهم حتى البستهم واطعمتهم ومنامهم ، ولا سيا الطبقة الفقيرة منهم فكان يساعدهم مساعدة مالية ويوليهم كثيراً من عطفه .

وكان يجمع الطلبة بسائر طبقاتهم في باحة المدرسة في عصر كل يوم فيؤلفون حلقة كبيرة يتولى بنفسه ادارة الابحاث وامتحان كل تلميذ صغيراً كان ام كبيراً. وكثيراً ما كان يتخلل تلك المجالس ملح ونوادر ادبية لترويح نفوس الطلبة وتجديد نشاطهم الفكري .

وكان مع شدته وحدة طبعه وتمسكه باصول وتقاليد سرى عليها العلماء ورجال الدين لا يأنف من المناقشة في تبديل الاوضاع القديمة التي لم تعد موافقة لروح العصر الحاضر واساليب الثقافة الجديدة . يقنعه الدليل ويقرُّ مـا يتم عليه الرأي في ادارة المدرسة عقيب كل اجتماع يؤلف من كبار الطلبة والمدرسين تحت رآسته .

السيد الرئيس تجاه الحكام ورجال السياسة

كان السيد رحمه الله جريئاً صريح القول يقف في وجه الظلمة وذوي الاستبداد والمستأثرين بمقدرات الامة . فيحاسبهم على اعمالهم ويقرعهم على هفواتهم تقريعاً شديداً على ملأ من الناس لا يبالي بسخطهم وغضبهم . وطالما شهدناه يهز عصاه بوجه اكبر الزعماء ويهددهم بتطهير الدنيا من شرورهم ان لم يقلعوا عن اذى الناس وسلب اموالهم .

وكان يقف امام الحكام ورجال الدولة وقفة الحزم والرصانة . يجاهر برأيه ، ويعلن سخطه على الاعمال المخالفة للعدل والمساواة التي يرتكبها عمال الحكومة . ويطالب بالانصاف ورفع الجور ومراقبة الموظفين والرفق بالرعية . لا يهاب صغيراً ولا كبيراً ولا تأخذه في الحق لومة لائم .

قرّع مرة زعيماً كبيراً في صور وعدد مساوئه واعتداءه على الاهلين المساكين وقال له في آخر كلامه : « ان لم تكف عن اذى عباد الله وابتزاز اموالهم فان محوك من الوجود موقوف على كلمة أقولها : ما يخالف . »

ولما وقعت فتنة صور التي اثارها سعدي افندي مبعوث مرعش في مجلس المبعوثان الاول وكان مديراً للجفتلك الهمايوني ، املاك السلطان في رأس العين ، يباهي ويعتز بوظيفته وانتمائه لحاشية السلطان ، دساساً سيء السيرة شديد التعصب للترك ، يميل بطبعه للاذى والضرر ومناوأة كل حركة شعبية . والظاهر ان هـذه الخطة كانت وظيفته الاصلية يغري الحكام بالضغط على الاهلين والتضييق عليهم ومعاملتهم بالعسف والشدة . تعاونـه فئة من حثالة القوم وزمر الضلال . ولما تفاقم الجور واشتد الخطب ، قـام الزعيم المفكر المرحوم الحاج علي الزين ، والد الاستاذ صاحب العرفان ، بحركة عنيفة ثائراً على الظلم رافعاً صوته ، حيث كمت الافواه والجمت الالسن ، طالبـاً العدل والمساواة . فالتف حوله الناس وتتابعت رسائله البرقية بلهجة شديدة للباب العالي ، والوالي يومئذ عبد الخالق نصوحي بك المعروف بجشعه وحبه للمال لا يهمه من امر الرعية شيء كأكثر ولاة الترك . وكان سعدي افندي يغري الوالي باعتقال الزين للقضاء على الحركة . وكنا ممن شهد هذه الحوادث وتتبع تطوراتها وقد وقف بعض المخلصين على نص البرقيات التي رفعهـا الوالي للصدر الاعظم مستأذناً باعتقال الحاج علي الزين ونفيه فأطلعنا على نسخة منها . وكان السيد اكرم الله مثواه ، يرقب الامور بعين ساهرة . فخف الى صور وجمع الوجهـاء والاعيان والف بينهم ، ونزع ما في النفوس من غل وخصام ، وحضهم على الثبات والروية ، وتولى بنفسه ادارة دقة العمل وتحكيم خطة الدفاع .

ولما وفد سعدى افندي للسلام عليه (وكان هذا شيخاً معمماً ينتسب الى العلم) قال له السيد في خلال الحديث بعد جدال شديد : « اشهد انك بعيد عن الاسلام وتعاليم الشريعة المطهرة بعد الارض عن السماء » . واسمعه كلاماً مراً وهدده تهديداً صريحاً . فانصرف بعدها الظالم خزيـــاً وهدأت الامور وساد الحب والوفاق .

وكانت الحكومة التركية سنت قانوناً اعفت فيــه طلبة العلوم الدينية من الخدمة العسكرية. وكانت تحشرهم كل عام في مراكز الفرق العسكرية للفحص والامتحان . واجتمع طلبة الاتراك في احـــدى السنين في عاصمة السلطنة استانبول فأقلقوا السلطان باجتماعاتهم وضوضائهم. وكان عبد الحميد الثاني يجزع من كل اجتماع ويخشى كثيراً جرأة هؤلاء الطلبة . فأمر بالغـاء الاجتماع ومنع الفحص السنوي في المراكز العسكرية . وان يكتفى بالمراقبـة السطحية على التدريس في المدرسة وكانوا يسمونها مدرسة نشين . وقد اضرت هذه الخطة ، التي لم يكن لها من سبب الا تخاوف السلطان ، بالعلم وطلابه في سائر انحـاء السلطنة وفترت الهمم وكثر الطلبة المزيفون واهملوا الدرس والتدريس واصبح معظم المندمجين في هذا السلك لا غرض لهم الا التخلص من الخدمة العسكرية الشاقة .

وناطت الحكومة امر مراقبة التدريس برجال الافتـاء ، ومراقبة الدوام (ملازمة الدرس) بضباط العساكر من فرقة الرديف. فكانت لهم مرعى خصباً، وميداناً فسيحاً للرشوة وسلب المال ، ووسيلة للاذى والانتقام . وقد ناهض هؤلاء الضباط مدارس جبل عامل واخصها مدرسة النبطية مناهضة شديدة تعصباً وافتراءً . وكان السيد الرئيس يتلقى اعتراضاتهم بصدر رحب واناة طويلة ويتغلب على اباطيلهم بحكمة وحزم . وقد ابرم احد هؤلاء الضباط السيد الرئيس بطيشه وغطرسته ، وابى الا تمادياً في البغي والضلال وعيل صبر السيد فقال له : « أيهـا الضابط ، ألست مسلماً ؟ نحن رجال دين وطلاب علم ، نتكل في امورنا على الله وحده . فاذا ابيتم الا احراجنـا ترون

ما لا يسركم ، وتتحملون العاقبة وحدكم . واعلموا ان امام اليمن [1] ليس بأقدر مني على نصرة الحق .

فبهت الضابط وانصرف مخذولاً .

موقف السيد الرئيس في حادثة الخيام

ضعفت صولة الشيعيين في جبل عامل بعد ان خسروا استقلالهم الذاتي وانفرط عقد الحكومة الوطنية ورسخت قدم الدولة وسارت في سبيل الشدة والبطش واضعاف الروح القومية كما ذكرنا غيرة مرة .

غير ان النزوع لخلع هذا النير الثقيل ، والنهوض عند كل بادرة الذود عن كرامة الطائفة واسترجاع عزها ، خلال كانت كامنة في نفوس ابنـــاء جبل عامل لا سيما اذا آنسوا الاخلاص في العمل وصدق النية في الزعماء وقـــادة الرأي .

وكانت حادثة الخيام وما تبعها من ذيول ، سنلخصها في السطور الآتية ، برهاناً ناصعاً على ان الحماس القومي والنجدة والبسالة لم تنطفئ جذوتها ولم تفقد روعتها من ابناء الشيعة . امـا موقف العلامة الرئيس السيد حسن يوسف في حادثة الخيام، لما ذر قرن الخلاف بين الشيعة والدروز وكادت تلتحم الطائفتان بحروب طاحنة، فانه يدل على كثير من الجرأة والحزم والغيرة الصادقة والوطنية الصحيحة. وصل الخبر الى النبطية في خريف سنة ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م ان الطائفة الدرزية في حاصبيا ووادي التيم جمعت جموعها ورفعت بيارقها وعزمت على مهاجمة قرية الخيام لحرق بيوتها والفتك بأهلهـا ، وهي قرية كبيرة تقع في آخر الحدود الشرقية من جبل عامل ، وفيها آل عبد الله الذين ينتسبون الى

---

(١) كانت الثورة في ذلك العهد قد عمت بلاد اليمن وقد اضرم نارهـا الامام حميد الدين ثم ولده المتوكل على الله الامام يحيى وقد دامت اربعين عاماً واحرز في نهايتهـا النصر والظفر وطرد الاتراك وفاز باستقلال بلاده بعد ان كبدهم خسائر فادحة وهلك كثير من جنودهم .

الى التنوخيين ، وقد لعبت هذه الاسرة دوراً هاماً في تاريخ جبل عامل في عهده الحديث ، وكان لها مواقف مشرّفة . فوجم السيد وايقن ان مساعيه لجمع الكلمة بين الطوائف وتنامي الاحن القديمة ستذهب ضياعاً. وان الاحجام سيلقي البلاد في اتون من نار . فرأى ان لا مناص له من العمل والاسراع لدفع الغوائل . فعقد في منزله مجلساً ضمّ عليّة القوم واصحاب الرأى والتدبير . فأقروا اصدار منشور عام لابنـــاء الشيعة في جبل عامل يدعوهم فيه للاجتماع في الخيام والدفاع عنها بقوة السلاح، وان لا يتعدوا الحدود ولا يبادئوا احداً بشر . وارسل منادياً ينادي في الأسواق « هلموا لنصرة اخوانكم ، هلموا للدفاع عن كرامة طائفتكم ».

وعهد الى كاتب هذه السطور والاستاذين رضا وظاهر بوضع نص المنشور في نسخ عديدة ارسلت مع السعاة لزعماء البلاد ووجهائها . وقد وقعها السيد كلها بيده وختمها بخاتمه غير مبالٍ بمـــا يترتب عليها من مؤاخذة السلطة . وكان لهذه المناشير تأثيرها العظيم ، فسار الناس الى الخيـــام افواجاً سراعاً دراكاً .

ولم يمض اثنتا عشرة ساعة حتى بلغ عددهم خمسة عشر الفاً الى عشرين الف مسلح ، وكنا في جملة من سار الى الخيام وشهد حوادثها عن كثب وممن عهد اليه بانشاء الرسائل والجواب على الكتب التي كانت ترد من زعماء العشائر الى الزعيمين المغفور لهما الحاج محمد والحاج ابراهيم آل عبد الله .

وكان الامير سعيد الشهابي كبير الأمراء الشهابيين في حاصبيا ووادي التيم قد اوفد اميرين من ابناء عمه وهما الامير علي والامير مسعود في رسالة لآل عبد الله يعرض توسطه لحسم الخلاف وعقد راية الصلح والوئام . وتوالت الرسائل والمخابرات بين آل عبد الله والشيخ حمد قيس شيخ الطائفة الدرزية في حاصبيا وجوارها . وكان يتولى السفارة بينهما شيخ درزي يدعى ابا علي سباغة. وكانت رسائل الشيخ حمد قيس تنطوي على رغبة صادقة لانهاء المشاكل وحقن الدماء ، وتدل على حنكة وعقل راجح عرف بهما ذاك الشيخ الجليل .

كما وأن رسائل آل عبد الله كانت تدل على مهارة وحذق يشوبهـا شيء من القوة .

ومما لم ازل اذكره ان خمسية شاب مسلح من اهالي الخيام وعيثرون اشتد بهم الحماس واندفعوا للناحية الشرقية يريدون الهجوم على قرية المارية وبعض القرى الدرزية فردهم العقلاء وهدأوا ثائرتهم .

اسباب الحادثة :

وأما أسباب الحادثة فهي ان رجلين من اهل الخيام ذهبا الى جهة القنيطرة لبيع بطيخ ولما رجعا اعترضهما ثلاثة رجال مسلحين من دروز عين قنية قرب بانياس وارادوا سلبهما فحدث بين الفريقين عراك اسفر عن قتل درزي وجرح خيامي . واتصل خبر الحادث بقارب الجريح الخيامي فجاء من حمله الى بلده وفي طريقهم اعترضهم درزي آخر فقتلوه . واستعظم الدروز ان يقتل منهم اثنان في جريح واحد . فحشدوا رجالهم في قرية المارية شرقي الخيام ونشروا البيارق وشرعوا بالاناشيد الحماسية فاحتشد اهل الخيام ايضاً في ساحات بلدهم يهزجون وينشدون . وخشي آل عبد الله ان يتفاقم الأمر بطيش الشباب فكتبوا رسالة للسيد الرئيس يبسطون له المسألة ويسألونه النجدة واتخاذ التدابير اللازمة لانقاذ بلدهم من الدمار .

ولما اصدر السيد منشوره الآنف الذكر هب الناس الى السلاح وساروا الى الخيام زرافات زرافــات . وكان اول من اسرع للنجدة من زعماء العشائر المرحوم تصيف باشا الاسعد النجل الثالث للمغفور له علي بــك الاسعد الزعيم الاشهر . ورأيناه يومئذ وقد قدم النبطية في طريقه الى الخيام على حصان اشهب في خيل كثيرة ورجال مسلحين . فلبث في حضرة السيد بضع دقائق ريثما شرب القهوة وتابع سيره الى الخيــام . وقد بلغ الحماس في الجبل حداً قصياً ، حتى ان الزعيم المفكر المرحوم الحاج علي الزين قـال : « خرجت من شحور ساعة وصلني المنشور في خمسين رجلا ولم انتظر حتى يجتمع الناس ولما

وصلت الى الخيام كان معي الف رجل بين فارس وراجل شاكي السلاح حيث كنا لا نمر بقرية الا وينضم الينا اهلها » .

موقف الحكومة في حادثة الخيام

لم تمد الحكومة الرئيسية يداً فعالة في حادثة الخيام فوقفت في اول الامر وقفة المتردد واكتفت بارسال شرذمة من فرسان الدرك بقيادة ضابط قضاء مرجعيون محمد آغـا قردشولي الكردي فرابطت في القرية . وعللوا لتردد الحكومة اسباباً منها :

ان سياستها كانت تدور دائماً على تفريق كلمة الطوائف واغراء احداهمـا بالاخرى . وان المسألة الارمنية كان قد تفاقم خطبها وهجم جماعة من فدائيي الارمن على دار البنك العثماني في الاستانة وبأيديهم قنابل الديناميت فاحتلوا غرفها وحاولوا نسف الدار بمن فيهـا . ولم يخرجوا الا بتوسط السفراء ووعود الباب العالي بحل قضيتهم على وجه يرضيهم . ولما استفحل الخلاف بين الشيعة والدروز خافت الحكومة ان تكون هـذه الفتنة حلقة من سلسلة خطة مدبرة تحركهـا يد اجنبية تؤدي الى ثورة عامة في سوريا . فأمر الباب العالي والي سوريا عثمان نوري باشا وعبد الخالق نصوحي بك والي بيروت ان يتخذا الحكمة والروية لحسم الخلاف بسرعة . وكان الواليان عثمان باشا ونصوحي بك قد استحكم بينهما الخلاف لاسباب نجهلها . فأخذ كل منهما يشي بزميله الى الباب العالي ويعزي سبب الخلاف لسوء ادارة الآخر . وشاءت الصدف ان اقف على برقية كتبت بالارقام (الشيفرة) ارسلها والي بيروت الى قائمقام صيدا احمد شكري بك ، وكان هذا قدم النبطية فأقام فيهـا لمراقبة الحوادث عن كثب وابلاغها في كل يوم لمقـام الولاية في بيروت بالاشارات البرقيـة .

اما ترجمة البرقية فكان كما يلي :

« خذوا برقية للباب العالي من العلماء والاعيان بالشكوى من سوء اعمال

والي سوريا وتبرير موقفنا » .

وبينما كان زعماء الشيعيين واعيانهم يعقدون الاجتماعات السرية[1] في الخيام للبحث في هذه الحادثة وتطوراتها اذ ورد الخبر ان الحكومة السورية ارسلت القومندان خسرو باشا على رأس اربعمائة فارس رابطوا في حاصبيا. ثم وصلت في اليوم نفسه الى الخيام فرقة من فرسان الدرك ثم فرقة من العسكر الشاهاني (سواري) دراغون من آلاي بيروت . ومن القواعد العسكرية ان لا يخرج عسكر الدراغون من ثكناته الا بعد صدور الارادة السنية من القائد الاعظم جلالة السلطان . وكان على رأس هذه الفرق البينباشي مصطفى بك الكردي الدمشقي .

وصل القائد وعقد مجلساً في الليل مؤلفاً من الزعماء والاعيان في منزل الحاج ابرهيم عبدالله وبدأ كلامه قائلا : « ان دولة والي بيروت امرني أن أبلغ سلامه لاعيان الشيعة ووجهائها ، وان ارجوكم باسمه وانا رجل منكم ولكم من أبناء عشائر الاكراد في صالحية الشام ان تساعدوني وانتم المعروفون بصدق التابعية للسلطنة العثمانية على حسم هذا الخلاف . وان الدولة في موقف حرج وقد تألبت عليها الدول لعرقلة اعمالها بحجة حماية الأرمن فلا تزيدوا مشاكلها تعقيداً . »

وتكلم العلامة المفكر الشيخ علي الحر مجيباً باسم الطائفة وأكد اخلاص الشيعيين للعرش العثماني . وأن هذا الاجتماع لم يحصل إلا بقصد الدفاع ومنع اتساع الفتنة وحقن الدماء . وطلب القائد :

أولاً : فض الأجتماع .

---

(١) كان من جملة التدابير التي اتخذت في تلك الاجتماعات عقد اتفاق مع الامير محمد الفاعور امير عرب الفضل المخيمين في اراضي الجولان ويكمز بك رئيس عشائر الجركس القاطنة في قضاء القنيطرة لامداد الشيعيين بخيلهم ورجالهم ، واستنجاد ابناء الشيعة في بعلبك ، وعشائر الحمادية في الهرمل ونواحيها لصد الدروز فيما اذا نشبت الفتنة . على ان هذه المخابرات كانت تجري بمزيد التكتم . ولم تعد المداولة فيها إلا بضعة اشخاص .

ثانياً : تشكيل لجنة من زعماء الشيعة والدروز للنظر في أسباب الخلاف وحله على طريقة العشائر اي ان لا تنظر فيه المحاكم القانونية .

ثالثاً : الموافقة على اجتماع زعمـــاء الطائفتين في مكان معين لعقد راية الصلح والوفاق .

فاستمهلوه الى صبيحة اليوم الثاني لاعطائه الجواب الأخير . وكان القصد رفع النتائج الى زعيم البلاد الاكبر المغفور له خليل بك الاسعد لأخذ رأيه . وكان الزعماء يرفعون اليه خلاصة الحوادث في مساء كل يوم .

ولما وصلته الرسالة قام من دار الطيبة ليلا الى سهل كفركلا الواقع بين الخيام والطيبة بصحبة انجاله وبعض خواصه . ووافاه الزعماء وعقد الاجتماع في منتصف الليل تحت اشجار الزيتون وتلى امامه كاتب هذه السطور جميع الرسائل والمخابرات التي جرت بين الأمراء الشهابيين ومشايخ الدروز وآل عبدالله ، وملخص مطاليب القائد مصطفى بك. فقال: « انني جد مسرور من هذه النهضة التي قامت بها الطائفة فظهرت بمظهر التضامن والاتحاد ، فرفعت اسمها عالياً . واروم اتخاذ الحكمة ومنع الاعتداء ، وقمع النزق والطيش ، والوقوف على قدم الدفاع . ولا بأس بالصلح الذي يحفظ كرامة الطائفة ويمنع اهراق الدماء . ومـا عرض الصلح على قوم وأبوا الا وخذلهم الله . »

ثم ذكر : ان والي سوريا كتب الى الباب العـالي ينسب اليه اثارة هذه الفتنة بممالأة والي بيروت . وان ولده كامل بك يتحفز لخوض نيران القتال ومعه الف رمّاح . وانفضّ الاجتماع عند بزوغ الفجر وعاد البك بحاشيته الى الطيبة ورجع الزعماء الى الخيام .

وفي صباح اليوم التالي عقد اجتماع آخر حضره القائد مصطفى بك فابلغه الزعماء قرارهم بقبول الطلب على ان يرأس الاجتماع لعقد رايـــة الصلح زعيم شيعي بأمر مندوب ولاية بيروت ، فأرسل القـــائد برقية الى مقام الولاية بنتيجة المخابرات وطلب الزعماء فأقرته بالحال . وأرسلت برقية الى المغفور له

خليل بك الاسعد تدعوه لان يرأس الاجتماع وعينت المكان رأس نبع الحاصباني قرب سوق الخان. فاعتذر خليل بك عن الحضور واناب عنه نعيم بك الفضل. وبعد الظهر استعرض القائد الجموع المحتشدة في سهل فسيح شرقي الخيام وكانت عدتها نحواً من عشرين الفاً . وسار بين صفوفهم وسر من انتظامهم ، واثنى عليهم . وكانت تحييه الموسيقى الوطنيـة وتحنى له الاعلام وبتصاعد الهتاف « بادشاهم جوق يشا » ليعش سلطاننا كثيراً .

موقف الطوائف المسيحية في هذه الحادثة

ووقفت الطوائف المسيحية في مرجعيون ووادي التيم وقفة مشرفة في حادثة الخيام فحالفوا الشيعيين وتضامنوا معهم وانضم كثيرون من شبان النصارى الى الجموع المحتشدة في الخيام . وكانت المصلحة تقضي بالسير على هـــذه الخطة حيث كانت العلائق متوترة بين الطوائف المسيحية والدروز بعد مقتل الشيخ علي الحجار الذي اثار الحفائظ وهيج النفوس .

والشيخ علي الحجار هو زعيم درزي ذو صولة ووجـاهة ، وشيخ قرية المطلة التي تبعد ثلاثة اميال جنوباً عن جديدة مرجعيون مركز القضاء . وكان يسكنها الدروز وقد اصبحت اليوم بعد ان جـلا الدروز عنها قبل الحرب العظمى من املاك اليهود ، والحقت بعد الحرب بفلسطين . وحدث ان ولاية بيروت ارسلت رفعت بك ابن عبد الرحمن ناجم بك النـــائب العام لمحكمة استئناف ولاية بيروت وكيلاً لقائم مقام مرجعيون ، وكان شاباً غراً يمت بنسبه الى عشيرة بابان القاطنة في السليمانية من اعمـال العراق ، وهو صاحب جريدة سبرست التي كانت تصدر في الاستانة بعد نشر الدستور التركي الثاني وتكتب ضد الاتحاديين ، مما ادى الى اغتيال احد محرريهـا احمد حميم بك وكادوا يفتكون برفعت بك لولا انه نجا باعجوبة .

جاء رفعت بك الى مرجعيون والوالي يومئذ خـالد بك وهو من عشيرة بابان ايضاً فاغتر رفعت بك بانتمائه لعشيرة الوالي وامعن بالرشوة وابتزاز

الاموال بأي وسيلة كانت. وحاول ان يبتز مالا من الشيخ علي الحجار فامتنع هذا واغلظ له القول . فاحتدم رفعت بك غيظاً ورفسه برجله ، وكان محتذياً جزمة ، رفسة قوية في صدره ، وكان شيخاً طاعناً في السن ، فمات لساعته.

وارتاع حينئذٍ رفعت بك فاستدعى بعض انصاره فربطوا القتيل بالحبال ونقلوه في جوف الليل الى حقل قريب مزروع ذرة . وفي اليوم التالي عثر عليه احد الرعاة فانتشر الخبر وهاج الدروز واتهموا بقتله بعض اعيان المسيحيين. غير ان التحقيق الدقيق الذي قام به الزعيم المعروف رضا بك الصلح ،حيث انتدبته ولاية بيروت لتحقيق حادثة القتل وتسكين الهيجان وكشف غوامض المسألة: فرفع بذلك تقريراً يبرر ساحة المسيحيين ويلقي تبعة القتل على عاتق رفعت بك . ولكن الأهواء السياسية طمست ذلك التقرير وطوت صحيفته ، وذهب دم الشيخ هدراً . فازداد الدروز هياجاً ، واغتيل رجل مسيحي يدعى عساف الصغير ذبحـاً على جسر نهر الخردلة الواقع بين النبطية ومرجعيون .

اجتمع المؤتمرون على رأس نبع الحاصباني وكان على رأس وفد الشيعة الحاج محمد عبد الله وعلى رأس وفد الدروز الشيخ حمد قيس . ولما بُدِىء بكتابة وثيقة الصلح نهض الحاج محمد عبد الله وطلب باسم الطائفة ان يقرن اسم المسيحيين مع الشيعيين في متن الوثيقة ؛ فاعترضه شيخ درزي يدعى ابا مزيد وقال : لقد اجتمعنا لحسم الخلاف الواقع بين الشيعة والدروز ولا شأن للنصارى معنا . » فأجابه الحاج محمد : «نحن والمسيحيون حلف واحد وهم اخواننا في السراء والضراء ولا يكون إلا ما ذكر . » فقال الشيخ ابو مزيد : « لا يهمنا الأمر ولو اتفقتم مع نصارى العالم . » فاحتدم الحاج محمد غيظاً واستل سيفه وهزه في وجه ابي مزيد ، وقال : « اقسم لولا حرمة المجلس لبترت رأسك فالقيته في الجولان (كذا) ». ولكن الشيخ حمد قيس

انقذ الموقف ولام أبا مزيد ، وصرفه . وكتبت وثيقة الصلح كما طلب الحاج محمد عبد الله ووقعها الفريقان وتصافحا وانتهت الحادثة بسلام .

* * *

بعد الصلح : السلاح يباع علناً في اسواق جبل عامل ـ حشد العساكر الشاهانية في النبطية ومرجعيون .

بات الزعماء في جبل عامل على حذر وكانوا يرقبون الحوادث بعين يقظى وعقدوا مؤتمراً سرياً في النبطية أقروا فيه تموين البلاد بالسلاح والذخائر والتمرين على الرمايـــة ، والوقوف على قدم الاستعداد . فامتلأت الاسواق بالسلاح والمعدات الحربية ، وكانت تباع علناً . واقبل الناس على شرائها حتى لم يبق رجل قادر على حمل السلاح الا واشترى قطعة او قطعتين .

وخشيت الحكومة سوء العاقبة وعادت الى وساوسها وظنت ان يداً أجنبية تحرك هـذه الحوادث من وراء الستار . فأرسلت خمسة طوابير من العساكر بقيادة الاميرالاي حسني بك وضعتها في حاصبيا ومرجعيون ووضعت طابوراً من الرديف في النبطية بقيادة البينباشي حسين بك قائد رديف جبلة ، ووزعت وزارة الداخلية مناشير عديدة في انحاء البلاد تدعو الناس الى السكينة واجتناب الفتنة ، وتنذر المخالفين بالعقاب الشديد . واقام الجند بضعة اشهر حتى استتب الامن فأعيد الى مراكزه .

انتهت هـــذه الحوادث بفوز الشيعة . واحسن زعماؤهم التدبير فحفظوا كرامة الطائفة ومنعوا اهراق الدماء . وقدرت لهم الحكومـة موقفهم الحميد فحبتهم بالرتب ، وزادت راتب المغفور له الشيخ علي الحر وكان يتناوله من الخزينة المالية . وذاعت هذه الحادثة في انحاء البلاد العربية ، وتحدث الناس بحماس الشيعيين ونجدتهم . وثارت على اثرهـــا حرب قلمية بين كتاب الشيعة والدروز كان ميدانها صفحات المقطم والاهرام ولسان العرب والمحروسة

وغيرها من امهـات الصحف المصرية . وكان يتولى الدفاع عن خطة الشيعة وينشيء الرسائل والردود في الجرائد والنشرات الاستاذان الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وكاتب هذه السطور .

اثبتت حادثة الخيام ، وقد مضى عليها ما يقرب من نصف قرن ، ان جبال بني عامله كانت ولمتزل موطن النجدة والفتوة ، ومنبت البسالةوالبطولة وان الشيعيين ما برحوا اباة الضيم حماة الديار ؛ تجول في عروقهم دماء الآباء والاجداد ؛ وان الشعب العاملي سلس القياد ، عريق بالطاعة للزعماء والقادة اذا آنس منهم النصح والاخلاص وثبات المبدأ وشرف الغاية .

فهلا نهض اليوم زعماء هذه الطائفة ومفكروها واولوا الرأي فيها وعندهم هذا التراث الثمين فاتحدوا يداً واحدة وتركوا التهالـك على المراكز الزائفة فاستعادوا حقها المضاع ومجدها القديم وعزها السالف ؟!

اثر المدرسة الحميدية في جبل عامل

قضى مؤسس المدرسة الحميدية العلامة السيد حسن يوسف الحسيني نحبه في سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م كما سبقت الاشارة فأغلقت المدرسة ابوابها وانصرف طلابها . وكانت آخر مدرسة دينية على النهج القديم في جبل عامل . وهُجرت المدرسة فأسرع اليها الخراب وتساقطت سقوفها وجدرانها واصبحت اثراً بعد عين ، بعد ان كانت دار علم وفضل وروضة ادب وثقافة ست عشرة سنة . وبقيت خراباً يباباً ما يقرب من عشرين عاماً حتى نهض الزعيم الاريحي يوسف بك الزين فجدد بنيانها بمساعدة اخيه الفاضل الحاج حسين الزين في سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣ م وحوّل الغرف الجنوبية الى اقبية متينة البناء، واصلح الغرف الشرقية وجلب اليها الماء في حوض كبير فأنفق على هذا المشروع نحو ألف ليرة ذهبية فيما نقل الينا . واستلمت ادارتها جمعية المقاصد الخيرية فأتمت ترميم الغرف الشمالية ، وانشأت في ساحتهـا حديقة صغيرة واتخذت فيها مدرسة لتعليم الناشئة على طراز المدارس النظامية وهي تضم اليوم مائة وسبعين تلميذاً .

امـــا الفوائد العلمية والثقافية ، والمنزلة الادبية المعنويـــة التي احرزها ابناء الشيعة في جبل عامل وغيره من المدرسة الحميدية فهي جزيلة وفيرة. فقد نبغ فيها الشاعر والأديب ، والمؤلف والخطيب . وارتفع مستوى البلاد الادبي ، وارتفعت منزلتها الاجتماعية ، واخرجت عدداً ليس بقليل من العلماء الافاضل والشعراء الافذاذ والأدباء والكتبة المجيدين . فمنهم من انتخب للانتظـام في سلك المجمع العلمي العربي في دمشق الفيحاء فكان من اعضائه اللامعين ، ومنهم المؤلفون في متن اللغة والمؤرخون ومحرروا الصحف والمجلات ومن تولى القضاء ومناصب الافتاء .

ومن هؤلاء العلامتان الشيخ احمد رضا والشيخ سليمن ظاهر والاول اختير لعضوية المجمع العلمي العربي في سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م وله في مجلته ابحاث جليلة وهو مؤلف معجم متن اللغة الذي كلّف في تأليفه بطلب من هيئة المجمع في دمشق وقد قارب ان يتم [١] ، وله رسالة الخط والدروس الفقهية وهداية المتعلمين لطلبة المدارس وله كتاب في فروق اللغة اسماه الوافي بالكفاية والعمدة وهو كتاب نفيس مفيد جيد الترتيب والضبط ورسالة مخطوطة في ما بين اهل السنة والشيعة من الاختلاف في الاصول والفروع منهـا نسخة في مكتبة الاستاذ محمد كرد علي وهي احد مصادر كتابه خطط الشام . وعشرات من المقالات نشرت في العرفان والمقتطف والقبس والمقتبس وغيرها من الصحف والمجلات. والثاني اختير لعضوية المجمع في سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م وله في مجلة العرفان مقالات رائعة وهو مؤلف كتاب الذخيرة في سيرة الائمة الاطهار اجاد فيه كل الاجادة نظماً ونثراً (مطبوع) ولا غرو فالشيخ من فحول شعراء العروبة وله عدة رسائل نشر بعضها في العرفان منها: رسالة في قلعة الشقيف ، ورسالة في معجم قرى جبل عامل ، ورسالة في سيرة الامام

---

(١) لقد اتم العلامة رضا معجمه متن اللغة فانتهى من تأليفه سنة ١٩٤٨ وقام اولاده بطبعه بعد وفاته فانتهوا من ذلك سنة ١٩٦٠ . وهو يزين آلاف المكاتب العربية . (الدار)

الحسين بن علي عليهما السلام ، ورسائل تاريخية لم تطبع [1] . وعدة مقالات وابحاث قيمة نشرت في المجلات والجرائد .

وللحقير كاتب هذه السطور كتاب الشذرات في الفلسفة والطبيعيات ضم اشهر الآراء العلمية والابحاث الكونية مع بعض الحواشي والتعليقات ، وتاريخ جبل عامل الذي نشرت بعض فصوله مجلة العرفان ، والكناش في الادب والقريض في خمسة اجزاء ، والمذكرات في التاريخ والاجتماع والادب في ستة اجزاء ، ومختارات من الشعر القديم والحديث في خمسة اجزاء .

ومنهم العلامة الشيخ احمد عارف الزين مؤسس جريدة جبل عامل المحتجبة ومنشىء مجلة العرفان التي خدمت الثقافة العربية وابناء الشيعة الامامية اجل خدمة . وكانت احدى مقومات النهضة العلمية في جبل عامل . وميداناً لمباراة كتّاب العربية وبخاصة ادباء الشيعة منهم . وله من التآليف : تاريخ صيدا ، ومختصر تاريخ الشيعة ، ورسالة عنوانها حقائق ودقائق . وقد نشر عدة رسائل وعلق عليها الحواشي منها كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وديوان السيد حيدر الحلّي وهو احد جامعي ذلك السفر الادبي النفيس المعروف بالعراقيات والعامليات ، عدا عشرات المقالات نشرتها مجلة العرفان الزاهرة التي اخرجت الى اليوم ثمانية وعشرين مجلداً هي دائرة علم وادب ومعلمة تاريخ واجتماع وفلسفة .

ومنهم الكاتب الاجتماعي والشاعر الفذ الاستاذ محمد علي حوماني منشىء مجلة العروبة وصاحب كتاب الامل وكتاب حواء وناظم ديوان السائس والمسوس وعشرات الابحاث القيمة الرائعة .

ومنهم العالم الفاضل الاديب الكاتب الشيخ حسين مروه نجل العالم الورع المرحوم الشيخ علي مروه واستاذ اللغة العربية في احدى مدارس العراق

---

(١) وله كتاب تاريخ الشيعة السياسي الثقافي ستباشر دار معجم متن اللغة بطبعه قريباً ان شاء الله.
(الدار)

الثانوية وهو والحوماني من خريجي مدرسة النبطيه في عهدها الثاني واليوم هو من طلاب جامعة النجف الاشرف .

ومن تلامذتها الذين تولوا القضاء المرحوم الشيخ اسدالله صفا قاضي الشرع الجعفري في صيدا المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، والعلامـة السيد علي فحص الذي خلف الشيخ اسدالله صفا في القضاء ، والعلامة الشيخ رضا الزين قاضي الشرع الجعفري في النبطية ، والعلامة السيد عـلي زين عضو محكمة التمييز الجعفرية في بيروت ، والعـالم المرحوم الشيخ توفيق الساروط مفتي بعلبك السابق .

واشهر تلامذتهـا الذين اتموا علومهم في جامعة النجف الأشرف عدا من تقدم ذكره هم العلماء الأفاضل : الشيخ رشيد قعون (زبدين) والشيخ محمد حسين شعيثاني (انصار) والشيخ حسين نعمه والشيخ محمد علي نعمه (حبوش) والشيخ علي حلاوه (القاقعيه) والشيخ محمد علي المقدادي(فرون).

والذين لم يهاجروا الى النجف عدا من سبق ذكره: الشيخ احمد عبدالمطلب مروه (الزرارية) المتوفى خلال الحرب الاولى ، والشيخ ابرهيم حمـام (جبشيت) المتوفى سنة ١٩١٥م، والسيد علي جواد فحص جبشيت المتوفى في خلال الحرب العظمى ، والشيخ محمد مصطفى عاصي (انصار) المتوفى في سني الحرب العظمى ، والشيخ حسن حوماني (حاروف) المتوفى في خلال الحرب العظمى ، والسيد خليل هاشم (انصار) ، والسيد هاشم عباس (دير سريان) ، والشيخ محمود فخري (الزراريه) ، والشيخ عبد الرضا شعيثاني (انصار) ، والشيخ صلاح الدين واخوه الشيخ صفي الدين (النبطية الفوقا) والشيخ حسين صفا (الكفور) ، والشيخ عبدالله حسن صفا (زبدين) والشيخ عبدالله علي صفا (زبدين) والشيخ حسن غندور (النبطية الفوقا) ، والشيخ امين مزهر (زبدين) ، والشيخ نصرالله حمادي (الكوثرية) ، والشيخ امين الحاج اسعد حيدر (زبدين) ، والشيخ محمد قاسم البيطار والشيخ محمود عباس البيطار ، والسيد سليم ابو خدود والشيخ محمد قديح (النبطية).

وفي المهاجر وراء البحار فئة صالحة من أبنـــاء الشيعة اسسوا الجمعيات الخيرية ، وأنشأوا الصحف ، وجاهدوا في سبيل المبادىء الوطنية والعمل في حقل العروبة ، فرفعوا شأن الطائفة ، وشادوا ذكرها الطيب . نذكر منهم: الاديب الصحفي الشيخ عبد اللطيف الخشن (سحمر البقاع) منشىء جريدة العلم العربي التي تصدر في الجمهورية الفضية (الارجنتين) وهو من أكبر دعاة النهضة العربية وانصار الجامعة الاسلامية ، وله مراسلات مع ملوك العرب وامرائها في شأن القضية العربية وأبحاث تدل على عقل راجح ومعلومات واسعة وغيرة صحيحة . ومن المجاهدين في سبيل النهضة العربية من ابنـــاء الشيعة في تلك الاصقاع الحاج خليل بزه (بنت جبيل) ، والشيخ يوسف كال (دبعال) ، ورشيد محي الدين الزيات (صور) ، والشيخ خليل شومان (جويا) ، وعبد اللطيف فخري (الزرارية) وغيرهم .

* * *

تعليق على حياة جبل عامل العلمية ومقارنة بين عهديه الأول والثاني :

انقضى عصر الامامين الشهيدين الاول والثاني والمحققين الميسي والكركي ومن تلاهم من علماء أعلام ، وفقهاء اجلاء ، بعد ان شيدوا المدارس وبنوا المعاهد ونشروا العلم والثقافة ، واسسوا المكاتب الحافلة ، والفوا الكتب النفيسة ، وجابوا البلدان والامصار ، ووقفوا على الحركة العلمية في العـــالم الاسلامي ، ودرسوا مناهج التعليم والتدريس درساً دقيقاً وعادوا حافلي الوطاب بالعلم والعرفان .

وسرى على خطتهم المثلى ونهجهم السديد تلاميذهم ومريدوهم ومن تخرج على ايديهم من العلماء والمشتغلين . فتولى الشيخ حسين بن عبـد الصمد الجبعي العاملي الهمداني التدريس في احدى مدارس حلب ، ثم ولده العلامـة بهاء الدين العاملي الفيلسوف الذي ذاع ذكره وسمى قدره فتولى مشيخة الاسلام في اصفهان ورئاسة العلماء في الدولة الصفوية . ثم ترك الوظائف ونفض يده من

مظاهر الدنيا فساح في طلب العلم ثلاثين عاماً. وجاب الاقطار الاسلامية شرقاً وغرباً. ودرس على كبار علماء المذاهب. والف كتبه الفريدة الحافلة بالفرائد والفوائد. ثم ابن اخته العلامة الشيخ محمد بن علي من آل خاتون[1] الذي رحل

---

(١) آل خاتون اسرة عريقة من الاسر العاملية في جبل عامل خرج منها كثير من العلماء اصلهم من (إميّة) قرية قرب رشاف هي اليوم خراب وفيها تلقبوا بخاتون. وكانت ملكاً لآل السبيتي فاشتراها منهم اهل دبل بثمن بخس ثم سكنوا عيناثا ثم جويا وهم من آل جمال الدين ابن خاتون وقيل كان لقبهم بيت البووريني. ونقل العالم المؤرخ الشيخ علي سبيتي الكفراوي في كتابه الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الاسعد انه اطلع على خط احد قدمائهم انهم بيت الزاهد المعروفين ببيت ابو شامة ويقال لهم بيت الشامي تصحيفاً. (وخاتون) لفظ غير عربي معناه السيدة وهو اسم ام لهم نسبوا اليها. وسبب ذلك على ما ذكره الشيخ علي السبيتي المذكور في كتابه المذكور انه كان احد اجدادهم من العلماء في قرية (إمية) وان السلطان الغوري لما طاف البلاد نزل على مرج دبل المعروف بسهل حزور جنوب إمية في فم الوادي المسمى بوادي العيون من بلاد بشارة القبلية فسأل عن صاحب إمية فقيل له شيخ عالم عنده تلاميذ. فطلب حضوره، فامتنع الشيخ عن الحضور واعتذر بأنه درويش منقطع في بيته وكان الملك ذا علم ومعرفة وعنده بعض التساهل فعظم الشيخ في عينه وسار اليه حتى دخل بنفسه في موضع تدريسه فتأدب واظهر الخشوع وطلب منه اكمال الدرس. ثم اعتذر له الشيخ عن عدم الحضور بالحديث :

اذا رأيتم العلماء بباب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك. واذا رأيتم الملوك بباب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء.

فنبل الشيخ عند الملك وزوجه ابنته الملقبة بالخاتون فسمي بنوه من يومئذ ببني الخاتون. وخرج منهم في عيناثا جماعة كثيرة من اكابر العلماء قلما اتفق خروج امثالهم من قطر واحد وبلد واحد في اعصار متتالية. واليهم كانت الرحلة وقصدهم ناصر البويهي لطلب العلم من العراق. وجاءهم

الى طوس فالهند وتوطن في حيدر اباد الدكن فتلقاه ملكها السلطان محمد قطب شاه السابع بالترحاب وعرف فضله واعلى مقامه. وتولى في عهد ولده السلطان عبدالله في سنة ١٠٣٨هـ -١٦٢٨م منصب الصدارة العظمى وامارة المملكة بأمرها وأجاز له الجلوس عند سرير الملك . وتولى السفارة بين السلطان والشاه عباس الصفوي اكثر من مرة . ولم يزل رسمه باقياً في المتحف البريطاني الى اليوم . وله عدة مؤلفات وقبره في حيدر آباد معروف يزار (راجع ما كتبه عنه باسهاب العلامة السيد محسن الامين في كتاب اعيان الشيعة) والمقام يضيق عن استيعاب تراجم العلماء والفضلاء الذين هاجروا من جبل عامل ورحلوا في في طلب العلم الى البلدان القاصية ، وتولوا المناصب الرفيعة ، وكان لهم حظ وافر في ادارة الممالك ، وسياسة الشعوب مما نراه مدوناً في كتب التراجم والمطولات وقد اتينا على ذكر عدد منهم في فصول سابقة .

وقد زاد عدد العلماء في ايامهم فاصبحوا يعدون بالمئات حتى لم تكن تخلو قرية من عالم فاضل او فقيه تقي ورع . وقد مرّ بنا اجتماع سبعين عالماً مجتهداً في تشييع جنازة واحدة في احدى القرى . وان عدد العلماء الذين فروا من ظلم الجزار وغدره زاد عن السبعين . وارتقى فن التأليف في أيامهم الى الذروة العليا. فقد ورد في روضات الجنات وأمل الآمل وغيرها ان مؤلفات الشهيدين الأول والثاني والمحققين الميسي والكركي بلغت المئات، عدا مؤلفات آل الامين في شقرا ، وآل فضل الله في عيناثا ، وآل صدر الدين وشرف الدين ونور الدين ، وآل ابرهيم ، وآل الحر ، وآل شمس الدين ، وآل مروه ، وآل يحيى ، وآل سليمان ، وآل نعمه ، وآل خاتون ، وغيرهم ، ومعظمها مطبوع في الهند وايران والعراق . ولم تزل من امهات كتب التدريس في

ملا عبدالله التتري الى عيناثا مستجيزاً . ثم توطنوا في الاعصار الاخيرة في قرية جويا من جبل عامل (اعيان الشيعة جزء ثامن صحيفة ٣٦٧)

كليات النجف والهند وايران وبلاد الروس . ويرجع اليها تسعون مليوناً من المسلمين الشيعيين في مختلف الامصار الاسلامية .

وتلى هذا العصر عصر آخر نبغ فيه علماء افاضل وفقهاء اجلاء لم يكونوا اقل علماً وادنى منزلة من علماء العهد الاول . فقد قاموا من تلك النكبة المريعة ، نكبة الجزار ، ينفضون غبار الموت . وشرعوا ببناء ما تهدّم من المدارس وتجديد ما درس من بيوت العلم وتنظيم مجالس التدريس . فاعادوا للعلم سيرته الاولى وسروا على خطة من سلف في نشره وتعميم فوائده . وتخرج على ايديهم فريق كبير من اهل العلم والادب والشعراء الفحول واللغويين الافذاذ ممن يعد في الرعيل الأول .

غير ان خطاهم كانت قصيرة في الرحلة الى الآفاق وارتياد مناهل العلم في مراكز التدريس الكبيرة في العالم الاسلامي . فلم نسمع عن احد منهم انه ام دمشق او حلب او مصر او غيرها من بلدان المسلمين لغرض علمي ، او لدرس مناهج التجدد واصلاح التعليم في كليات اخوانهم اهل السنة فأخذ عنهم او حصل على اجازة منهم . كما كانت الحال في عهد اسلافهم ممن اتينا على سيرته من علماء الدور الاول .

ومن درس الدواعي والعوامل التي ادت الى هذا الجمود يجد من اهم اسبابها الخطط السياسية التي سرى عليها الأتراك منذ عهد سليم الاول اذ كان من اقاصي امانيهم اضعاف العرب واذلالهم ومحو حضارتهم ؛ والاستئثار بمقدرات المسلمين وبذر الخلاف بين الطوائف واثارة النزاع والتعصب بين اهل المذهب ؛ وتدمير معاهد العلم ودور الثقافة واهمال التعليم حتى البسيط اهمالاً فاضحاً . فانتشر الجهل ، وعمت الامية ، وتداعت المدارس التي كانت تعد بالمئات في المدن السورية ونقص عددها نقصاً فاحشاً .

وكان من سوء سياسة الاتراك وفساد ادارتهم ، وسوء حظ الأمة العربية ان فريقاً من قصيري النظر ممن ينتسب الى العلم جاراهم على هواهم وسرى

على خطتهم الخرقاء . فاصدروا الفتاوى بتكفير بعض الفرق الاسلامية واستحلال دمائهم وأموالهم . ولا ذنب لهم سوى انتسابهم لمذهب الأئمة من أهل البيت النبوي المطهر . فكانت النتيجة ان بعدت الشقة بين اهـل السنة والشيعة واستحكم الخلاف فضاعت المصلحة العامة ورسخت قـــدم الدخلاء والمتغلبين .

ان في سيرة الأمامين الشهيدين ومن تلاهما من عظماء علماء الشيعة ، ورحلتهم في سبيل العلم والارشاد الى البلاد النائية ، وامتزاجهم بالعلمـاء والمدرسين في دمشق ومصر وأخذهم اجازاتهم ، واستحصال بعضهم على براآت سلطانيـة لتعليم علوم الدين والفقه والفتيـا على المذاهب الخمسة ، لاكبر دليل على عظمة تلك العقول التي انارها الله بنور العلم والتي لم يكن هدفهـا سوى الحرص على الوحدة الاسلامية ومحو التعصب وتطهير النفوس من ادران الجهل .

ولو سلمت تلك النهضة من دسائس الترك التي اخرتها مائة عام الى الوراء وسارت سيرها الطبيعي لنفذت الى المقصود وبلغت الغاية المثلى ، ولما وصلت البلاد العربية الى الحالة المؤسفة التي نراها اليوم . ولكان تغير وجه التاريخ في الاقطار العربية لا سيما في مصر وسوريا والعراق . وقد أدرك في هـذا العهد فريق كبير من مفكري المسلمين وعلمائهم من اهـل السنة والشيعة في الاقطار الثلاثة الآنفة الذكر مبلغ الخطأ الذي ارتكبه اسلافهم بدسائس الترك ، وما جره استسلامهم لهم من الخـــذلان على الاسلام والعرب ، وشعروا بالخطر الذي يهدد الامة بالاستعباد والفناء . فبدأوا يعملون بجد واخلاص للتقريب بين عناصر المسلمين وطوائفهم ، ومحو الخلاف الوهمي الذي جسمته الدعاية السياسية ولم يكن من جوهر الدين في شيء .

مشاهير العلماء في جبل عامل في عهده الاول :

لا يسع المقام استيفاء اسماء العلماء الذين ظهروا في جبل عامل في عهده الاول وتعداد ما لهم من التآليف والآثار العلمية مما هو مدون في الموسوعات.

غير أنا نكتفي بسرد اسماء اشهرهم ذكراً واغزرهم علماً واوفرهم معرفة وفضلا لا سيما الذين كثرت تآليفهم ورحلوا الى الاقطار الاسلامية ونالوا المناصب الرفيعة . فمنهم : ابناء الشهيد الاول الشيخ رضي الدين ابو طالب محمد والشيخ ضياء الدين ابو القاسم علي والمنصور الشيخ حسن ، وامهم الفاضلة ام علي وكان الشهيد يثني عليها ويأمر النساء بالرجوع اليها ، واختهم السيدة ام الحسن المعروفة بست المشايخ وقد مر ذكرها . خمسة من اهل العلم والفضل والورع والتقوى يضمهم بيت واحد انه لدليل ناصع على ما لرافع بنيانه العظيم من فضل واسع وعلم وفير .

ومنهم : الشيخ تقي الدين ابراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن صالح ابن اسماعيل الحارثي الكفعمي مولداً ، اللويزي محتداً ، الجبعي اباً ، الحارثي نسباً ، والتقي لقباً ، الامامي مذهباً هكذا انتسب في آخر كتابه -المصباح - وقد ترجمه صاحب امل الآمل ، والشيخ يوسف البحراني ، في كتابه لؤلؤة البحرين ، والشيخ احمد المقري الاندلسي في كتابه ، نفح الطيب ؛ وكلهم أثنوا على علمه وادبه ؛ وهو تلميذ الشيخ علي يونس العاملي النباطي الذي سبق ذكره ، والشيخ شمس الدين محمد بن زين الدين علي بن شمأن العاملي المشغري . وكانت قراءته على الثاني في سنة ٨٤٨ هـ - ١٤٤٤ م والكفعمي نسبة الى كفعم قرية خربة بالقرب من قرية جبشيت على نحو ثلاثة اميال من النبطية غرباً وقبره معروف فيها ، واللويزة قرية من اعمـــال جزين جنوبي جبع على مقربة من ينبوع نهر الزهراني . وله شعر رائق ومؤلفات ورسائل اشهرها المصباح المعروف بمصباح الكفعمي ورسالة اسماها محاسبة النفس اللوامة .

ومنهم : الشيخ عزالدين حسين بن عبد الصمد بن محمد الحارثي الهمداني الجبعي ، والد العلامة البهائي ، وهو تلميذ الشهيد الثاني . اقام مدة في بعلبك وبها ولد ولده البهائي . وتولى التدريس في احدى مدارس حلب ببراءة سلطانية ، كما تقدم ، ثم سافر الى خراسان واقام مدة في هرات وكان شيخ الاسلام بها . ثم انتقل الى البحرين وفيها توفي في سنة ٩٨٤هـ -١٥٧٦م وعمره ٦٦ سنة ورثاه ولده الشيخ بهاء

الدين العاملي بقصيدة منها :

اقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت ثلاثة كنّ امثالاً واشباها

وله مؤلفات في مختلف العلوم ، وديوان شعر . وقد أجازه شيخه الشهيد الثاني اجازة عامة .

ومنهم : الشيخ محمد بن العودي الجزيني وكان مرافقاً للشهيد الثاني وتلميذه وقرأ معه في دمشق الصحيحين على الشيخ شمس الدين بن طولون ، واجازه بروايتهما وصحبه الى مصر والعراق وقسطنطينية وبعلبك وكتب رسالة خاصة في ترجمة الشهيد ورثاه بقصيدة طويلة .

ومنهم : الشيخ جمال الدين ابو المنصور الحسن بن زين الدين الشهيد . له التصانيف الجليلة الجامعة الى غزارة العلم بلاغة العبارة ، منها معالم الدين وملاذ المجتهدين في علم اصول الفقه ، وهو كتاب يدرّس الى اليوم في مدارس الشيعة . وقد ترجمه المحبي والخفاجي وابن معصوم وغيرهم . وكلهم اثنوا عليه وذكروا علمه وأدبه . وهو من شعراء الدرجة الاولى في عصره توفي في سنة ١٠١١هـ - ١٦٠٢ م في جبع وقبره معروف فيها الى اليوم .

ومنهم : الشيخ محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي . من اكابر علماء عصره المحققين له مصنفات جيدة في فنون العلم ، وشعر ونثر . رحل في طلب العلم الى دمشق واختلط بفضلائها وقرأ عندهم في علوم شتى . ومن جملة شيوخه الشيخ شرف الدين المترجم في خلاصة الاثر المتوفى سنة ١٠٣٨ هـ - ١٦٢٨ م . وكان رفيقه في الدرس الشيخ محمد بن الحرفوشي . وروى عنه ولده الشيخ علي في كتاب الدر المنثور انه رد صلة الامير يونس الحرفوشي صاحب بعلبك وهي صلة لا يستهان بهـا تورعاً ، كما رفض التماس بعض ملوك عصره حضوره اليهم للاستفادة من علمه تجنباً للظهور وابتعاداً عن رجال الدنيا . رحل الى العراق ثم الى مكه فأقام بها مجاوراً خائفاً من حساده الى ان توفي في سنة ١٠٣٠ هـ - ١٦٢٠ م .

ومنهم : ولده الشيخ زين الدين بن محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني العاملي. ذكره غير واحد من رجال المعاجم كالحبي وابن معصوم وصاحب امل الآمل والبحراني واخيه في الدر المنثور . وكلهم اطروا علمه وادبه . رحل الى ايران وقرأ على العلامة البهائي . ثم قصد مكة وتوفي فيها في سنة ١٠٦٤ هـ - ١٦٥٣ م وهو شاعر من الطبقة الاولى في عصره

ومنهم : الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني المار ذكره . ولد في بعلبك سنة ٩٥٣ هـ - ١٥٤٦ م وهو من اقطاب العلم ورجال الفتوى وفلاسفة العصر . ساح في طلب العلم ثلاثين عاماً . وتوفي في اصفهان في سنة ١٠٣١ هـ - ١٦٢١ م ، ودفن في المشهد الرضوي . وهو صاحب كتب : الكشكول ، والخلاة ، والزبدة في الاصول ، والخلاصة في الحساب المترجمة الى اللغات الاوربية . وله مؤلفات كثيرة عد منها صاحب امل الآمل نحو خمسين كتاباً ورسالة بالعربية والفارسية .

ومنهم : الشيخ حسن بن علي بن حسن بن احمد بن محمود العاملي الكونيني المعروف بالحانيني نسبة الى كونين وحانين ، وهما قريتان متجاورتان من قرى جبل عاملي الجنوبية وعلى ميلين او ثلاثة أميال من تبنين . كان ابوه الشيخ علي عالماً من اهل المدينة المنوّرة انتقل الى جبل عامل واتخذه وطناً له . ترجمه الحبي وأثنى عليه ، وذكره صاحب امل الآمل . وله مؤلفات ادبية منها كتاب حقيبة الاخبار وجهينة الاخبار . وله ديوان شعر . توفي سنة ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م .

ومنهم : السيد جمال الدين بن السيد نور الدين علي بن علي بن ابي الحسين الموسوي العاملي الجبعي . ذكره صاحب امل الآمل وقال في حقه : « عالم فاضل محقق مدقق ماهر اديب شاعر ، كان شريكنا في الدروس عند جماعة من مشايخنا. وقرأ في دمشق على العلامة السيد محمد بن حمزة نقيب الاشراف». سافر الى مكة وجاور بها ، ثم الى مشهد الرضا (ع) ، ثم الى حيدر آباد

وهو لآن ساكن فيهـــا مرجع فضلائها واكابرها وله شعر كثير وحواشي وفوائد كثيرة . واخوه السيد علي من الشعراء أقام بمكة وعنه اخذ المحبي ترجمة أخيه وقال انه توفي في مكة مجاوراً في سنة ١٠٩٨ هـ - ١٦٨٦ م .

ومنهم : السيد حبيب الله بن الحسين بن الحسن الحسيني الموسوي العاملي الكركي الملقب بميرزا حبيب . كان عالماً جليلاً عالي القدر عظيم الشأن كثير العلم والعمل . سافر الى اصفهان وتقرب عند الملوك حتى جعلوه صدر العلماء والأمراء . وولده السيد ميرزا علي رضا كان عالماً محققاً مدققاً متكلماً عظيم المقام . تولى مشيخة الاسلام في اصفهان وتوفي سنة ١٠٥١ هـ - ١٦٤١ م .

ومنهم : السيد حسين بن محمد بن علي بن الحسين بن ابي الحسن العاملي الجبعي . كان عالماً جليل القدر والشأن . قرأ على ابيه صاحب المدارك ، وعلى الشيخ بهاء الدين وغيرهما . وسافر الى خراسان وسكن بهـــا . وتولى مشيخة الاسلام بالمشهد المقدس الرضوي والتدريس في الحضرة الشريفة تحت القبة الكبيرة الشرقية .

ومنهم : السيد ميرزا محمد معصوم بن ميرزا مهدي بن ميرزا حبيب الله الموسوي العاملي الكركي . كان فاضلاً عالماً محققاً . وهو حفيد السيد حبيب الله لآنف الذكر . وتولى مشيخة الاسلام في اصفهان . وتوفي في سنة ١٠٩٥ هـ - ١٦٨٣ م .

ومنهم : السيد محمد مهدي بن ميرزا حبيب الله الموسوي العاملي الكركي . كان عالماً فاضلاً جليل القدر عظيم الشأن . وكان عليه اعتماد الدولة في اصفهان .

ومنهم: الشيخ محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين الحر العاملي المشغري ـ والامام المحدث الكبير . وهو صاحب كتاب امل الآمل والوسائل في الحديث وغيره من المؤلفات الكثيرة جلها في علم الحديث، وله شعر متوسط ترجمه ابن معصوم والبحراني والمحبي ترجمة طويلة . وذكره الشيخ رحمة الله

الهندي في كتابه اظهار الحق واستشهد ببعض آرائه . سافر الى ايران واقام في طوس وبها توفي في سنة ١١٠٤ هـ - ١٦٩٢ م .

ومنهم : الشيخ محمد بن مجير العاملي العنقاني نسبة الى عنقانا ، قرية بالقرب من جبع . له مختصر في تاريخ جبل عامل من سنة ١٠٤٣ هـ الى سنة ١١٥٣ هـ .

ومنهم: العلامة الشيخ محمد بن علي الخاتوني ابن اخت الشيخ البهائي. وهو وزير السلطان عبد الله قطب شاه سلطان حيدر آباد الدكن ، وقد مر ذكره .

ومنهم : الشيخ محمد بن احمد المعروف بالحريري الحرفوشي العاملي اللغوي النحوي . اتصل بالسلطان عباس الصفوي شاه ايران وتقلد رآسة العلماء . وقد نسبه معظم من ترجمه الى جبل عامل كما نسبوا العلماء الكركيين والبعلبكيين وهي نسبة ادبية ومذهبية لا جغرافية . لان الكرك وبعلبك لم تكونا من اعمال عاملة وانمــا كانتا متصلتين ببلاد جبل عامل في الادب والمذهب والسياسة . وقد توفي في سنة ١٠٥٩ هـ - ١٦٤٩ م .

ومنهم : الشيــخ علي بن محمد بن الحسن بن زين الدين الشهيد العاملي الاصفهاني.صاحب كتاب الدر المنثور من المأثور وغير المأثور ، وغيره من الكتب الممتعة . اودع في ذلك الكتاب تراجم آبائه مفصلة وترجمة له مطولة ، وله مؤلفات كثيرة . وقد كتب بخط يده سبعين كتاباً . ولد في سنة ١٠١٣ هـ – ١٦٠٤ م وتوفي في سنة ١١٠٣ هـ – ١٦٩١ م .

ومنهم : السيد ابو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي مؤسس مدرسة شقراء ، التي مرّ ذكرها . وهو من كبار العلماء وافضل الفضلاء. توفي في سنة ١١٩٤هـ – ١٧٨٠ م وتخرج على يديه كثيرون من علماء جبل عامل وشعرائه.

ومنهم : العلامة الجليل الشيخ علي يونس النباطي الذي اتينا على ذكره في عداد العلماء الاجلاء الذين نبغوا في النبطية في فصل سابق .

هذا ما وقفنا عليه من سيرة مشاهير علماء جبل عامل في العهد الاول وقد تقدم الكلام عن مشاهيرهم في العهد الثاني .

الحياة الادبية في جبل عامل

النهضة الإدبية في جبل عامل رافقت النهضة العلمية بل هي وليدتها وكانت المدارس التي تخرّج العلماء والفقهاء ، تخرّج ايضاً الادباء والشعراء . وقلما تجد طالباً من المشتغلين في طلب العلم الا وعني بالادب نظماً ونثراً ورواية .

وقبل النهضة العلمية التي تكلمنا عنها واشبعنا البحث في ادوارها نبغ في جبل عامل وتخرج في مدارسه شعراء وادباء لا يشق لهم غبار . واذا رجعنا الى عهده الاول نجد ان اشهرهم على الاطلاق: عدي بن الرقاع العاملي والمقول انه كان يسكن شكارة وهي قرية دارسة بالقرب من قرية شقراء في جنوبي جبل عامل وتعرف بهذا الاسم الى اليوم [1] .

---

(١) هو ابو داوود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من بني عاملة وهم عرب اليمن ينتهي نسبه الى كهلان ثم الى قحطان . نزحوا عن اليمن الى الشام قبل الاسلام . وديار عاملة معروفة ويقول الهمداني انها مجاورة للاردن . وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر ويطل على الاردن .

ومولده على التخمين حوالي العقد الرابع من القرن الاول للهجرة والغالب انه توفي في خلافـة عمر بن عبد العزيز بين سنة ٩٩هـ -١٠١ هـ وكانت له بنت شاعرة اسمها سلمى .

قال ابن النديم في الفهرست : « ان لعدي ديوان شعر لا يعرف مقره . وان الأبيات المتداولة من شعره في كتب اللغة والادب والتاريخ لا تتجاوز ثلاثمائة بيت وهذا مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة . وكان شديد العارضة حاضر الجواب جرت بينه وبـين جرير حوادث اضربنا عنها لضيق المجال . »

وقال بعض مترجميه : انه كان من شعراء الامويين مؤيداً لسياستهم متحمساً لهم . يقول هذا مع ثبوت ضياع ديوان شعره واقتصار كتب الادب على ايراد نحو ثلاثمائة بيت من قصائده . ومقطعاتـــه لا تكفي للحكم على منازعه ومذاهبه وتحليل نفسيته . مما يحمل الباحث البعيد عن الهوى والغرض متردداً في صحة هذه النسبة . وهل كان في مذهبه السيـــامي اموياً عن عقيدة او كان متزلفاً استدراراً للعطايا او اتقاء للضرر ؟ شأن جميع شعراء ذلك العصر كجرير والفرزدق والاخطل وغيرهم، باستثناء الكميت بن زيد الاسدي الذي يمثل في شعره عصر بني مروان ومارافقه من جور وارهـاق وافساد ، تمثيلاً صادقاً لا اثر فيه للغش والخداع ولا يشوهه الحرص المقوت على الصلات والجوائز .

أما كون عدي من فحول شعراء العصر الاموي فلا يختلف فيه اثنان وحسبك شهادة جرير بحقه مع ما بينهما من العداء والمنافسة . قال جرير : «سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي اولها

عرف الديار توهماً فاعتادهـــا　　　من بعد ما شمل البلا ابلادها

فحسدته على ابيات منها حتى انشد في صفة الظبي والغزال :

(تزجي اغنّ كأن ابرة روقه) فرحمته من هذا التشبيه وقلت بأي شيء يشبهه ترى ؟ فلما قال : (قلم اصاب من الدواة مدادها) رحمت نفسي وحالت الرحمة حسداً . »

ومن جيد شعره قوله :

وكأنها بين النساء اعارهـــا　　　عينيه احور من جآذر جاسم
وسنان اقصده النعاس فرنقت　　　في عينه سنة وليس بنائم

وله : فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابة　　　بسعدى شفيت النفس قبل التقدم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا　　　بكاهـــا فقلت الفضل للمتقدم

وله : مما يدل على انه كان جلداً لا يضعضع لريب الدهر :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً　　　اصم من يابس الصوان لانصدعا
اتت اليّ فلم انزع لها سلبي　　　ولا استلنت لها شكوى ولاجزعا

الحر العاملي مؤلف كتاب امل الآمل في جملة شعراء جبل عامل ولقبه بالعاملي . وقد يستغرب الواقف على هذا الكتاب حشر المؤلف اسم ابي تمام في حقل الشعراء العامليين ولم يضع اسمه في حقل علماء الشيعة وفضلائها الذين خصص لهم فصلاً في ذيل الكتاب مع ان المعروف والمتفق عليه ان ابا تمام ولد في جاسم من اعمال حوران . قلت : ولعل الشيخ تثبت من الرواية التي يتناقلها ادباء جبل عامل وهي ان ابا تمام حوراني المولد عاملي النشأة . فارق حوران وحط رحاله في جبل عامل في سنة مجدبة على ما جرت عادة القطرين في سني القحط . وتمذهب بمذهب اهـــله وفيه درس الادب وتخرج بالشعر والقريض .

وقال الشيخ في امل الآمل : كان ابو تمام شيعياً فاضلا وشاعراً اديباً منشئاً ، ذكره العلامة في الخلاصة وله شعر كثير في اهل البيت . وذكر احمد ابن الحسين انه رأى نسخة عتيقة من ديوانه ولعلها كتبت في ايامه أو قريباً منها فيها قصيدة يذكر فيها الأئمة عليهم السلام ، حتى انتهى الى ابي جعفر الثاني الامام التاسع محمد الجواد بن علي عليه السلام . لانه توفي في ايامه في سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م . وقال الجاحظ في كتابه الحيوان : « ان ابا تمام كان من رؤساء الرافضة . » (انتهى كلام العلامة) . ونحوه كلام النجاشي وابن شهراشوب الذي عدّه من شعراء اهل البيت . واشهر قصائده في مدح آل البيت النبوي الرائية التي اولها .

أظبية حيث استأنت الكثب العفر رويدك لا يغتالك اللوم والزجر

وفيها يقول :

فعلتم بابناء النبي ورهطه اقاعيل ادناها الخيانة والغدر
ومن قبله اخلفتم لوصيـــه بداهية دهياء ليس لهـــا قدر

فجئتم بها بكراً عواناً ولم يكن   لها قبلها مثلاً عوان ولا بكر
اخوه اذا عدّ الفخار وصهره   فلا مثله اخ ولا مثله صهر
وشُد بـه ازر النبي محمدٍ   كما شد من موسى بهارونه الازر

ومنها :

ويوم الغدير استوضح الحق اهله   بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر
اقام رسول الله يدعوهم بهـا   ليقربهم عرف وينآهم نكر
يمد بضبعيه ويعلم انه   وليّ ومولاكم فهـل لكم خبر

* * *

لكم ذخركم ان النبي ورهطه   وجيلهم ذخري اذا التمس الذخر
جعلت هواي الفاطميين زلفة   الى خالقي مادمت او دام لي عمر

* * *

افكر في احلامكم اين غرّبت   فيصرعني طوراً واصرعه الفكر
اذا الوحي فيكم لم يضركم فانني   زعيم لكم ان لا يضوركم الشعر

وتلخص قضية سكناه في جبل عامل انه فارق حوران في احدى السنين الجدبة ، واول قرية سكنها هي قرية المالكية الواقعة في الجنوب الشرقي من جبل عامل . وتعرف بمالكية الجبل للتفريق بينها وبين قرية بالقرب من صور تعرف بمالكية الساحل . ويقولون انه ذكر المالكية وبرعشيث وعيناثاوحداثا في شعره، وهيقرى متقاربة في جنوبي جبل عامل فحرفها النساخ الى برقعيد والكاخيه وقبراثا لجهلهم مواقع الاولى او لسبب آخر قال في قصيدته الثانية :

قف بالطلول الدارسات علاثا   اضحت حبال قطينهن رثاثا

* * *

لولا اعتيادك كنت في مندوحة	عن برقعيدا [1] وارض باعيناثا
والكاخية [2] لم تكن لي موطناً	ومقابر اللذات في قبراثا [3]
لم آتها من اي وجه جئتهـــا	إلا حسبت بيوتهـــا اجداثا
بلد الفلاحة لو اتاهـــا جرول	أعني الحطيئة لاغتدى حراثا

ويوردون ادلة على زعمهم ان في المالكية التي تديرها الشاعر لاول مرة بئر تعرف الى اليوم ببئر حبيب ودار خربة تعرف بدار حبيب بين المالكية وعثرون . وقد اكد لي صحة هذه القصة غير واحد من شيوخ الادب في جبل عامل وانها شائعة بين طبقات الادباء يتداولها الخلف عن السلف ولا ينقضها اغفـــال المؤرخين فان كثيراً من حوادث جبل عامل واخباره التاريخية ما زالت طي الغموض ، اغفلهـــا المؤرخون سهواً او عمداً لاسباب حزبية او مذهبية على الغالب .

فان صحت هذه الرواية كانت دليلاً على ان البلد العاملي عريق بالادب وفنون القريض . وقد اوردناها في هذه السطور كما اتصلت بنا فلا نثبتها ولا ننفيها ولعل من يأتي بعدنا من الباحثين في تاريخ الادب العربي العاملي تتوفر له الادلة على تمحيصها نفياً او اثباتاً .

ومنهم :الشيخ عبد المحسن الصوري العاملي ذكره صاحب امل الآمل ايضاً وقال انه فاضل شاعر اديب عده ابن شهراشوب من شعراء اهل البيت (ع) . وذكره ابن خلكان فقال فيه : احد الفضلاء المجيدين من الادباء الشعراء بديع الالفاظ حسن المعاني وهو من محاسن اهل الشام. واورد قصيدته المعروفة التي أولها :

اترى بثار ام بدين	علقت محاسنها بعيني
في لحظها وقوامهـــا	ما في المهند والرديني

---

١ و ٢ و ٣ - برقعيد والكاخية وقبراثا قرى في الموصل ويقولون ان اصلهـــا برعشيت والمالكية وحداثا كما تقدمت الاشارة .

وبوجهها ماء الشباب خليط نار الوجنتين
بكرت علي وقالت اختر حقـلة من حقلتين
أما الفراق او الصداد فليس عندي غير ذين
فأجبتهـا ومدامعي تنهل فوق الوجنتين
لا تفعلي ان حان صدك او فراقك حان حيني

وله :

عندي خزائن ود غرس نعمتكم قد مسها عطش فليسق من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمق فلن يعود اخضرار العود ان يبسا

وكانت وفاته في سنة ٤١٩ هـ

وولده الشيخ عبد المنعم بن عبدالمحسن الصوري العـاملي ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر وذكر قطعاً من شعره ولم نقف على تاريخ وفاته .

والبحث في تراجم ادباء جبل عامل وشعرائه ومـا لهم من الشعر الرائق والقصائد البليغة والادب العالي يطول شرحـه ولا تتسع له هذه الصفحات . وقد اوردنا فيما سبق من ابحاثنا طرفاً من قصائدهم الحماسية في وصف المعارك الحربية التي ثارت بين امراء الشيعة واخصامهم . غير انا نكتفي هنـا بذكر اسمائهم جملة سواء من نبغ منهم في العهد الاول الى ان حدثت نكبة الجزار ووقفت الحركة العلمية والادبية التي شرحناها فيما سبق .

ومن شعراء العهد الثاني الذي بدأ منذ تأسيس مدرسة الكوثرية وانقضاء عهد الجزار في سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م الى يومنا هذا معتمدين على كتاب امل الآمل واعيان الشيعة وغيرهما من مخطوطات جبل عامل .

شعراء العهد الاول

فمن القسم الاول اشهرهم ذكراً وارقهم شعراً :

١ – الشيخ محمد بن علي بن محمود المشغري نسبة الى قرية مشغرة . امام القريض في وقته وهو شاعر مطبوع نقي الديباجة رحل الى الهند واقام في كنف الامير نظام الدين احمد بن معصوم الحسيني وكان استاذاً لولده السيد علي صاحب السلافة توفي في الهند في سنة ١٠٩٠ هـ .

٢ – الشيخ ابراهيم بن يحي المخزومي العاملي الطيبي نسبة الى الطيبة . كان من اعيان علماء عصره واكابر شعرائه . تخرج في مدرسة شقراء على العلامة السيد ابي الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي ، وقد مر ذكره . هاجر الى ايران فأقام عشر سنين في اصفهان . وله مؤلفات وديوان شعر ضمّ اربعين الف بيت . وفي سنة ١١٩٥ هـ فرّ في من فرّوا من ظلم الجزار فسكن دمشق وصاهر اشراف آل المرتضى على احدى كرائمهم وكرائمه . ولد في سنة ١١٣٦هـ وتوفي في سنة ١٢١٢ هـ .

٣ – الامير موسى بن علي الحرفوشي الخزاعي البعلبكي المتوفى في سنة ١١٦٠ هـ .

٤ – الشيخ نصرالله حدرج من شعراء القرن الثاني عشر .

٥ – الشيخ ابراهيم الحاريصي من اشهر شعراء جبل عامل واطولهم باعاً وهو شاعر العميد الكبير ناصيف النصار الوائلي وقد مر بعض قصائده في مدحه وذكر المعارك التي انتصر فيها . توفي في سنة ١١٨٣ هـ. والحاريصي نسبة الى حاريص بالقرب من تبنين واعقابه فيها الى اليوم .

٦ – السيد فخر الدين بن علي الحسيني العاملي العيناثي من شعراء المائة الثانية عشرة

٧ – الشيخ محمد بن يوسف آل محي الدين العاملي من شعراء المائة الثانية عشرة

٨ – الشيخ ابراهيم بن فخر الدين العاملي البازوري نسبة الى البازوريه قرية

قرب صور . له ديوان شعر مخطوط ذكره في امل الآمل ولم يذكر تاريخ وفاته .

٩ - الشيخ ابراهيم الحر الصوري وهو من اسرة غير اسرة الحر المعروفة سكنت صور وانقرض نسلها . وقد ورد ذكره في تاريخ الامير حيدر الشهابي وأورد له قصيدة في الرد على الشيخ عبد الغني النابلسي . والمتوفى في سنة ١١٣٦هـ

١٠ - الشيخ اسماعيل بن الحسين العودي العاملي المعروف بشهاب الدين بن شرف الدين توفي في سنة (٥٨٠) (كذا ورد في اعيان الشيعة مجلد اول صفيحة ٣٩٥)

١١ - الشيخ ناصر بن ابراهيم البويهي العاملي العيناثي توفي في سنة ٨٥٣هـ

١٢ - الشيخ ابراهيم بن علي الحارثي الكفعمي كان حياً في سنة ٨٩٥ هـ.

١٣ - الشيخ حسين عبد الصمد الحارثي العاملي والد العلامة البهائي توفي في سنة ٩٨٤ هـ

١٤ - الشيخ شمس الدين بن محمد العاملي الحياني تلميذ الشهيد الثاني نزيل خراسان من شعراء المائة العاشرة .

١٥ - العلامة محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي المعروف بالبهائي توفي في سنة ١٠٣١ هـ.

١٦ - الشيخ نجيب الدين علي بن محمد الجبعي العاملي توفي في سنة ١٠٥٠ هـ.

١٧ - الشيخ زين الدين بن محمد حفيد الشهيد الثاني توفي في سنة ١٠١٠هـ

١٨ - السيد حسين بن شهاب الدين العاملي الكركي توفي في سنة ١٠٧٦ هـ

١٩ - الشيخ زين العابدين بن الحر العاملي اخو صاحب امل الآمل توفي في سنة ١٠٧٨ هـ.

٢٠ – السيد محمد بن محمد بن قاسم الحسيني العاملي العيناثي الجزيني توفي في سنة ١٠٨٥ هـ

٢١ – السيد جمال الدين بن الموسوي العاملي الجبعي ابن اخي صاحب المدارك توفي في سنة ١٠٩٨ هـ .

٢٣ – السيد محمد بن السيد حيدر العاملي الموسوي توفي في سنة ١١٣٩هـ.

٢٤ – الشيخ علي زيني العاملي النجفي من شعراء المائة الثانية عشرة .

هذا ما وقفنا عليه من اسماء شعراء العهد الاول ومعظم هؤلاء الفضلاء مرّ ذكرهم في فصل سبق عند الكلام على الحياة العلمية في جبل عامل .

الشعراء والادباء في العهد الثاني :

١ – الشيخ محمد بن يوسف آل محي الدين العاملي النجفي من شعراء المائة الثالثة عشرة .

٢ – الشيخ شريف بن محمد بن يوسف آل محي الدين العاملي النجفي توفي في سنة ١٢٥٠ هـ .

٣ – السيد موسى بن عبد السلام الموسوي العاملي توفي في سنة ١٢٥٣هـ.

٤ – السيد حسين الموسوي البعلبكي المعروف بالحسيني له ديوان شعر توفي في سنة ١٢٥٨ هـ .

٥ – السيد علي بن ابراهيم الحسيني له منظومة بحر العلوم توفي في سنة ١٢٦٠ هـ .

٦ – السيد صدر الدين الموسوي العاملي الاصفهاني توفي في سنة ١٢٦٣هـ.

٧ – الشيخ حبيب الكاظمي نزيل جبل عامل كان حياً في سنة ١٢٦٨هـ.

٨ الشيخ ابراهيم بن صادق العاملي الطيبي كان شاعر جبل عامل في عصره توفي في سنة ١٢٨٤ هـ .

٩ - الشيخ علي بن ناصر بن زيدان العاملي المركي توفي في سنة ١٢٨٩هـ.

١٠ - الشيخ موسى بن شريف بن محي الدين العاملي النجفي من شعراء المائة الثالثة عشرة .

١١ - الشيخ نصر الله بن ابراهيم بن يحيى العاملي الطيبي من شعراء المائة الثالثة عشرة .

١٢ - الشيخ حسين الكركي العاملي من شعراء المائة الثالثة عشرة .

١٣ - العلامة الاشهر الشيخ موسى بن امين شرارة العاملي توفي في سنة ١٣٠٤ هـ .

١٤ - الشيخ علي آل عز الدين العاملي الصوري توفي في سنة ١٣٠٤هـ.

١٥ - الشيخ علي بن محمد السبيتي الكفراوي الاديب اللغوي المؤرخ توفي في سنة ١٣٠٣ هـ .

١٦ - العلامة الشيخ محمد بن علي بن عز الدين العاملي مؤسس مدرسة حناوية توفي في سنة ١٣٠١ هـ .

١٧ - الشيخ عباس بن عبدالله البلاغي العاملي كان من شعراء المائة الرابعة عشرة .

١٨ - الشيخ محمد دبوق العاملي الذي اشتهر بزهده وتقواه توفي في سنة ١٣١٧ هـ .

١٩ - الشيخ رشيد بن قاسم قعون العاملي الزبديني توفي في سنة ١٣١٧هـ

٢٠ - السيد محمد بن حسن الموسوي العاملي من ذريـة صاحب نزهة الجليس توفي في سنة ١٣١٩ هـ .

٢١ – الشيخ علي بن حسين شمس الدين العاملي توفي في عصرنا .

٢٢ – الشيخ محمد صالح آل محي الدين العاملي النجفي توفي في سنة ١٣١٢ هـ .

٢٣ – الشيخ محمد بن سليمان العاملي المعروف بالبيرشي توفي في سنة ١٣٢٦ هـ.

٢٤ – السيد محمد بن علي بن ابراهيم الحسيني وهو استاذنا الذي تكلمنا عنه غير مرة توفي في سنة ١٣٢٧ هـ

٢٥ – العلامة السيد علي بن السيد محمود الامين رئيس مدرسة شقراء توفي في سنة ١٣٢٨ هـ.

٢٦ – الشيخ محمد حسين بن محمد حسن المعروف بالحافظ آل مروه العاملي توفي في سنة ١٣٣٠ هـ.

٢٧ – السيد محمد حسين بن السيد عبدالله الحسيني العاملي الشقرائي توفي في سنة ١٣٣٤ .

٢٨ – السيد هاشم آل عباس الموسوي العاملي الدير سرياني توفي في سنة ١٣٣٥ هـ

٢٩ – الشيخ ابراهيم بن الشيخ حسن عز الدين مجدد مدرسة حناوية توفي في سنة ١٣٣٣ .

٣٠ – الشيخ ابراهيم بن محمد حمام العاملي الجبشيتي توفي في سنة ١٣٣٤هـ

٣١ – السيد محمد بن السيد رضا آل فضل‌الله الحسني العاملي العيناثي توفي خلال الحرب العامة الاولى

٣٢ – السيد علي بن السيد جواد فحص الجبشيتي توفي خلال الحرب العامة الاولى

٣٣ - الشيخ حسن حوماني الحاروفي توفي خلال الحرب العامة الاولى .

٣٤ - العلامة الشيخ مهدي بن الشيخ علي آل شمس الدين العاملي وقد مر ذكره عند الكلام على مدرسة مجدل سلم توفي في سنة ١٣٣٤ هـ.

٣٥ - السيد جواد بن السيد حسن آل مرتضى الحسيني العاملي توفي في سنة ١٣٤٤ هـ .

٣٦ - الشيخ محمد حسين بن الشيخ شمس الدين العاملي الجدلي شاعر جبل عامل توفي في سنة ١٣٤٩ هـ .

٣٧ - السيد مصطفى آل نور الدين توفي في سنة ١٣٤٠ هـ .

٣٨ - الشيخ اسد الله بن محمود صفا الزبديني وقد مر ذكره توفي في سنة ١٣٥٤ هـ .

٣٩ - الحاج محمد حسن آل عبد الله الخيامي توفي في سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٠ - امين بن الحاج حسن آل عبد الله الخيامي .

٤١ - الحاج علي بن الحاج سليمان الزين العاملي (والد صاحب العرفان) وقد مر ذكره غير مرة .

٤٢ - السيد عبد الحسين بن السيد علي محمود الأمين الشقرائي توفي في سنة ١٣٥٥ هـ .

٤٣ - اسعد بك النجيب الاسعد .

٤٤ - شبيب باشا الاسعد .

٤٥ - نجيب بك الاسعد .

٤٦ - الشيخ امين كركي بن الشيخ حسين كركي الخاروفي توفي في سنة ١٣٥٤ هـ .

٤٧ - السيد علي بن المرحوم السيد حسن ابراهيم الحسيني توفي في سنة ١٣٥٣ هـ.

ومن اشهر الشعراء والادباء المعاصرين : العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي الصوري العلامة الشيخ عبد الحسين صادق بن الشيخ ابراهيم صادق . العلامة السيد حسن محمود الامين العاملي الشقرائي . العلامة الاكبر السيد محسن الامين العاملي الشقرائي مؤلف كتاب اعيان الشيعة . العلامة السيد عبد الحسين نور الدين الحسيني . العلامة الشيخ احمد رضا . العلامة الشيخ سليمان ظاهر وقد مر ذكرهما . العلامة الشيخ عبد الكريم الزين وولداه الشيخ محمد الحسين والشيخ علي . العلامة الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد سليمان الزين قاضي الشرع الجعفري بالنبطية وقد مر ذكره . الاستاذ الشيخ عارف الزين منشيء مجلة العرفان . العلامة السيد محمد حسن آل ابراهيم قاضي الشرع الجعفري في مرجعيون . الاستاذ محمد علي الحوماني . الاستاذ السيد عبد الرؤوف الامين المعروف بفتى الجبل. الشيخ علي مهدي شمس الدين. العلامة الشيخ حسن صادق مفتي صيدا الجعفري . السيد حسن والسيد عبد المطلب نجلا العلامة السيد محسن الامين المتقدم ذكره . محمد بك بن سهيل بك العاملي الوائلي . الشيخ محمد نجيب مروه . الشيخ علي بن الشيخ احمد شراره العاملي . الحاج علي بن الحاج محمد عبدالله الخيامي مفتي مرجعيون الجعفري . موسى الزين شراره العاملي . عبد الحسين آل عبدالله الخيامي .

ومن شعراء جبل عامل المجهول عصرهم :

السيد حسين بن مساعد العاملي العيناثي ، والسيد تاج الدين العاملي ، والسيد ناصر الدين العاملي .

وللحقير راقم هذه السطور ديوان شعر صغير اسماه الطليعة ضم ما نظمه في عصر الشبيبة وايام الاشتغال في طلب العلم . وقد هجر الشعر منذ زمن بعيد وكان آخر بيت جرى على لسانه من قصيدة طويلة في أحوال العصر الحاضر .

عفت القوافي والقريض غداة اضحى الشعر كاسد

رواج الادب في أوائل العهد الثاني

ولا بد قبل الختام من الاشارة الى ان سوق الادب راجت رواجاً عظيماً في جبل عامل في أوائل العهد الثاني . ونبغ فيه شعراء افذاذ سبق الكلام عنهم ولا سيا في العصر الذي تلى جلاء المصريين عن سوريا واسناد حكومة جبل عامل الى حمد البك وابن اخيه علي بك الاسعد حيث دخل جبل عامل في دور الاستقرار ، وارتفعت عنه السلطة الدخيلة . فساد الامن وتوفرت الثروة .

وكان الأمراء من آل علي الصغير يدرسون العلوم العربية وينظمون الشعر ويعنون بالأدباء . ويعقدون مجالس الادب فيتبارى فيها الشعراء ، وينفحونهم بالجوائز والعطايا . ولهم مع فضلاء ذلك العصر نوادر وطرف تقدم الكلام عنها في حوادث الحكومات الأقطاعية .

شاعرات جبل عامل

ولم يكن قرض الشعر في هذا العهد مقصوراً على الرجال بل تعداه الى النساء فنبغ منهن شاعرات بارعات كالسيدة فاطمة كريمة اسعد بك الخليل المترجمة في كتاب الدر المنثور . والسيدة زينب كريمة علي بك الاسعد ، ووالدة محمد بك السهيل ، الذي مر ذكره . والسيدة زينب علي فواز التي نشأت في تبنين في كنف آل علي الصغير وهي ربيبة السيدة فاطمة الاسعد الآنفة الذكر ، وعلى يديها تخرجت بالشعر والادب ، وطارت شهرتها في مصر وسوريا . ولها شعر رائق ومؤلفات نفيسة . وقد ترجمتها مجلة العرفان في المجلد الثامن صحيفة ٤٥٥ .

وفي عصرنا الحاضر نبغت بالشعر والادب ونظم المقطعات الرائعة السيدة دنيا كريمة محمود بك التامر من آل علي الصغير ، والسيدة فاطمة رضا كريمة العلامة الشيخ احمد رضا ، والسيدة زهراء الحر ، والسيدة علية القبيسي .

ومن اقدم ربات الخدور اللواتي تذوقن في الشعر والادب من نساء جبل عامل : ام علي تقية بنت ابي الفرج غيث الصورية . ذكرها صاحب وفيات الأعيان وقال : انها توفيت في سنة ٥٧٩ هـ وانها مدحت الملك المظفر بن اخي صلاح الدين بقصيدة اتت فيها على وصف الخمرة . فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمن صباها . فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية في وصف الحرب وقدمتها للملك ثم سيرت اليه تقول : علمي بهذا كعلمي بهذا .

ونبغ من نساء العامة في هذا العهد امرأة في بنت جبيل تدعى منى . كانت تحفظ الكثير من جيد الشعر وتفتح بيتها للادباء والشعراء ، فيعقدون مجالس الادب . وكانت ذات نظر نافذ في النقد تناقشهم في ضروب الشعر وفنونه . وكانت عدا اشتهارها بالادب تعرف مبادىء علم الهيئة ومواقع النجوم .

الشعر الزجلي في جبل عامل . انتشار الادب بين طبقات العامة

لابناء جبل عامل ميل شديد للادب ، ورغبة تامة لاستظهار الشعر . يستوي في ذلك العامة والخاصة . يطربون للانشاد ، ويرتاحون لنوادر الأدباء وطرائفهم . وقد عرفنا كثيراً من العامة ممن لا عهد لهم بالتعليم ولا يعرفون شيئاً من مبادىء العلوم العربية يحفظون الشيء الكثير من اشعار العرب ، لا سيما اصحاب المعلقات ومدائح آل البيت النبوي . ورأيت غير واحد من رعاة البقر يستظهرون ميمية ابي فراس الحمداني التي اولها :

الدين مخترم والحق مهتضم ... وفيء آل رسول الله مقتسم

وميمية الفرزدق التي اولها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

وغيرهما من شعر ابن ابي الحديد والازري والكميت الاسدي وغيرهم .

وقد كان لعهد قريب رجل اسكاف يدعى احمد حرب ، امياً لا يقرأ ولا يكتب، غير انه كان يحفظ قسطاً وافراً من اشعار العرب من قصائد ومقطعات وينظم الشعر بغير لحن فيجيده . ومن نظمه قصيدتان في مدح الزعيم الاكبر حمد البك معروفتان متداولتان .

وكانت دكان هذا الاسكاف اشبه بناد يؤمه الادباء والشعراء يتذاكرون الشعر والادب على نحو ما كان الشاعر الامي الخبزرزي في العصر العباسي .

وفي دير الزهراني ، قرية تبعد عن النبطية بضعة اميال شمالا ، امرأة تدعى الحاجة رحمة الطفيلي ، لم تزل في قيد الحياة وفي الستين من العمر ، حضرت مجلساً ضم اديبين من ادباء جبل عامل اختلفا في تفسير معنى بيت لبعض الشعراء يقول فيه :

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان

ولم يتفقا على وجه . ولكن الحاجة رحمة التي كانت تصغي لحوار الاديبين حلت المشكل فقالت لهما : « انني اعجب كيف غمض عليكما المعنى وانتما من ابناء المدارس وانا امرأة قروية لا عهد لي بالعلم ولا بالمدارس قد فهمته ؟ إنّ الشاعر البدوي ركب ناقته وقصد حبيبته وترك فصيل الناقة في مأواه وكان الراكب يستحث الناقة الى الامام ليصل الى غرضه بالقريب العاجل ، وهي تحاول النكوص الى خلف لارضاع فصيلها ، فاتفقا غاية ومأرباً واختلفا قصداً وسيراً » .

والشعر الزجلي منتشر في جبل عامل في القرى والحواضر ولهم فيه ولع خاص حتى لا تكاد تخلو قرية من شاعر زجلي يطلقون عليه اسم قوّال. وقد برع بعضهم فيه براعة تامة وحذق ضروبه وانواعه كالموالبا والعتابا والقرّادي والمطاليع والهجانيات . ولهم مقطعات وقصائد تنطوي على كثير من الحكم والفكاهة . اشتهر منهم في الجيل الماضي في الجهة الجنوبية : محمود حداثا من حاريص ؛ وفي الجهة الشمالية الحاج قاسم فهد ، ومصطفى وهبه ، والحاج

حسن حامد ، والحاج محمد شاهين والحاج قاسم ظاهر من النبطية ؛ وفياض عياش ، وابراهيم عياش ؛ وقاسم حمدان ؛ وقاسم ايوب حرب ، وابرهيم حسين شاهين من حاروف ؛ ومحمد الحاج طباجا من البابليه ؛ واسعد خليل البعلبكي ، وموسى شريم ، وعلي الحاج ، ودياب نجم من حومين .

واشهرهم اليوم الشيخ علي زين من قليا ، وتوفيق عبد الكريم صباح من النبطية وبينهما مراسلات زجلية تدل على براعة وسلامة ذوق .

أما وقد انتهى الكلام عن الادب والادباء لا يسعنا إلا أن نفرد فصلاً خاصاً باعظم واشهر نابغة رياضي ظهر في جبل عامل في العصر الحاضر وهو المرحوم :

حسن كامل الصباح :

هو من اعظم الرجال الذين نبغوا في جبل عامل بل في سوريا جمعاء والشرق الاوسط بكامله .

ولد هذا النابغة المخترع في النبطية في ١٦ آب سنة ١٨٩٥ م وتوفي في نيويورك ، الولايات المتحدة الاميركية ، وذلك في مساء يوم الأحد الواقع في ٣١ آذار سنة ١٩٣٥ م . تلقى علومه الابتدائية في المدرسة الاميرية في النبطية ، ثم ادخل المكتب الاعدادي ثم السلطاني في بيروت . وفي السنة الاولى من دخوله المدرسة السلطانية ظهرت عليه علائم النبوغ في الرياضة اذ اعان طلاب السنة الخامسة في حل مسائل جبرية شديدة التعقيد ، وتعلم اللغة الفرنسية في غضون ثمانية اشهر . ثم انتقل الى جامعة بيروت الاميركية فالمّ باللغة الانكليزية في مدة ستة اشهر . وكان غرضه من درس الفرنسية والانكليزية متابعة العلوم الرياضية والطبيعية نظراً لعدم توفر هذه أو تلك

في الكتب العربية والتركية . وقد ذكر احد رفاقه في الجامعة انه كان وهو في الصفوف الاولى يشارك تلامذة الصفوف العليا في حل المسائل الرياضية . ثم دخل قسم الهندسة ولكنه لم يتمكن من اتمام سنته الاولى فيه اذ دعي سنة ١٩١٦ الى الجندية ، ونقل الى الاستانة . فتيسر له دخول سرية التلغراف اللاسلكي تحت قيادة ضابط الماني فدرس عليه اللغة الالمانية واستحضر كتباً رياضية في تلك اللغة ، وتابع الدرس . ثم عين قائداً لمفرزة التلغراف اللاسلكي في غاليبولي وبقي حتى نهاية الحرب .

وعندما وضعت اوزارها عاد الى دمشق فعين معلماً للرياضيات في المدرسة السلطانية . وكان قد توصل في درسه الخاص الى فلسفة التحليل الرياضي . لكن انشغال باله في امور عائلته حال دون متابعة دروسه .

وانتقل في عام ١٩٢١ م الى بيروت وتولى تدريس الحساب في جامعتها الاميركية . ورغب في الاستزادة من معين العلم فهاجر الى الولايات المتحدة للإلتحاق بمؤسسة ماساتشوستس الفنية وهي من اهم مدارس الهندسة في العالم وعند تقديم الامتحانات في تلك المدرسة اعفتـــه الادارة من جميع الدروس الرياضية في البرنامج كما اعفته من دروس الطبيعيات . غير انه لم يمكث طويلا في هذه المدرسة لعجزه عن اداء نفقات التعليم فرحل عنها الى جامعة الينويس ولم يبلغ نهاية العام في تلك الجامعة حتى قدم استاذ الفلسفة الطبيعية فيهـــا اقتراحاً للعمدة بمنح حسن كامل شهادة معلم علوم (M. A.) الا ان العمدة لم توافق على ذلك الاقتراح قائلة انه يجب على التلميذ ان يصرف سنتين على الاقل في الجامعة قبل منحه شهادة ما . عند ذلك آنس من نفسه رغبة في ترك حياة الدراسة ودخول حياة العمل . فعين في شركة الكهرباء العامة جنرال الكتريك في سكنكتدي نيويورك وهي من اعظم شركات الكهرباء في العالم ان لم تكن اعظمها على الاطلاق . ولما بدأ يخترع الاختراعات المدهشة عينت له مختبراً خاصاً ومكتباً خاصاً وعينت له مهندسين معاونين يعملون بارادته . وبعد ان وضع هندسة جديدة للكهرباء اخذت تتوارد عليه شهادات رؤساء

الجامعات واكابر علماء الغرب : كرئيس المؤسسة الكهربائية في بوسطن ، ماسانشوستس ، المعروفة باسم (ام. آي. تي.) ؛ والاستاذ كاستلو فرانش استاذ الكهرباء في جامعة ميـــلانو ايطاليا ، والاستاذ موريس لوبلان العالم الرياضي الفرنسي الشهير ، ورئيس الجامعة الاميركية في بيروت . وكذلك بعثت اليه الشركات الكهربائية الكبرى بشهاداتها واعترافاتها بصحة اختراعاته ومن تلك الشركات شركة وستنكهاوس الكهربائية في شيكاغو وثلاث شركات كهربائية المانية .

وبعث اليه المستر هوفر ، رئيس الولايات المتحدة في ذلك الوقت بكتاب يظهر فيه اعجابه بنبوغ العالم العربي ، وذلك بعد ان سجلت شركة الكهرباء العامة جدول اختراعاته في دائرة السجلات في واشنطون العاصمة .

وفي سنة ١٩٣٢ منحه مجمع مؤسسة الكهرباء الاميركي في نيويورك لقب - فتى العلم الكهربائي - وهـذا اللقب لا يعطى الا لمن اخترع وابتكر ودرّس في فن الكهرباء مدة عشر سنوات . وقد نشر ذلك في حينه .

وبعد ان تعددت شهادات علماء الغرب في افضلية مبادىء العالم العربي ابن الصبّاح العاملي اضطر اولياء الشأن في شركة الكهرباء العامة في سكنكتدي نيويورك لدعوة كل المهندسين الذين كانوا يعارضونه الى اجتماع كبير عقد في مكتب الشركة وذلك في سنة ١٩٣٢ ، ودارت رحى الجدال . ومع انه لم يكن له بينهم نصير فانه افحمهم بنظرياته وتجاربه العلمية حتى انتهت الجلسة وقام رئيسها العالم البرت هل وقال : لقد تبين الآن ان نظريات الصبّاح لا وهن فيها وهي متينة من الوجهة العلمية .

وكان الفوز في النهاية بجانب ابن الصبّاح وخرج المهندسون مطأطئي الرؤوس ، واضطروا لتطبيق نظرياته في جميع معاملهم ومؤسساتهم .

وبعث المهندس الكهربائي والمخترع لأهم الآلات في التلغراف اللاسلكي والراديو المستر الكزدوس تقريراً الى رئيس شعبة الاختراعات في الشركة

العامة ينطبق على مبادىء ابن الصباح ويقول انها نجحت نجاحاً تاماً .

اما علمه ، فقد كان المرحوم حسن كامل صباح فضلاً عن تعمقه في العلوم الرياضية والطبيعية وخصوصاً فرع الكهرباء منها ، يجيد خمس لغـات هي : العربية والتركية والانكليزية والفرنسية والالمانية . وكثيراً ما اتحف الصحف الانكليزية والعربية بمقالات علمية قيمة وكانت له عناية خاصة في الادب واطلاع واسع على فنونه .

وقد انتدبته الشركة ليمثلها في المؤتمر العالمي للكهرباء الذي اقيم في باريس سنة ١٩٣١ م فلم يستطع السفر شخصياً وكتب تقريراً ضافياً باللغة الفرنسية تلي في المؤتمر فلاقى استحساناً عاماً .

وبلغ ما سجله من اختراعات حتى عام ١٩٣٢ حسب البيان الذي نشرته الشركة في ذلك العام ثلاثة واربعين اختراعاً . وذكرت صحف المهجر بعد وفاته ان اختراعاته قد بلغت السبعين . كلهـا على جانب عظيم من الأهمية . وقد سجلت الشركة معظمها في دائرة السجلات بواشنطون العاصمة وسجلتها في ممالك العالم ايضاً كي لا يحق لاحد استثمارها غير الشركة . وقد انفقت على تثبيتهـا وتسجيلها مائة الف ريال . وصرفت على اختراع واحد من تلك الاختراعات ربع مليون ريال وهو اختراع في التلفزة يحول أشعة الشمس الى نار وقوة كهربائية . واختراع آخر هو استعمال شعاع الكهرباء لاذاعة صور الاشخاص والاشباح على جنـاح الاثير وهذا ايضاً صرفت عليه مبالغ لا يستهان بهـا .

واليك جدول آخر من هذه الاختراعات الصادرة من دائرة السجلات في واشنطون باسم ابن الصبّاح .

طريقة لضبط القوة الصادرة من المقوم الكهربائي . رقم الباتنت ١٦٦٩٥٠٢

حوافظ وضوابط لحمايـة المقومات الكهربائية من الخطر . رقم الباتنت ١٧٧٦١٨٩ .

طريقة لمنع حدوث هزات عالية في القوة الكهربائية في المقومات الزئبقية رقم البانتت ١٧١٧٣١٢ .

ملتقط حديث لمنع حدوث انفجـــار كهربائي منعكس محول للعزائم الكهربائية العظيمة . رقم البانتت ١٧٥٢٢٠٥

جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور . نمرة البـــانتت ١٦٩٤٦٩ .

جهاز للتلفزة يحول اشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة . رقم ١٧٤٩٦٦ .

جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي . رقم البـــانتت ١٧٠٦١٦٥ .

ومما ذكره مدير شركة جنرال الكتريك في رسالته الى والد الفقيد النبذة الآتية : « لقد برهن الأستاذ كامل الصباح اثناء خدمته لشركتنا على انه من اعظم المفكرين الرياضيين في البلاد الاميركية وان وفاته تعد خسارة كبيرة لعالم الاختراع . » وقد اعترف جهابذة علمـــاء الفن الكهربائي الذين كانوا يلقبونه باديسون الصغير بانه لو فسح الله في اجل الفقيد سنتين لعدّ من اعظم المخترعين .

أما آماله وطموحه ، فان اعظم مـــا طمح اليه كامل الصباح في حياة الاختراع التي قضاها هوذلك الامل في تسخير اشعة الشمس المحرقة في الصحراء العربية لانارة المدن والقرى . وفي سبيل ذلـك اشترى الطيارة التي كانت من اسباب وفاته فقد كان يأمل ركوب متن الجو الى القارة الاوروبية ومنها الى وطنه ثم يحلق فوق البلاد العربيـــة اجمع ويستقر الى حين في الصحراء العربية حيث يجري تجاربه .

وكم كانت تلك المغامرة الجوية وحدهـــا املا عظيما تلألأ في حياة المغامرين .

وكان يسعى في وضع الخطط والخرائط والتقارير لأخذ القوة الكهربائية

من نور الشمس في الصحراء العربية ، ووضعها في خزانات وتوزيعها على المدن والقرى وانارتها بمصابيح وهاجة، وانشاء معامل لتوليد القوة الكهربائية يعمل فيها مئات الالوف من ابناء وطنه .

وقد فاوضه فقيد العرب الملك فيصل الاول ملك العراق بانشاء معامل لتوليد القوة الكهربائية وتوزيعها على كل الاقطار العربية وكاد ينتهي الامر باستقدامه الى العراق لولا وفاة الملك فيصل .

اما وفاته واثرها . فبعد ظهر الاحد الواقع في ٣١ آذار ١٩٣٥ ذهب كامل وبعض اصدقائه من العائلات الاميركية الى مدينة مالون حيث تفقد طيارة كان قد اشتراها ليقوم برحلة الى البلاد العربية وفي عودته الى سكنكتدي كانت سيارة اصدقائه تسير في المقدمة ففقدوا اثره قرب مدينة اليزابث تون وعادوا ادراجهم فوجدوا سيارته خارجة عن الطريق العام الى منحدر يبلغ علوه خمس عشرة قدماً ووجدوه قتيلاً فيها .

فحملت اسلاك البرق والتلفون النبأ المؤلم الى جميع اصدقاء الفقيد في الولايات المتحدة فتوافدوا الى سكنكتدي غير مصدقين ما فاجأتهم به الانباء. وانتشر خبر الحادث في تلك الانحاء وعلمت ادارة المعمل الكهربائي في سكنكتدي فارسلت عدداً من موظفيها مع رجال التحري فنقلوا جثمان الفقيد الى المدينة . وكان المأتم الذي جرى له في سكنكتدي من المآتم المهيبة التي لم تشهدها تلك المدينة من قبل. فقد اشترك فيه الاعيان من الاميركان وادباؤهم وعارفو فضل الفقيد منهم .

واوقفت الشركة حركة العمل مدة خمس دقائق حداداً على الفقيد العزيز.

هذا تاريخ موجز لحياة قصيرة الامد ولكنها جليلة الاثر ، زاخرة بروائع العلم والعمل ، حافلة بالنفع للانسانية جمعاء . حياة رجل فذ جدير بالنشء ان يتخذها مثالاً اعلى لحياة الجد والعمل وخدمة الوطن . وجدير بنا جميعاً ان نخلد ذكراه ونفاخر به الامم .

الفصل الثالث

هجرة ابناء جبل عامل الى ما وراء البحار ومتاجرهم وارباحهم

قلنا في مستهل هذا الدور انه بعد ان طويت صحيفة استقلال جبل عامل الداخلي في سنة ١٢٨٢ بزوال الحكم الاقطاعي ، حكم الترك البلاد حكماً قاسياً شديداً مدة تزيد عن الخمسين عاماً. وعبثوا بكيانها وفرقوا كلمتها . فتأخرت البلاد اشواطاً الى الوراء بعد ان كانت في الطليعة .

ثم ساروا على سياسة الافقار ، وضربوا اقتصاديات البلاد ضربات أليمة . فوضعوا الرسوم على الاراضي ، ونوعوا الضرائب من ويركو واعشار وبدلات طريق وويركو شخصي ، فضلاً عما يلحقها من ضمائم وملحقات وفساد في طريقة الجباية .

ثم قضت على زراعة التبغ بالحصر . ومنحت احتكارها لشركات اجنبية وكانت المورد الوحيد لجبل عامل من زمن مديد اذ لم يكن للحبوب أسواق رائجة في خارج البلاد . فتعطلت الزراعة ، وبارت الارض ، وكثر البطالون وانتشرت مع هذه العوامل الاخلاق الفاسدة ، والاميال الشريرة . وامتدت ايدي اللصوص وقطاع الطرق الى مال الشعب البائس . فاختل الأمن وسادت الفوضى ووقعت البلاد في فقر مدقع وضنك شديد .

ويطول بنا الشرح اذا بسطنا اضرار تلك الضرائب لا سيا الاعشار . وما كان يرافقها من ظلم وفظائع كقطع الاشجار والاقلاع عن زراعة الارض

تخلصاً من الظلم والجور . يضاف اليه ما كان يبتزه عمال الدولة من مال الشعب بطريق الرشوة لارهاقه واجاعته وافقاره .

ولم يكفهم كل هذا حتى اخذوا بتطبيق نظام التجنيد الاجباري الذي صدر في اوائل حكم السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود في سنة ١٢٥٥ ﻫ على ابناء جبل عامل . فكان سبباً حتماً لخراب البلاد ، وضربة قاضية على ثروتها .

استحكم الضيق ، واشتد الكرب ، وضاقت السبل بالشعب البائس ، واثقلته الديون والضرائب والرسوم المختلفة الاسماء المتحدة الغاية على افقاره واذلاله . فهاجر الناس افواجاً الى ما وراء البحار سعياً في طلب الرزق . وتركوا اهلهم ووطنهم لا يلوون على شيء . وفطنت الحكومة اخيراً بعد أن طغى سيل المهاجرة ، ورأت البلاد تكاد تقفر من سكانهـــا وتتعطل زراعتها وتتراكم الاموال والرسوم الاميرية فسدوا بابها ومنعوها منعاً باتاً دون أن يرأفوا بالشعب فيخففوا عنه الضرائب او يشقوا له طريقاً للعمل والارتزاق . غير انهم بسد باب المهاجرة فتحوا باباً آخر للرشوة وسلب المال . فكان الناس يسيرون (تهريباً) خفية وبجوازات ملفقة مزيفة لقاء جعل معلوم يبتزه السمسار ويقاسمه عليه عدد من موظفي الدوائر وضباط الدرك وغيرهم .

واذا ابى الاول أو تلكأ عن تأدية الجعل شدّد الثاني عليه النكير وارسل الجند لمطاردة المهاجرين البائسين . وعندها تزهق النفوس وتسيل الدماء . وعلى كل فالخسارة واقعة حتماً على أولئك البؤساء .

استفادت البلاد فائدة ضئيلة من المال الذي كان يرسله المهاجرون الأول الى اهلهم وذويهم ، غير انها خسرت اليد العــاملة . فتأخرت الزراعة ، وهي مرتزق السواد الاعظم من الاهلين ، واصبح العائدون من هؤلاء المهاجرين لا يمدون يداً للزراعة ترفعاً منهم ، ويحسبون العمل فيها عــاراً . وهم لا همّ لهم الا صقل الشعور والتأنق بالملابس والانصراف الى اللهو وبنــاء الدور والقصور .

والاشتغال بالـفلاسفة وبالقيل والقـــال والسياسات الفارغة مما اضر كثيراً باقتصاديات البلاد. اذ ان معظم اولئك المهاجرين بدد ثروته واتلف أمواله فيما لا فائدة منه ، فيضطر الى رهن مـــا يملكه ويعود القهقري من حيث اتى . وهيهات ان ينجح في الثانية نجاحه في الاولى ، هذا اذا سالمه الزمن وتحاشته الامراض وبعد عنه ملك الموت هكذا كانت حال المهاجرين الاول .

وفي عصرنا هذا طغى سيل المهاجرة طغياناً شديداً فجرف الشباب الغض والزهور اليانعة من فلذات الاكباد لا فرق بـــين المثقف والجاهل ومعظمهم ساروا نحو افريقيا الغربية حيث ألفوا جالية كبيرة تفرض احترامها وارادتها بالرغم مما يلاقون من صنوف العذاب والاضطهاد .

وقـد اصبح عدد غير قليل منهم من كبار الاغنياء واصحاب الثروات النقدية والعقارية . واكبر مشروع خيري ساهموا به هو انشاء بنـــاء الكلية العاملية في بيروت محلة « راس النبع » وما يتبعها من عقارات ، بمساعي ذلك الرجل العصامي والمصلح الغيور رشيد بيضون الذي نذر حياته وكرّس اوقاته في سبيل ابراز هذا المشروع الى حيّز الوجود . فرفع به الكثير من معنويات هذه الطائفة وادى لها خدمة اقل ما يمكن الجزاء عليها تدوين اسمه مع عظماء الطائفة المصلحين تقديراً وتخليداً ، وعبرة للاجيال المقبلة .

هذا ما وفقنا اليه من جمع الروايات والحوادث التاريخية المتعلقة بتلك البقعة المعروفة بجبل عامل واني اعود فأقول :

ان هذا الكتاب لم يبلغ الغاية ولا احاط بالموضوع من سائر اطرافه . وانما هي اسس وضعناها ، وحوادث متفرقة جمعناها واخبار، كاد يمحى اثرها دوناها . ولعل من يأتي بعدنا ممن تحمله الغيرة على وطنه يقوم باكمال البحث وتوسيع المجال .

والله الموفق وهو بالهداية كفيل

مراجع الكتاب

١ - بعض السفن العاملية المخطوطة القديمة
٢ - صبح الأعشى للقلقشندي
٣ - تاريخ سوريا ومصر للكرو!
٤ - أعيان الشيعة للسيد محسن الامين
٥ - تاريخ الامير حيدر الشهابي
٦ - تاريخ جودت باشا
٧ - تاريخ الأعيان لطنوس الشدياق
٨ تاريخ بعلبك لحائيل الوف
٩ - تاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين
١٠ - معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر
١١ - تاريخ العلويين
١٢ - العقود الدرية في الفتاوي الحامدية
١٣ - ابن فتحون
١٤ - ابن شداد
١٥ - جورج يني
١٦ - الإسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي
١٧ - الجوهر المجرد للشيخ علي السبيتي
١٨ - العقد المنضد لشبيب باشا الاسعد
١٩ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
٢٠ - مجلة الكلية في بيروت
٢١ - الشيعة او المتاولة في جبل عامل للشيخ احمد رضا
٢٢ - مجلة المقتطف بمصر
٢٣ - مجلة العرفان في صيدا

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الثاني